مكتبة ياسمين

هرّ غُليل

محمد ذيب الحميداني

رواية

التنوير

محمد ذيب الحميداني

هرّ غُليل

في جدة، المدينة الجميلة التي تقع على ساحل البحر الأحمر، وتتميّز بالتنوّع السكاني والعرقي فيها، وفي حي «غُليل»، حيث الأزقة تضيق كأنها تخشى الضوء، وحيث الوجوه متعبة، والقامات محنية كجدران المنازل العتيقة. في ذلك الحيّ الذي يعجّ بالهاربين والمنسيين، والمخالفين لأنظمة الإقامة الشرعية، عاش يوسف الملقّب بـ«الهرّ»... عرف حياة الأزقة الضيقة ، وحمل ندوب المرارات، واختبر حياة لم تعرف الرحمة، لكنه احتفظ بقلب ينتظر رعشة الحب.. حلُم بأن يُنظر إليه كرجلٍ كامل، وليس أجزاء متناثرة من رجل لم يكتمل يومًا. حاصره وجهه الدميم، وقامته القصيرة، وبشرته الداكنة في دائرة النفي والعزلة وأجهدته أحلامه في حبٍّ استمرّ يبحث عنه.

«عشتُ في هذا الحي... في بيتٍ كلما تمدَّدت تحت سقفه شعرت أنه آيلٌ إلى السقوط. بيتٌ خاوٍ من الدفء والأمان كحالِ معظم البيوت المندسَّة في فوضى الأحياء المهمَّشة.

بيوت صغيرة معظمها من طابق واحد، أبوابها تطلُّ على الأزقة كأنها جحور جرذان؛ ينحبس خلفها ساكنوها ليلاً خوفاً من الشرطة والفتوّات وتجار المخدرات وكل أشكال قُطّاع الحياة».

«أتأمل في ماهية الإنسانية، إنسانيتي أنا تحديدًا. أرى السعادة بعيدة عن متناولي... لم أعد أطمح إليها، كل ما أرجوه الآن هو شيء من الطمأنينة وبعض من الراحة».

«لا أحد يُقيم لإنسانيتي وزنًا أو اعتبارًا... هذا ما كنتُ أُحسُّ به وأراه في عيونِ الآخرين حين تلتقي نظراتهم بوجهي. أن تكون دميمًا فأنت بين مطرقة السخرية وسندان الرفض، مهما تكن طيّبًا ومهما تسعى من أجل أن تكون شخصية مقبولة في مجتمع كالذي أعيش فيه، بل ربما في كل مجتمع».

مكتبة ياسمين

محمد ذيب الحميداني

هِرّ غُليل

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

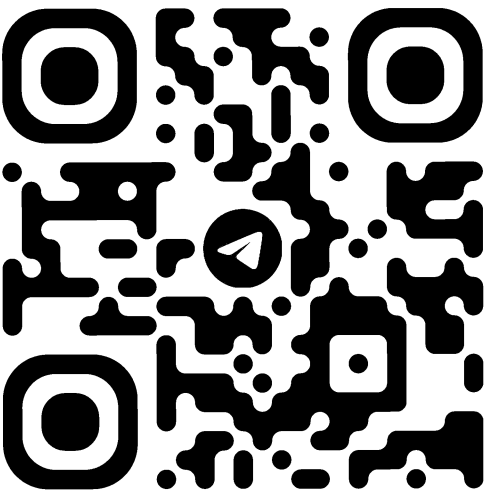

الكتاب: هِرّ غُليل ، رواية
تأليف: محمد ذيب الحميداني
عدد الصفحات: 272 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-285-5
الطبعة الأولى: 2025
الناشر
دار التنوير
لبنان: بيروت- الرملة البيضاء- بناية بنك لبنان والخليج- الطابق الثاني
هاتف: 009611797434 - 00961381944367
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net
www.daraltanweer.com

telegram @
yasmeenbook

محمد ذيب الحميداني

هِرّ غُليل

روايــة

الفصل الأول

لافتة.. على باب الواقعة
كَيف نستنشقُ الهَواء في وسطِ زُكام هذا الحي!

1

في تلك الأحياء المنسية نعيش تفاصيل أوجاعنا، فيها تتردّد أصداءٌ تملأُ أحزان أزقتها الضيقة وأبنيتها المتهالكة. هذه الأحياء التي ترزح تحت وطأة الفقر، تترك على وجوهنا مسحة من البؤس، وتهدينا سُبل الأحزان!

في عام 1975م بدأت حكايتي من حي غُليل.

حيٌّ تحترق الطيور في فضاءاته الخانقة، وتضيق فيه الشوارع، والأبواب، والمجاري، والنفوس، وحتى عقول الناس!

عشتُ في هذا الحي الذي يُشبه ميتًا يخرج من تحت الأنقاض! في بيتٍ كلما تمددت تحت سقفه شعرت أنه آيلٌ إلى السقوط. بيتٌ خاوٍ من الدفء والأمان كحالِ معظم البيوت المندسَّة في فوضى الأحياء المهمَّشة.

بيوت صغيرة معظمها من طابق واحد، أبوابها تطلُّ على الأزقة كأنها جحور جرذان؛ ينحبس خلفها ساكنوها ليلًا خوفًا من الشرطة والفتوّات وتجار المخدرات وكل أشكال قُطّاع الحياة.

ترعرعت في أزقة حي غُليل المخيفة وشوارعهِ الضيقة المتهالكة المظلمة. حيطانه ضيّعت ألوانها، وطرقاته تمتلئ بالأوساخ والأوحال حتى غاب أسفلتها تحت كثافة القبح الساكن فيها!

انتقلتُ لأعيش في كنفِ عمي سالم الذي تولّى رعايتي حين توفيت أمي وأنا في سن الخامسة، وكان قد سبقها والدي ببضعة أشهرٍ فقط.

لم أعرف معنى فرح الطفولة. في واقعي البائس أبحث عن الماضي لأحمّله شيئًا من الأوهام الجميلة، حتى أقلّل من خسائرِ الحاضر الذي تتكسّر فيه الأوهام أمام الوقائع الصادمة في قساوتها.

الشقيُّ من يعجز عن استرجاع الطفولة، فهي ملعب الأحلام والشعور بالحرية! وقد كنتُ شقيًا لدرجة أنني لا أتذكر منها شيئًا.

السنون الأولى تبخرت من ذاكرتي. كأنني عشتها في ظلام دامس، أو ولدتُ فيها أعمى! ضبابٌ كثيف يلفّ ذاكرتي، فأنا بالكاد أتذكر وجهُ أمي، أو صوتها. لا أدري ما الذي حدث لذاكرتي؟ ولماذا تخونني كلما حاولت أن أستدعي ما أعتقد أنه أجمل ما فيها؟!

أما أبي فقد ضاعت ملامحه في مخيلتي وكلما حاولت أن أسترجع قسمات وجههِ، طغت على مخيّلتي صورة وجه عمّي. ما أعرفه جيدًا أنهما، أبي وأمي، رحلا تباعًا، وهذا كان يجعلني أشعر أنّ موتهما كان عقوبة لي... كم تصبح هذه العقوبة قاسية على طفلٍ حين يرى دميةً في يد أحد أترابه، أو قطعة حلاوة يشتهيها فلا يستطيع الحصول عليها.

أقطنُ في بيتِ عمي سالم مع زوجته، وبناتهِ الأربع. زوجة عمي اسمها عائشة ولكننّا اعتدنا على مناداتها بـ«عيشه» وتصالحت هي مع ذلك الاسم، لكنها لم تتصالح أبدًا مع وجودي في البيت.

أطلقت على ذلك المكان في الحي العشوائي اسم «بيت»، لكنه في الحقيقة ليس سوى بقعة منسية في زوايا الحي، موطنًا لبشرٍ أخرجتهم الحياة من دائرة التصنيف الاجتماعي. هناك ترى رجالًا يفترشون مقاهٍ يختلط فيها عبق الشاي بغبار الشارع، ونساءً أفريقيات مكسوراتٍ يبعن ما تيسر لهن، فقط ليؤمنَّ وجبة يومهنّ، وأطفالًا في ثياب مهلهلة وأقدام حافيه يلعبون في برك المجاري، وشبابًا ضائعًا، تائهًا بين أيامهِ لا يرى للمستقبل طريقًا ولا معنى.

عشت وحيدًا يتملّكني شعور أنني عبء يجب التخلص منه! فمع أننا نجلس معًا في تلك «الصالة» الصغيرة المفروشة بالحصير إضافةً إلى كنبتين مهترئتين في إحدى زواياها، فإنّ عَيشه كانت تأمرني أن أجلس بعيدًا وتعطيني كميةً من الطعام لم تشبعني يومًا، أما العشاء فهو طبق يتكرر دائمًا؛ عبارة عن خبزةٍ فيها بعض الجبنة المصرية وبين حينٍ وآخر تكرمني بكأس شاي. كنت أتساءل لماذا لا تدعني آكل معهم على تلك

الطاولة المنخفضة التي يسمّونها «السفرة» والتي تحتوي على أكثر من نوع من الجبنة والطحينة والزيتون وإبريق الشاي؟!

كنت أرى عيشه أشبه بقطّةٍ تحيط بناتها كما لو أنها تدرأ عنهنّ خطرًا يتربص بهنّ، أو تذود عنهنّ يد لصٍ تترقب اقتناص ما يملكون. وفي كل مرة تضمهنّ إلى صدرها، كان قلبي يتمزق شوقًا ليدٍ حنونٍ تمتد نحوي، تمسح على رأسي، وتعيدني إلى حضن طفولةٍ افتقدتها. كان قلبي يتوق شوقًا للجلوس معهم على تلك «السفرة» وأنا أسمع ضحكاتهم وأحاديثهم، ولم أكن أفهم سبب حرماني من تلك الأمنية التي تختلج في قلبي وأنا طفل لم أتجاوزالعاشرة من عمري؟

مع كل ذلك كانت عيشه تطالب عمي سالم بأن يأخذني معه لأساعده: «حتى لا نبقى نصرف عليه من دون مقابل». تكرار مطالبتها على مسامعه جعله يأخذني لأعمل معه على ترصيص عُلب المواد الغذائية داخل سيارته في كل يوم إجازة مدرسية.

كانت لدى عمي سيارة بيضاء تُشبه الباص، في منتصفها بابٌ يفتح كما تُسحب الستارة، وبداخلها يرصّ كراتين البسكويت والمشروبات الغازية والمعلبات الغذائية بكلِ أنواعها.

صار يصطحبني، ويجعلني أراقبهُ وهو يقوم بتعبئة تلك السيارة، ويبذل في ترصيصها جهدًا كبيرًا. ثم ينطلق إلى محافظات وقرى تبعد عن مدينة جدة شمالًا نحو مائة إلى مائتي كيلومتر مثل عسفان، خليص، رابغ، ذهبان، مستورة، وغيرها من البلدات كي يبيع بضاعته إلى البقالات الصغيرة في أماكن لا تصل إليها الشركات الكبرى للتوزيع.

2

كنت في السابعة من عمري عندما أدخلني عمي سالم إلى المدرسة، وأذكر ردّ فعلي على تلك الحقيبة السوداء الصغيرة التي ابتاعها لي. قلت له: لا أريد هذا اللون! إلا أنه لم يكترث لرغبتي! كنت أرغب بحقيبة صفراء كدليلٍ على انتمائي لنادي «الاتحاد» الذي أشجعه وأحبه. لكنّ تعصّب عميّ سالم، الذي يشجع النادي الأهلي، قاده لحرماني من هذه الرغبة.

في صباح اليوم الأول من العام الدراسي ازداد ألمي وأنا أرى معظم أقراني في الحي يحملون على ظهورهم حقائب صفراء. شعرت أنّ عمي يكرهني لأنه حرمني فرحةً كنت أحلم بها في ذلك اليوم.

كانت المدرسة تبعد عن البيت ما يقارب خمسمائة متر وتتوسط الأحياء المحيطة بها كقلعة قديمة. جرّني عمي من يدي حتى بلغنا فم الشارع، ثم أمرني بأن أسير بالقرب من طلابٍ كانوا متوجهين إلى المدرسة نفسها. كانت وجوههم مألوفة لديّ بحكم أنّنا أبناء حارة واحدة، لكن بدا لي حينها أنني كنت وحيدًا بينهم.

ترك عمّي يدي وقال لي:

- امشِ معاهم. وعندما ينتهي الدوام انتظرني لأعيدك إلى البيت.

لحظةَ أفلت فيها كفّي في ذلك الصباح شعرت بالخوف، وازداد شعوري بالوحدة وأنا أحشرُ نفسي بين أبناء حارتي باحثًا عن الأمان. لم يكن بينهم طالبٌ في سنّي إلا ومعه شخصٌ من ذويه، إما أبوه أو أخوه. أردت أن أخبرهم جميعًا بأنّ هذا عمي وأنني لستُ وحيدًا.

حينما دلفتُ إلى المدرسة هالني منظر الطلاب وهم يتدافعون. تسمّرتُ في مكاني أقلّبُ عينيّ المفزوعتين من هذا الحشد. حاولت أن أتماسك،

وأبحث في الوجوه عن الملامح المألوفة، لكن حتى أبناء حارتي غاصوا في تلك الجموع وتاه أثرهم، فانهمرت دموعي وعلا صوت بكائي إلى أن جاء أحد التلامذة الكبار وأخذ بيدي المرتعشة وأدخلني إلى غرفة عرفت لاحقا أنّها غرفة المرشد الطلابي الذي أجلسني على كرسي وسألني سؤالًا نكأ جرحًا غائرًا خلتُ أنّهُ اندثر.

- أين أبوك؟

حين يكون اسم أبيك غائبًا عن الوجود، وقد جفّ ذكره فوق لسانك، تُصبح الإجابة عن مثل هذا السؤال مخنوقة، مبتلة بالدموع. تشعر أن هذا السؤال يجتر الأحزان ويستحضر كل الحرمان.

أدركتُ حينها حقيقة أنني يتيم، لأنّ ذلك الأب كان من المفترض أن يكون معي في هذا اليوم، أن أمشي بمحاذاته واضعًا كفي الصغيرة في كفه متباهيًا به عند أقراني، أجلس بجانبه على تلك الكراسي التي وُضعت في الباحة الداخلية للمدرسة، حيث كل طالب جديد يلتصق بأبيه. لكنّني فقدت ذلك كله وبقيت محشورًا في ذلك المكتب كقط صغير.

ازداد شهيقي وأنا أقول:

- أبويا مات...

وجاء سؤاله الثاني ليحفر فيّ مزيدًا من الأسى:

- ألم يأتِ معك أحد؟!

- لا...!

أخرجَ من درج مكتبه لُعبة، سيارة صغيرة، ووضعها في كيس ثم دسّ في جيبي قطعة حلويات ومسح على رأسي وقادني إلى الأستاذ علي الذي أمسك بيدي بعد أن همس المرشد الطلابي في أذنهِ كلماتٍ لم أسمعها.

لم ينته ذلك الصباح بعد، فما زالت ذاكرتي حُبلى بمواجعه التي لفتني كغمامة سوداء في صباحٍ موشوم بالألم. أجلسني الأستاذ علي فوق كرسي بين صفٍ من الكراسي المدرسية المتلاصقة في باحة داخلية

مغلقة في المدرسة امتلأت بالطلاب الجدد أمثالي مع أولياء أمورهم، كنت لا زلت أواصل حينها مسح دموعي وأنا أُقلّب بصري في الأطفال الذين يندسّون في أحضانِ آبائهم كمحاولة منهم لطرد تلك الرهبة التي تستحوذ على قلوب الأطفال جراء هذه النقلة النوعية في حياتهم.

انقضى يوم المدرسة الأول، وانتظرت وحيدًا أتأمل، بعين حزينة وقلبٍ منكسر، الآباء الذين كانوا بانتظار أبنائهم لاصطحابهم إلى بيت عائليّ دافئ كنت أتوق إلى مثله. كل ما أتذكره أنّهم خرجوا جميعًا من المدرسة وبقيتُ وحدي أنتظر مجيء عمي. كنت كفرخٍ صغير سقط من عُشهِ، فلا هو يستطيع التحليق ليعود إلى مكانهِ، ولا يدٌ حانية ترفعه بحنوّ وتعيده إلى مكانه.

كان منظري يستدر الرحمة، ويبعث على الشفقة. أنا الطالب الأسمر الصغير الذي يحمل على ظهره حقيبة سوداء ويجلس وحيدًا منزويًا فوق كرسي!

بقيت على هذا الحال قرابة ساعة إلى أن جاءني الأستاذ علي وبيده ساندوتش وسألني:

- هل أكلت شيئًا؟

هززت رأسي وقلت:

- لا.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

وضع تلك الساندوتش في حقيبتي، وطلب مني أن أسير معه. سرتُ معه من دون أن أدري إلى أين، حتى خرجنا من المدرسة. أدخلني إلى سيارته وقال لي:

- تعرف مكان بيتكم؟

- نعم.

فراح يقول لي كلامًا يرفع من عزيمتي حتى وصلنا إلى فم الزقاق الذي فيه بيت عمّي. نزلت من السيارة وأطلقتُ ساقيَّ جريًا عبر ذلك الزقاق

وأنا أنظر بين فينة وأخرى خلفي فأجد أن الأستاذ عليّ لا يزال في مكانه ونظراته تشيعني حتى ابتلعني الزقاق وغبت في دهاليزه. كانت حقيبتي تعيق حركتي وتخلّ بتوازني، فتارة أميلُ إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، أنفاسي تتلاحق ووجيب قلبي لا يهدأ إلى أن تسمّرتُ أمام الباب أطرقه بعنف وأنا ألتفت يمنة ويسرة من شدة الخوف.

فتح لي الباب عمي سالم، وهو لا يكاد يستطيع فتح عينيه من أثر النوم، مرتديًا «فوطة» خضراء مشجرة وفانيلة مقصوصة الأكمام أو كما نسميها نحن (علاقي). حين رآني واقفًا أمامه سألني:

- كيف جئت وحدك؟

قلت والفزع يتطاير من عينيّ:

- الأستاذ جابني.

- أستاذ مين؟

- الأستاذ علي.

كنت أرجو في تلك اللحظة أن أعبر عتبة باب البيت بهدوء، أن أختتم صباحي بشيء من الطمأنينة. كل ما أردته أن أتناول الساندوتش الذي منحني إياه الأستاذ علي في زاوية آمنة لا يعكرها شيء. لكن بدل أن أسمع كلمة تقدير للمعلم الذي تكفل بإيصالي، انهمرت عليَّ كلمات التوبيخ، متهمةً إياي بعدم التصرف كما يجب. وببرودٍ قاسٍ أخبرني أن وقت راحته أثمن من إيصالي مرة أخرى، مطالبًا ألا أعودَ إلا برفقة أبناء الحارة. شعرت حينها بالخذلان، فانحنيت برأسي في ذل وخوف، مكتومًا تحت عبء لومٍ لم أستحقه وقلت:

- حاضر.

هكذا مرَّ اليوم الأول بمشاعر متضاربة بين لوم عمّي على إهماله لي وخوفي في الطريق، وبين ذلك الشعور الذي لا أعرف له اسمًا، الذي منحه لي الأستاذ علي.

3

كان الأستاذ علي في عقده السادس، جعلني أشعر معه بأمانٍ لم أعرفه من قبل. هذا الرجل الطيّب صار يهتمّ بي، يقرّبني منهُ دائمًا ويسأل عن حاجتي وما ينقصني. كان معلمي والرجل الذي ربَّت على وجعي. أدخلني في فصلهِ واختار لي مقعدًا قريبًا من مكتبه داخل الفصل. شعرتُ معه بحنان الأب الذي حُرمت منه، بل توحّدت صورته في خيالي مع صورة الأب الغائمة.

عندما أذهب إلى المدرسة أحمل محفظتي السوداء الفارغة من الأطايب التي تفيض بها حقائب أقراني، فأشعر وكأن المدرسة ليست سوى مرآة تعكس ضعفي وبؤسي. لكن الأستاذ علي الذي قام بتخفيف حدّة ذلك الشعور، حين أخذ دور الأب الحاني الذي افتقدته منذ زمن، جعلني أحبّ المدرسة.

كان يعوّض حرماني، ويرعاني بعينه التي تراقب تصرفاتي، ويحنو عليّ بقلبه العامر بالحب، ويمسح بيده الدافئة على رأسي في كل مرة يراني فيها أشكو من أي عارض ينثر رماد الحزن على قلبي.

كان عمي سالم يعطيني ريالًا واحدًا بعد أن تحشر عيشه في حقيبتي سندوتشًا صغيرًا عبارة عن خبزة مع مسحة جبنة بيضاء، وكنت أشتري بذلك الريال قنينة ماء. ولكنّني حينما أرى الطلاب في الفسحة وبأيديهم عصائر مما لذّ وطاب تُباع في المقصف أندب حظي وأغبطهم على ذلك.

أحيانًا ينسى سالم أن يعطيني ذلك الريال، فأظلُّ ألوك تلك الخبزة حتى ينشف حلقي وأنا أنظر إلى الثلاجات الصغيرة التي يحملها معظم الأولاد. وكان على قلبي الصغير أن يعتاد على مثل هذه الوخزات الموجعة!

كيف لطفلٍ مثلي أن يطيق هذه المدرسة لولا أن الأستاذ علي تدارك

الأمر وطفق يمنحني كل يوم ثلاثة ريالات أشتري بها ما يخطر لي. لكن كان يزعجني أنه يوصيني ألّا أخبر أحدًا، بينما أنا أتمنى أن يعلم الجميع بأنني المدلل الوحيد عنده من بين أقراني. لم أكن أُدرك أسباب طلب هذا الصمت حتى أصبحت في الصف الرابع الابتدائي.

تآلفت مع المدرسة بعد أن وفرّ لي الأستاذ علي كل ما أحتاجه.

عندما انتقلت إلى الصف الثالث الابتدائي، وقد صرتُ أقرأ جيدًا بإشرافه وحرصه، بدأ يصطحبني إلى مكتبة المدرسة وينتقي لي كتبًا ويطلب مني أن أقرأ في أوقات الفسحة في المكتبة. لم أستسغ هذا الطلب في البداية، فهو يمنعني من اللعب مع الأولاد، لكنه راح يحبّبني بالقراءة بأن يشرح لي أنها الطريقة الوحيدة لأخرج من الفقر، وأنني لو تابعت سأصبح أستاذًا مثله أو موظفًا كبيرًا، بل بلغ به الأمر أن راح يحفزني بالمال، فاقترح جائزة قيمتها خمسة ريالات على كل كتاب أنتهي من قراءته في مدّة يحددها لي بحسب الكتاب. رحت ألتهم الكتب وأقرأها طمعًا في الحصول على أكثر قدر ممكن من المال، حتى صارت المكتبة جنّة أشعر فيها بالسعادة.

الأستاذ علي، نعم الأستاذ علي، جعلني متفوقًا في مراحلي الدراسية الأولى، محبًا للمدرسة التي صارت بالنسبة لي مكانًا أجد فيه راحتي، حتى جاءت تلك السنة؛ سنةٌ نفثت الحزن على صدري، وكأنها تخبرني بأنّ السعادة لا تدوم للفقراء، السنةُ التي انتقلتُ فيها إلى الصف الخامس.

في تلك السنة فقدت الأستاذ علي ولم أعد أراه، كنت أبحث عنه وأنا أقف متسمرًا في طابور الصباح أغرز بصري في وجوه المعلمين على أمل أن أعثر عليه.

كانت مجرّد رؤيته مع المعلمين في طابور الصباح تشعرني بأمان يتدفق في داخلي كنهر عذب. إحساسٌ يقلب أحزاني التي تبثّها عَيشه في نفسي ويمسح تلك الوحدة التي تتلبسني في البيت.

طيلة أسبوع كان القلق ينهشني. أقف حائرًا في طابور الصباح أجول ببصري هنا وهناك، كأنني طفلٌ فقد أباه في زحام شديد، يُخبئُ في قلبه فرحة يتيمه تنتظر أن تخرج إلى النور.

كنتُ أمنّي نفسي برؤية وجه الأستاذ علي، وجههُ المستدير المحاط بلحية بيضاء يشذبها بعناية، وعينيه الصغيرتين المدفونتين في محجريهما الغائرتين بنظراتهما المليئة بالحب. قامته القصيرة ببطن ممتلئ قليلًا، وبشرته الحنطية، وغترته البيضاء المنشّاة. كل التفاصيل المتعلقة بهالةِ حضوره أحفظها عن ظهرِ قلب، حتى رائحة عطره كانت تدلني على أثره حينما أبحث عنه.

مع بداية الأسبوع الثاني من العام الدراسي الجديد وكان يوم سبت، تجرأتُ على نفسي وتوجهت بخطى وئيدة إلى مكتبِ المرشد الطلابي وتسمرت أمام بابه الزجاجي أحدّق في وجهه الغائص بين أوراق متناثرة على سطح مكتبه الخشبي المطلي بلون بني داكن، فلمّا رآني أشار بيده أن أدخل.

دلفتُ إلى مكتبه وقد بدا الخوف والوجوم على وجهي. طلب مني المرشد الجلوس على كرسي مقابل المكتب وقال:

- هل تريد شيئًا يا يوسف؟!

قلت بحياء:

- جئتُ أسأل عن الأستاذ علي؟

أطرق قليلًا وكأنه علِمَ ما يدور في خلدي وقال:

- الأستاذ علي تقاعد.

لم أفهم معنى الكلمة فسألته:

- إلى أين ذهب؟

ابتسم بعطف وشرح لي:

- يعني ما راح يجي المدرسة نهائيًا. ترك الوظيفة وراح يرتاح.

كانت هذه الإجابة تشبه صفعة لئيم على وجه مسكين. غارت كلماته في أعماقي كنصل اخترق قلبي. لم أكن مستعدًا أبدًا لهذا اليوم، ولهذه اللحظة تحديدًا، لحظة اجتمعت فيها مشاعر الفقد والحزن وانقضّت على روحي المضطربة. كيف لطفل فقير مثلي يعيش مرارة اليتم مرتين في حياته، أن يتصالح مع هكذا فراق؟!

انهمرت دموعي، وضاقت عليَّ المدرسة. وددتُ في تلك اللحظة أن أشتُمَ الأستاذ علي الذي تخلى عنّي بهذا الشكل المؤلم. لم يخطر في ذهني أن يرحل هكذا فجأة دون أن يخبرني.

مرشد الطلاب، الذي رأى دموعي مدّ يده يمسح على رأسي. أردت أن أُبعد يده عن رأسي، فلم أكن أدري حينها لماذا يمررون أياديهم الباردة على رأسي في كل لحظة حزن تتملكني؟ لم يكن رأسي بحاجة لأياديهم، بقدر ما كنت بحاجة إلى ما يملأ هذا الفراغ الذي ظهر في جوفي.

عدتُ يومها إلى البيت والكآبة تلفني. جلستُ منطويًا على نفسي في زاوية ودموعي تنزلُ بصمت. لاحظ عمي سالم دموعي، فسألني:

- ما بك يا يوسف، من أول ما جيت وإنت حزين؟

مسحتُ دموعي وأجبته ببرود:

- لا شيء.

احتد كلامه وارتفع صوته قليلًا:

- يا ولد، أخبرني، ما بك؟

خفت، فأجبت من دون تفكير:

- الأستاذ علي راح.

- من هو الأستاذ علي هذا؟ سألني بتعجب.

- أستاذي في المدرسة.

فقال بلا مبالاة:

- طيب وإذا راح الأستاذ علي ليش زعلان إنت؟

telegram @
yasmeenbook

لم أشأ أن أخبره بما كان يعني لي هذا الأستاذ وما صنعه معي ومن أجلي. خفت أن يعرّضني ذلك لعقاب شديد من يده الثخينة التي لا ترحم، فاخترت السكوت هربًا من هذا المأزق.

فأردف يقول:

- كن رجلًا ولا تزعل، لا يهمّ من هو الأستاذ. المهم أن تهتم بدراستك.

شعرت بمرارة الصمت وكأنها صفعة خفية. ذلك العم، الذي لم يكلف نفسه يومًا مرافقتي إلى المدرسة، ولم يفكر حتى أن يسأل عني في أي يوم مضى، يقف الآن متقمصًا دور المربي، ينثر عليّ نصائح باهتة كملامح وجهه الجامدة التي تخلو من أي دفء أو اهتمام حقيقي.

تأثرتُ برحيل الأستاذ علي وبدأ مستواي التعليمي ينخفض وكرهت أيام المدرسة. حاولت أن أفكّر بالمستقبل الذي وعدني به الأستاذ علي لو بقيت على تفوّقي، لكن المستقبل ليس مجرّد فكرة نتمسّك بها فنصل إلى ما نصبو إليه.. فقد صرتُ طالبًا شقيًا، كثير المشاكل، متدني المستوى. لم أفقد فقط الشخص الذي حبّبني بالتعلّم وبالقراءة وغدرَ بي، أو هكذا تعاملتُ مع فراقه، بل فقدتُ أيضًا مصدر دخلي الذي كنت أحصّله مما أحصل عليه من الأستاذ علي من قراءة الكتب التي يطلب مني قراءتها فألتهمها بمتعة وبرغبة الحصول على المال معًا. كانت تلك النكسة شرارة البداية لكراهيتي للمدرسة، التي لم تكن سوى مسرح يعيد تمثيل شعوري بالهامشية، العزلة والفقر.صرت أشعرُ برغبة في التمرّد على كل ما أراد الأستاذ علي أن أكونه. كنت في المرحلة المتوسطة وفي أوج مراهقتي وعنفوان هيجاني النفسي والفكري، فرحتُ أنفّس غضبي في كرة القدم التي كنت أعشقها بجنون، كما هو حال أبناء حارتي، حتى أصبحت في تلك الفترة اسمًا لامعًا في المدرسة كلاعب كرة قدم.

تشعر وأنت تمرّ بحي غليل بحالة ذهول من أولئك الشباب الذي

يلعبون كرة القدم في أي وقت، وفي كل مكان، فكُرَة القدم هي الشيء الوحيد الذي يستمتعون به في هذه الحياة.

قبل أذان العصر من كل يوم أرتدي ملابسي الرياضية المهلهلة وأنتعل جزمتي السوداء المرقَّعة وأتجه إلى ملعب الحارة الذي يقبع في أطراف حي غليل بمحاذاة كوبري الميناء. أهرب إلى الملعب حيث أبناء حارتي الذين يهربون من ضيق العيش وهموم الحياة وشبح الفقر الذي يسكن في بيوتنا. ما من متنفّس سوى كرة القدم.

دائمًا نأتي مبكرًا قبل أن تبرد شمس العصر، فقد اعتدنا على حرِ الظهيرة ولهيب الأسفلت الذي يلسع بطون أقدامنا، وريشة الشمس الحارقة تلوّن وجوهنا بسوادٍ ينعكس سوادًا في قلوبنا المتمردة.

نظل نلعب كرة القدم وسط حماسة منقطعة النظير حتى يخيم الظلام على الملعب. لكننا نحمل الكرة ونجري كأننا للتو بدأنا باللعب فتنتقل في الملاعب الصغيرة المنتشرة تحت كوبري الميناء لأنها مضاءة بسبب أعمدة الإنارة وواجهات المحلات وأضواء السيارات العابرة، فنستمر في الركض واللعب حتى صلاة العشاء حيث نكون مضطرين للذهاب إلى بيوتنا منهكين ولكن سعداء ينتابنا شعور بأننا ننتمي إلى أسرة واحدة.

4

كنت قد اعتدت على أيامي التي تتكرّر بين المدرسة ومساعدة عمي ولعب كرة القدم. لم يكن في حياتي شيءٌ يُثير الاهتمام، مثل أيّ فقير لا يعني له الوقت شيئًا طالما أن لا أمل يضيء سعيه فيه.

بعد أن فشلت لعامين متتاليين في اجتياز السنة الأولى من المرحلة الثانوية، وجدت نفسي مطرودًا من المدرسة. قضيت العامين التاليين عاطلًا بلا هدف. لم يكترث سالم بذلك، بل فرح لأنه بات عندي وقت أكثر لأخدمه في قضاء حاجيات البيت ومساعدته في ترصيص المواد الغذائية. ما عدا ذلك لا يهم، فهو لا يسأل إن غبت عن البيت أو نمت في الخارج أو أكلت أو جعت... إلى أن جاء ذلك اليوم الذي شكّل منعطفًا جديدًا في حياتي. فقد طلب مني عمي أن أخرج من البيت. صدمني قراره، لكن لم يفاجئني. كل تصرفات عيشه كانت تخبرني بأنه سيأتي يوم يطردني فيه سالم من البيت. لم تعد عيشه تطيق النظر في وجهي، ودائمًا تشكو إلى سالم كل زلّةٍ صغيرة تصدر مني بلا عمد، وتشتمني وتلعنني وكأنني سرطان يعشش في بيتها.

عيشه، تلك المرأة التي تميل إلى السمرة، بقيت تحتفظ بجسمها الممشوق رغم تقدمها في السن، إلاّ أنّ وجهها تلاشت في قسماته نُضرة الشباب، وأصبح شاحبًا من أثرِ الأيام التي تعبر بحوافرها وجوه الفقراء بلا رحمة. لها وجه دقيق وعينان ثعلبيتان يلمع في أعماقهما المكر والدهاء، شعرها بنيٌّ مجعَّد تعقصه في كتلةٍ حتى يصعب عليها فرده، أو تربطه من الخلف حتى يبدو مثل نبات الربل. ذاكرتي حبلى بتفاصيل مواقفها وتصرفاتها تجاهي. منذ أن بلغتُ الرابعة عشرة زاد نفورها اتجاهي حين قال لها عمي:

- يوسف أصبح رجلًا ولازم تتغطي أثناء دخولك وخروجك.

فقالت بصوت حاد:

- حتى في بيتي هذا اللي يشبه الصندقة ما آخذ راحتي، بسبب المعفّن هذا، متى سيخرج من بيتي؟

منذ أن صار عليها أن تتغطى أمامي صارت تبعدني عن بناتها وتحميهن مثل لبوة، تغدق عليهن الحنان بقدر ما تُشعرني بأنني عبء ومنبوذ.

كان المبلغ البخس الذي أستلمه من عمّي نهاية الشهر يغيظها جدًا. تعتبر أنّ بناتها أولى بذلك منّي، وأنّني لست سوى عالة على البيت ومن فيه.

لم تكلّ يومًا عن سعيها لاختلاس تلك الثلاثمائة ريال التي يدسّها سالم في يدي، فظلت تزنّ على رأسه مثل ذبابة، وتصبّ في أذنيه الكلام مثل الرصاص الحار، حتى خارت قواه ولم يعد يحتمل هذه الجلجلة التي تصدعت منها جدران بيته.

وذات يوم كنت قد عدت في وقتٍ متأخر من الليل، كعادتي، بعد الانتهاء من لعب كرة القدم، والمشاركة في بطولات الحواري التي لا تهدأ في أحياء غليل والنزلة والقريات، وبعد أن تغطي العتمة الملاعب، كنّا نذهب للجلوس فوق «دكاك» الأزقة المطلة على الشارع العام مع «الشِلّة» فنتبادل حكاياتٍ يختلقها كل واحدٍ منّا عن مغامراته. وكانت الحصة الكبرى عن سعاد، تلك الفتاة التي تركت في قلوبنا أحلامًا مشوَّهة عن حُب مستحيل، ومع ذلك لا نملُّ من سماع أكاذيبنا التي نفتري بها على سعاد، وكأنها كعكة حلوة يتقاسمها الجميع.

في ذلك اليوم فتحت لي عيشه الباب بوجهٍ يحمل نظرة غريبة، نظرة لم تألفها عيناي من قبل. خطوت إلى الداخل لأجد عمي سالم في الصالة، ممددًا ساقيه النحيفتين، يلف حول خصره فوطته المعتادة، وفوقها فنيلة داخلية بيضاء تكسو جسده النحيل. كان متكئًا على مساند تآكلت أطرافها،

وأمامه صينية دائرية من الألمنيوم، احتضنت إبريق شاي وفنجانين، كأن المشهد لوحة بائسة تقصّ حكايات الزمن الذي مرّ بثقل على كل زاوية فيها..

أشار عمّي إليّ بيده أن أجلس بجانبه في لحظةٍ من الحميمية لم أحظَ بمثلها يومًا. وجود فنجانين جعلني أشعر بتوجّس من هذا التصرّف غير المعتاد من عيشه. وبلهجةٍ دافئة، سألني عن حالي وعن تصوّري لمستقبلي وسط ذهولي حيال هذا التحول المفاجئ. لم أعرف ماذا أقول! إلى أن قال لي:

- أنت الآن صرت رجلًا، وصار عليك أن تعتمد على نفسك، والبيت كما ترى صغير علينا، وبناتي كبرنَ، فأتمنى عليك أن تقدّر وضعي وتعذرني!!

بقيت صامتًا أنظر في عينيه، فأكمل: عليك أن تترك البيت، لكنني تدبّرت لك سكنًا عند ابن خالتك ياسين، وأنا لن أقصّر معك بشي، واعتبرني موجودًا إلى جانبك في كل وقت.

أدركت أن عيشه كسبت معركة إخراجي من بيته. استمرّيت على صمتي، فأردف:

- لا تخف، مكان سكنك ليس ببعيد، ليس بيني وبينك إلا شارع فقط، وابن خالتك ما هو غريب.

لم أكن لأتحدث معه كثيرًا، ولم تكن هناك أُلفة بيني وبينه، ولذلك انعقد لساني، وانحشر الكلام في حلقي بالرغم من الكم الهائل من العتاب والتساؤلات والمخاوف التي تمور في نفسي. لكن أمرًا واحدًا دفعني للكلام، وهو ما كان يؤرقني، فقلت:

- والعمل...؟ هل أستمر معك فيه؟

- العمل بسيط وأقدر أن أقوم به بنفسي، أنت شاب وعليك أن تبحث عن عمل يكون لك فيه مستقبل.

علمتُ أن النقاش معه لن يُجدي نفعًا، بل سيزيد من شعوري بالذُلِ والإهانة، فلزمتُ الصمت بمرارة، ذلك الصمت المؤلم الذي يقبعُ خلفه بركانٌ من الوجع، الصمت اللعين الذي نلوذ به حينما يعترينا الضعف والجُبن. مؤلم جدًا ذلك الصمت الذي يعتصرُ حناجرنا ويحول دون صراخنا بالوجع. لا شيء أمرُّ من الصمت عندما تخيب الظنون.

لم أنم في تلك الليلة، كنت أُفكر في رياح الغد التي ستحملني إلى مصير مجهول! هذا الغد، الذي تحوّل فجأةً إلَى كابوسٍ مخيف لا سبيل إلى تجنّب قدومه.

كيف لشاب مثلي لا يملك قطميرًا من الأحلام أن يُفكر بشيءٍ اسمه المستقبل؟!

5

ظلت عيناي معلقتين بالسقف أفكر في مصيبتي، أثقلني الصمت وقيّدني القلق. لم أجرؤ على النهوض حتى اخترق أذني صوت حركةٍ في أرجاء البيت. وعندما ناداني عمي، تسلل إلى صدري بصيص أمل خجول، أملٌ أشبه بوهْم، بأن قلبه قد يلين وتتبدل نيته. لكن الأمل سرعان ما انطفأ حين وقع بصري على حقيبة رياضية مكتظة بملابسي، مرمية بلا اكتراث في زاوية الصالة الكئيبة. تلك الصالة التي شهدت ملامح طفولتي، وحبست بين جدرانها أحلامي الصغيرة، ها هي الآن تُقصيني، وكأنها تتبرأ مني.

جاءتني عيشه وقسمات الفرح تطل من عينيها وهي تدعوني لأن أنضمّ إليهم حول سفرة صغيرة قد تحلّق حولها بناتها وعمي سالم الذي كان مطأطئ الرأس يحاول جاهدًا أن لا تلتقي عينه بعيني.

تصرّفَت بسخاء، إذ أجلستني مع بناتها حول تلك الطاولة الصغيرة التي لطالما حلمت بالجلوس حولها طيلة سنوات طفولتي، وها هي الآن تكلّمني بلهجةٍ لم أعهدها منها. شعرت كأنها طاغية حكمت على سجين بالجوع ثم جاءت قبل تنفيذ حكم الإعدام بلحظات تعرض عليه الوجبة التي لطالما حلُم بها.

ماذا كانت تطلب مني عيشه مقابل هذه الحفاوة، هل تطلب الغفران والصفح أم تريد الإمعان في إذلالي وهي تعرف أنني ذاهبٌ إلى مكان قد لا أجد فيه حتى طعامها البائس؟!

انهمرت الدموع من عينيّ بصمتٍ وأنا أحدّق في تلك «السفرة» التي لطالما كنت أراها شاهدة على أوقات ممتعة لم أكن يومًا جزءًا منها. شعرت بغصّة تنخر صدري، لكنّني لم أسمح لنفسي بالبقاء طويلًا.

نظرتُ سريعًا إلى حقيبتي البالية الملقاة في الزاوية، ولم أملك الجرأة على الجلوس أو إلقاء نظرة وداع أخيرة. مددت يدي المرتعشتين نحوها، ثم خطوت نحو الباب. فتحته ببطء كمن ينسلّ من ذاكرة المكان، وغادرتُ دون أن ألتفت.

كنت أعرف مكان سكن ياسين ابن خالتي مع أننا لم نكن صديقَين. لم أنتظر أن يرافقني عمّي، بل خرجت بخطى وئيدة أعبرُ تلك الأزقة القذرة لحي غليل معلقًا حقيبتي على كتفي، ساهمًا في الفراغ الذي يمتد أمامي ويتسع كفم وحشٍ يريد أن يفترسني.

كنت الوحيدَ الذي يجوب أزقة غليل وأنا أرفع في كل لحظة قدمي عن تلك المجاري المتسربة من كل مكان، كان كل شيء حولي في منتهى القذارة. حتى القطط انكمشت على نفسها تحت السيارات تغطّ في نوم عميق.

على مدخل زُقاق صغير لا يتجاوز عرضه ثلاثة أمتار، كان بعض العمال البنغاليين يتحلقون حول بسطات النساء الأفريقيات، أو كما كنّا نسمّيهنّ نحن بـ«الحجات» يبعن (اللحوح، والقورو) وأشياء أخرى لا يأكلها سوى هؤلاء العمّال المهمَّشين، وعلى جانبي المدخل أبواب حديدية كثيرة أصابها الاهتراء وتضوع منها روائح نتنة. ظللت أمشي حتى وصلتُ إلى باب «عزبة» ابن خالتي ياسين. وقفت أمامه لدقائق، كأنني في لحظة حداد وفي بالي أسئلة كثيرة عمّا ستكون عليه أيامي هنا.

الفصل الثاني

رحلة الحياة قصيرة
لكنَّ الأحزان تُثقل خطانا وتجعلها طويلة

1

لم تكن «عُزبة» ياسين سوى غرفة واحدة مفروشة بحصير ممزَّق وفوقه سجادة متهالكة عاثت بها أعقاب السجائر وحوَّلتها إلى حُفر سوداء صغيرة ويابسة، وعلى أحد جوانبها مساند كأنّها جُمعت من بقايا عفشٍ مُلقى في الشارع، وإلى يسار المدخل خزانة ملابس مكشوفة ومهلهلة وبلا أرفف محشوّة بالملابس كيفما أتفق، وتلفزيون بشاشة كبيرة، تحته أفلام فيديو مكدّسة. وفي زاوية الغرفة حمّام صغير تخلّع بابه وتكسّرت بعض بلاطاته.

بمجرّد نظرة على المكان يتضح أنّه لا يتّسع إلّا لشخصٍ واحد، وأنني اقتحمت حياته وتطفلت بوقاحةٍ على خصوصيته وعُزلته. وباعتقادي لولا أنّ عمي سالم كفيله لرفض قدومي إليه، ولكنه رضخ مجبَرًا حين أمرهُ باستقبالي.

لقد شعرت بذلك منذ الوهلةِ الأولى التي نظر إليّ فيها ياسين نظرة حانقة تخفي وراءها لعنات كثيرة.

من دون كلمة ترحيب، قال:

- ضع ملابسك في تلك الزاوية.

أشار إلى الزاوية القريبة من الحمام، ثم ألقى بجسده بتثاقل فوق ذلك الفراش الصغير عند طرف الغرفة. لم ينبس ببنت شفة، بل عاد إلى الشاشة دون اكتراث، كأن وجودي لا يزن شيئًا في عالمه، وكأن التعبير عن رفضه لي بات رفاهية لا أستحقها.

غريب كيف أنني منذ الأمس أبتلع لساني، وأنا الذي عُرف بسلاطة لسانه بين كل العاطلين الذين يجلسون على دكاك الحارة إلى آخر الليل يتحدثون عمّا يجري في الحارة، ويتبادلون «الحَشّ» فيما بينهم. لقد

وُهبتُ لسانًا سليطًا يخشاه الجميع، وهي أبرز ميزة حظيت بها، إضافةً إلى قبح ملامحي الذي صار سمة عُرفت بها، ذلك القبح الذي لم أكن لأطيق ثقله لولا أنني جعلته مثار سخرية تمامًا كما يفعل الآخرون. لكن سلاطة اللسان والسخرية ستختفيان في مسار الحياة التي كُتبت عليّ.

كان لكل شاب في الحارة كنيةٌ التصقت به، تُستمدّ من شيء يميّزه أو يعكس سيرته. ولأنني أعيش كالقطط، أبدد أيامي بين الأزقة والشوارع، بلا مأوى ينتظرني فيه أحبابٌ بقلقٍ أو دفء صارت كنيتي «الهرّ»، اسمًا استوحاه أهل الحي من حياتي الهائمة. وما لبث اللقب أن طغى على اسمي حتى باتت الحارة كلها لا تناديني إلا به، حتى كدتُ أنا نفسي لا ألتفت إذا نوديت بـ«يوسف».

كنت أعلم أنّ ياسين لا يرغب بوجودي في عزبته الوضيعة. فكنت أتجرّع تصرّفاته المتعالية وتهميشه لي ونظرات عينيه التي تشي بالنفور حينما نكون معًا في المنزل، فكنت أبقى في الخارج لأطول وقت ممكن. ولم يكن أمامي سوى الهروب إلى الشوارع، فهي دائمًا تفرد ذراعيها لأمثالي.

لم يكن لي غدٌ أفكر فيه، كأن الزمن قد توقف عند حدود معاناتي. لم يخطر ببالي يومًا أن شيئًا ما قد يقتحم رتابة حياتي، ويكسر الجمود الذي أحكم قبضته على أيامي. كأنني كنت أعيش في دائرة مغلقة، بلا انتظار، بلا أمل، بالرغم مما أنا فيه من خواء.

أما ياسين فلم يرغب يومًا في حياة العُزلة، ولكن القدر شاء له ذلك.

ذلك الشاب النحيل جدًا الذي عركته الحياة وهو لا يزال في ريعان شبابه، جاء إلى غليل وهو في التاسعة عشرة من عمره وحيدًا حزينًا يحمل فوق كاهله عبئًا ثقيلًا، ولا شيء أثقلُ على الإنسان من فقدِ والديه في آن واحد.

أذكر مشهد ياسين وهو ينتحب عند رحيل والديه، مشهدٌ أيقظ في

داخلي شعورًا غريبًا؛ شعرتُ أن وفاة والديَّ وأنا طفلٌ لم أعِ الحزن بعد ربما كانت رحمة خفية. فقد واجه ياسين هذه الفاجعة في سن الخامسة عشرة، في ذروة العمر الذي يتأرجح بين أحلام الطفولة واندفاع المراهقة. جاءه الحزن كصفعة قاسية، اقتلعته من عالم الأمان لتُلقى به في مواجهة الحياة، عاريًا من أي استعداد، مثقلًا بعبء المسؤولية. كان عليه أن يودّع طيشه فجأة ليواجه مصيرًا لم يكن في حسبانه.

كانت خالتي، والدة ياسين، تزوّجت من رجل يحمل الجنسية اليمنية وعاشت معه في رغدٍ وسلام كما سمعت عندما توفيت. فقد كان رجلًا طيبًا، كما كان يُقال عنه دائمًا، ويكسب دخلًا لا بأس به من عمله كـ«شريطي» في معارض السيارات.

نصف حياته قضاها في السعودية، في حي الرويس في بيتٍ مستأجر ملاصق لبيت أخيه، وعاش ياسين حياة هانئة في كنف ذلك البيت وهو يحلم بالجنسية السعودية حتى يتمكن من الوقوف على قدميه لمواجهة الحياة.

عندما جاءه عمّه بخبر وفاة والديه في حادث سير أثناء سفرهما إلى المدينة المنورة، بدا ياسين كما لو أن العالم قد انهار من حوله. سقط في فراغٍ عميق، كمدينة ابتلعها زلزال. تلاشت كل أحلامه في لحظة، وابتلعتْ نفسه موجة من الحزن الفظيع، وكأن كل شيء قد انتهى في تلك اللحظة، تاركًا إياه غارقًا في عتمة لا مفر منها..

احتضنه عمّه وقام برعايته حتى بلغ سن التاسعة عشرة ثم أبلغه ذات يوم:

- لقد بتُّ كبيرًا في السن عاجزًا كما ترى، وصار عليك أن تعتني بنفسك.

اشترى له سيارة صغيرة مستعملة وأعطاه مبلغًا صغيرًا ودعاه لأن يتدبّر أمره بنفسه. وبالفعل، لم يعمّر العم طويلًا.

انتقل ياسين إلى حي غُليل بعد أن كفله عمي سالم وفاءً لصداقته مع والده، وساعده في استئجار تلك «العُزبة» المختبئة في قعرِ أحياء غليل المعتمة، وكأنها جاءت بما يتناسب مع قَدَرِهِ في الحياة. فالأقدار المؤلمة والفقر إذا اجتمعا كانت النتيجة هذه الظروف البائسة.

راح يشقّ طريق الحياة بتلك السيارة يكسب من خلالها لقمة العيش، ويحلم بتغيير وضعه، وكان هذا ديدنه حتى سكنت معه.

تمرّ الأيام علينا ثقيلة إذ نادرًا ما يدور حديث بيننا. نتبادل كلمات قليلة حول بعض الأمور المشتركة. ولم أكن أتدخّل في حياته، إنما كان يلفتني أنني كلما عدت، ولو في وقتٍ متأخّر، أسمعه يتكلم من هاتفٍ ثابت حجمه صغير إلى أن دفعني فضولي للقول:

– ياسين أنت تخبّئ ذلك الهاتف بين أشياءك، فهل تظنّ أنني قد أسرقه؟

ردّه الغاضب جعلني أعتذر منه وأقول كلمات حاولت فيها تهدئة غضبه. وقد أوضحت له أنني ممتنّ له لاستقبالي في غرفته، وأنني أريد أن أطمئنه أنني لا يمكن أن أسرقه بل أريد أن تكون لنا حياة مشتركة يفضي فيها كل واحدٍ منّا للآخر بما يُتعبه.

بعد بضعة أيام على حديثي معه باح لي بسّر ذلك الهاتف:

– أنا على علاقة بفتاة، أحبها وتُحبني وآمل أن نتزوج يومًا ما، ونحن نتواصل عبر هذا التلفون.

قال كلماته بجدّية كما لو كان خائفًا من ردٍّ ساخرٍ منّي.

أردت أن أعبّر عن سعادتي من أجلهِ، فهو على الأقل يخطط لأمرٍ جميل قد يغير مجرى حياته.

فقلت له بجدية صارمة:

– كم يسعدني هذا الخبر. ثمّ أضفت وأنا أبتسم: على الأقلّ بيننا نحن الذين اجتاحتنا الحياة وأفقدتنا والدينا، شخص لديه آمال ببناء حياة.

لكن مع مرور الأيام وبوح ياسين بالمزيد عن «محبوبته». كان كلامه يذكّرني بسعاد، وقد أحزنني أن يحصل أمر كهذا لهذا الشاب الذي يصحو كل يوم مع أوّل أشعة الشمس ليخرج ويكدح في عمله. فسألته:

– أراك كل يوم تخرج باكرًا، قبل خروج الناس إلى أعمالهم، فهل عندك عمل مرتبط به في مثل هذا الوقت؟

ردّ عليّ بالقول:

– لا شيء في الكون أجمل من الصباح عندما يكون عملك حرًّا. أنا أقود سيارتي إلى حيث أشاء، وأتوقف لأوصل من أشاء، وهكذا تعرّفت إلى تلك الفتاة.

ابتسمت وقلت غامزًا:

– وهل أقمت علاقة معها؟

ردّ بلهجةٍ حازمة:

– معاذ الله، أنا لا أبحث عن هذا النوع من الفتيات. فقط نقلتها ذات يوم وتبسّمت لي، وعندما رفضتُ أن آخذ منها أجرة المشوار، أعطتني رقم هاتفها. وصرنا نتواصل ونتحدّث لنرى إن كان لنا نصيب في الزواج.

لم أرغب بتبديد أحلامه، لذا تردّدت في إخباره أنّ مثل هؤلاء الفتيات لسنَ النوع الذي يليق به وأنّه قد يكون فريسة لاستغلال من فتاةٍ لعوب. كانت سعاد، تلك الفتاة التي تحمل جميع صفاتهن، تلوح في ذهني. سعاد التي جعلتني أستبعد فكرة المرأة من عقلي منذ أن كنت في مرحلة المراهقة، فما حصل لي معها كان درسًا قاسيًا يصعب أن أنساه.

2

ألوذ بزاويتي وذكرى سعاد تجعلني أنكمش. **سعاد**، التي اخترقت كلمتها قلبي كرصاصة وبقيت آثارها في نفسي مثل ندبة لا تُمحى ولا تُنسى، كلمةٌ شيَّدت سورًا بيني وبين النساء.

كلمةٌ حينما صدمَ دويّها أُذني تهاوت كل أركاني وتفتّتت مشاعري إلى ذرات من الخيبة كانت مؤلمة جدًا إلى حدٍّ جعلني أكره نفسي، بل جعلني لا أطيق النظر إلى وجهي في المرآة.

كلمة أطلقتها تلك الفتاة اللعوب وأنا مراهقٌ أعتدّ بنفسي بين شباب الحيّ. فالتميّز لم يكن له علاقة بالجمال والقبح في ذهني، ولا أدرك أن للقبح تبعات يدفع ضريبتها الإنسان مدى الحياة.

سعاد، الفاتنة التي كان يجتمع تحت نافذتها شباب الحارة، وهي تترك شباك نافذتها مواربًا لتطلَّ منه بغنج وتنثر ابتسامات تسقط علينا كالليلكِ الذي ينير قلوبنا بأولى شذرات الحب، ممّا جعلها محط أحلام الجميع. وقد كنت من بين مَن يقفُون تحت نافذتها أحلم بابتسامة منها تشعل بها عنفوان رجولتي التي كانت في أول فورة بلوغها.

كانت غرفتها في الطابق الثاني لبيت يبدو أنيقًا قياسًا لبيوت حي غليل، تطل نافذتها على شارع ترابي فيه دكة يجتمع فيها كثير من شباب الحي الذين يرغبون في الظفر بسعاد أو على الأقل إثارة إعجابها. وكان كُل واحدٍ منّا يحاول أن يتميز عن الآخر، سواء بالملابس الجديدة، أو بقَصة شعر مثيرة، أو بإظهار القوّة الجسديّة عن طريق ألعاب بهلوانية يأمل أن تجعلها تبتسم. كنت أخاف من أنني لا أمتلك ما قد يُلفت انتباهها، ومع ذلك كان في داخلي شعور بأنني قد يحالفني الحظ وأحظى بها، لأنّ حبّي لها حقيقي ولو جاءتني الفرصة سأكشف لها حقيقة مشاعري.

لكن، في كل مرّة كان هذا الحلم يبتعد. إذ دائمًا تطلب سعاد خدمات، فتطلب من كل واحد منّا شيئًا نحضره لها من البقالة، أو من بائع الخضار، حتى إنها كانت تطلب من يحيى أن يرافقها كحارس، لكن على أن يبقى بعيدًا خلفها حتى لا تكون فضيحة في الحي، أو تطلب من عدنان توصيلة إلى السوق فلا تقبل أن يرافقها حتى، بل أن ينتظرها بسيارته التي يستعيرها من أخيه لأجلها، وهو يبذل الكثير ليحصل على تلك السيارة عندما تطلبها... وهكذا كانت تستغل أولئك العشاق الموهومين، وأنا منهم، مع أنها -كما قلت- لم تلتفت لي يومًا ولا طلبت مني خدمة، خاصةً وأنني كنت أصغر أولئك العشاق.

وعندما أطلّت علينا ذات يوم من نافذتها وألقت بقصاصة ورقةٍ بيضاء صغيرة مثنيةً بإحكام، وثب الجميع وأعينهم تُراقب تلك الورقة التي تتمايلُ في الهواء، وبدأ العراك بين الشباب أيّهم يلتقط الورقة. كان المنظرُ مدعاة للسخرية والشفقة في نفس الوقت، حيث بدا وكأننا فقراء في مخيم نتصارع من أجل قطعة خبز أُلقيت علينا.

راح كل واحدٍ يدفع الآخر كي يصل إلى تلك الورقة التي تتهادى ببطء كفراشة يصعب الإمساك بها، ولأنني كنتّ قصيرًا جدًا شَعرتُ بأنني في معركةٍ خاسرة.

انحصرت المعركة بين يحيى وكان أطولنا قامة وعدنان القوي البنية. مدّ يحيى يده الطويلة وأمسك القصاصة واحتضنها منبطحًا عليها كأنه عثر على قطعة ألماس ثمينة. توقف الجميع بانتظار إعلان ما جاء في تلك القصاصة. فشرع يحيى بفتحها وهو يحمحم كحصان أعياه الركض طويلًا، ولمّا قرأ ما بداخلها قذفها في وجه عدنان بكل غضب ورفع رأسه تجاه النافذة وبصق على سعاد وهو ينعتها بالفاجرة. استغرب الجميع هذا التصرف منه وأحسسنا بحجم الخيبة التي في داخله، فزاد ذلك من فضولنا لمعرفة ماذا كُتبَ بداخلها، حتى ضحك عدنان بنشوة الانتصار وهو يقرأ: «عدنان أحبك إنت وبس».

لا بدّ من الاعتراف أن عدنان كان نموذجًا غريبًا بين اليمنيين. لم يكن وسيمًا فقط بل كان جميلًا، ممشوق الجسدِ، له عينان عسليّتان ووجهٌ أبيض مُشرَّب بحمرة، على خلاف ما كنّا عليه نحن ذوي البشرة السمراء. لقد بدا عدنان وكأنه ندفة ثلج بيضاء فوق سوادنا، ولهذا كان من الطبيعي أن تفضّله سعاد علينا. ومنذ ذلك اليوم صرنا نكتفي برؤيتها تطل من نافذتها تنتظر عدنان الذي غالبًا ما يأتي ليلبي طلباتها.

لم يكن لحكاية عدنان في ذاكرتي مكان يتجاوز كثيرًا العديد من حكايات حي غليل التي تتناسل على الدكة كل يوم، وقد نسيناها تقريبًا بعد أن اكتشف عدنان كذبها، وبعد أن رحل إلى اليمن إبان الحرب، وبعد زواج سعاد وانتقالها إلى حي آخر لا نعرف عنه شيئًا. لكن تلك الحكاية عادت لتحتلّ مكانًا لا يمكن أن أنساه بعد تلك الكلمة التي نفثتها سعاد في قلبي كسُمّ انتشر في جسدي، وحفر بداخلي أخاديد من الوجع الذي لا يُنسى.

ففي ذات مساء، كنت أعبر من تحتِ نافذتها مرتديًا سروالًا رياضيًا أسود مشقوقًا من جهةِ الركبةُ اليمنى حتى بدت سُمرة ركبتي الموشومة ببعضِ الجروح الناتئه كحجرٍ أسود، وقميصًا أصفر بشعارِ نادي الاتحاد الذيَ كان معشوق معظم شبابِ الحارة، وعلى وقع صوت «الزنوبة» التي ألبسُها والتي تصدر طقطقة عند كل خطوةٍ أخطوها. وكعادتي حينما أمشي بجانبِ بيتها أرفع بصري تجاه نافذتها، عادة أمارسها بلا وعي، علّ الصدفة تمنحني لحظة تلتقي فيها عيناي بوجهها الفاتن فأنام متفكرًا في المعنى الذي أضفيه على نظرتها.

حينما صرتُ بمحاذاة الباب، سمعتُ صريره فتمهلتُ في سيري وأسترقُ النظر نحو تلك الفرجة التي انبلج منها نور وجهها الآسر وقد غطى نصفهُ شَعرها الأسود الكثيف.

تسمّرت في مكاني حين نادتني:

- يوسف.

أن أسمع اسمي على لسان سعاد، كان يكفي لأن تتملكني مشاعر الإضطراب. فقلت على الفور:

- خَدّامك.

قلتها وفي جسدي رعشة سرت في كل أطرافي.

- تعال.

كانت هذه الدعوة كفيلة بأن تشطر قلبي إلى نصفين.

اقتربت وأنا أرتجف من وقع الدهشة، وحينما غشاني عطرها، أحسستُ بأنّني دنوت من روضة تعبق بشذى الورود، شعرتُ بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان البائس إنما إلى شيء ما وراء الطبيعة، شيء لا يمكنني في تلك اللحظة أن أصفه.

قالت لي بابتسامة ماكرة وآسرة:

- تقدر تجيب من البقالة «عيش» بريالين.

التقطتُ الريالين وأطلقتُ ساقيَّ للريح في مهمةٍ أردتُ أن أنجزها بإتقان كي أنال رضاها. كنتُ مراهقًا لم أتجاوز السادسة عشرة من عمري، أحسستُ حينها بأنّ سعاد تخصّني وحدي، لأن الأحلام دائمًا تأتي على قدرِ أعمارنا.

انصبَّ تفكيري على ألّا أدع هذه الفرصة تضيعُ من يدي. سأعّبر لها عن عمق الشوق الذي يسكنني، وعن تأثير مجرّد ابتسامتها في نفسي، وعن حُبي لها... وعن أنّ أقصى طموحي أن أجعلها سعيدة... لا بد أن أتجرّأ على نفسي وأخبرها بذلك.

حينما اقتربت من المنزل ولم يتبق للوصولِ إلى الباب سوى بضع خطوات، انتابني شعور بالخوف وتسارع نبض قلبي وتشتت ذهني وضاعت كل العبارات. وعندما فتحت بابها شعَّ نور وجهها فتخدّر لساني. مددتُ لها الكيس، فسحبَته برفق وهي تُحدق في ملامحي الشاردة، وشكرتني ببرود. وحين رأت أنني بقيت واقفًا مكاني، نظرت

إليَّ نظرة تساؤل عن سبب وقوفي. قلت لها ببراءة المراهق الذي يهذي بما يُحسّ به:

- أحبك يا سعاد...!

تراجعَت للداخل وتركت فرجة صغيرة في الباب لتمرر من خلالها تلك الكلمة التي اجتاحتني كطوفان.

- شوف نفسك في المرايا يا «معفّن» قبل لا تقول لامرأة أحبّك!

دارت بي الأرض وشعرت بدوخةٍ فلا أذكر كيف وصلت إلى البيت. وقفت أمام المرآة أنظر إلى وجهي ذي السمرة الداكنة وذلك الأنف المنتفخ بمنخرين واسعين وعينيَّ الغائرتين في محجرَيهما. اكتشفتُ في لحظة مكاشفة مريرة مدى قبح ملامحي، ففزعت من الحقيقة المرة التي لم أكن أجرؤ على مواجهتها. كرهت ما أنا عليه، ذلك الوجه الذي علّمني أن الجمال هو تلك اللحظة الأولى التي تأسر العين، وأن الطيبة والأخلاق والمشاعر كلها قد تحمل قيمة، لكن تلك القيمة دائمًا تأتي لاحقًا بعد أن يمرّ الزمن ويتبدد وهج الجمال الأول.

«معفّن»، تلك الكلمة علمتني الهروب ليس من النساء فحسب، بل من نفسي أيضًا.

3

إلى متى سأظلّ على هذا الحال؟

كلما راودني هذا السؤال المُقلق شعرتُ بوخزةٍ حادة في صدري، وبضيق يشدّ على أضلاعي حتى تتكسر، لأنه السؤال الذي يأتي على شكلِ مطرقة تَدقّ رأسي حتى يتهشم من كثرة التفكير في الإجابة عليه ولكنّني للأسف الشديد لا أجد سبيلًا لذلك.

إذا كنتَ معدمًا فإن دائرة الحياة تضيق بك حتى لا تكاد ترى سوى قدميك، وتظلُّ على تلك الحال حتى تتعود على إحناء رأسك للأسفلِ دائمًا، فكيف لمثلي أن يرفع رأسه قليلًا ويتأمل الحياة من أوسع أبوابها وهو يصعب عليه أن يدفع ريالًا واحدًا لعامل الكافتيريا حتى يشتري ساندوتشًا قبل أن يفكر كثيرًا في كيف سيحصل على الريال.

حياتي لا يحدث فيها شيء! فارغة تمامًا. كنت أتمنى أن أكون لا أحد، لكن كيف لمن يمضي يومه وهو يذرع أزقّة حي غليل أن يعزل نفسه عمّا يحدث في الحي؟ كانت ممارسة كرة القدم حلًا متاحًا لتمضية الوقت وعدم التفكير في كل القلق الذي أعيشه، وكان حي غليل لا يكاد يلتقط أنفاسه كي يهدأ قليلًا من صخب المباريات التي لا تنتهي وتدور ليل نهار.

صرتُ لاعبًا مشهورًا وذاع صيتي ولقبي، «الهر»، بين الأحياء القريبة، انخرطت في أكثر من فريق، وعلى الرغم من هيئتي الهزيلة وقصر قامتي إلّا أنني كنت قائدًا لفريق حارتي الذي أطلقنا عليه اسم «نجوم غليل»، ومع ذلك كنت ألعب في فريق «القريات» وأيضًا في فريق «النزلة اليمانية» وكلها أحياءٌ قريبة من حيّنا.

هكذا صرتُ أنغمسُ بكليتي في عالم الكرة. منحتها كل شيء... عمري ووقتي وشبابي، ليس لأنني أحبها فقط، ولكن لأنها الشيء الوحيد

الذي أُجيده في هذه الحياة، ولم أسمع يومًا ثناءً إلا من خلالها. فكانت ملاعب الحَواري هي الأماكن الوحيدة التي أحصل فيها على التقدير والاحترام، هي التي ربما تُذكرني بإنسانيتي وأنّ لي مكانًا في هذه الحياة.

حفنة النقود التي يعطيني إياها عمي سالم بين فينة وأخرى لم تكن تكفي لأبتاع ملابس رياضة سوى من أرخص الأنواع، أما الحذاء الرياضي فكان صعب المنال، ولا أذكر أبدًا أنني ابتعت حذاءً رياضيًا ما لم يخرج أحد أصابع قدمَي منه مثلما تخرج الدودة من بطن جيفة!

في بداية الأمر كان ياسين مرتاحًا للطريقة التي أعيشها، لأنه لا يشعر أبدًا بوجودي، فأنا أعود دائمًا في آخر الليل، وأطرق الباب بخفة وأدب وأنتظر كي يتمكّن من ترتيب فوضاه العاطفية، أو تغيير مسرح جرائمه كيفما يريد. وحتى بعد عودتي كان أحيانًا يزحف مثل حيةٍ ويختبئُ تحت ملاءته ويكمل مكالماته مع إحدى خليلاته المفترَضات، أو يعود ليكمل فيلمًا أجنبيًا كان يتابعه أو تحقيقًا عن دولة أجنبية. وكان يلفتني أنه لا يتابع فيلمًا عربيًا ولا يهتم بأي شيء عن دولة عربية. كان لا يملّ من مشاهدة تلك الأفلام والتحقيقات.

أثار ذلك فضولي فسألته ذات ليلة:

- ألا تملُّ من هذه الأفلام الأجنبية والوثائقية؟

مدّ ساقيه وهو متكئ بظهره إلى أحد المساند المصفوفة على جوانب الغرفة ووضع يديه خلف رأسه وهو يتنهد بلهفة وقال:

- أريد أن أهاجر إلى واحدة من تلك البلاد. وأنا أجمع الفلوس لتحقيق هذا الحلم.

قلت مندهشًا:

- هجرة! أين ستهاجر؟

- هولندا، هناك جالية يمنية كبيرة وأعرف بعضهم، لكن ينقصني المال.

- وما الرابط بين الهجرة ومتابعة هذه الأفلام؟

ضحك من سؤالي وقال:

- يمكن أن تقول عني مجنون، لكن صدقني، من خلال تلك الأفلام أتعرّف إلى طبيعة الحياة عندهم، وإلى النظام، واحترام حقوق الإنسان، وأزداد إصرارًا على الهجرة والعيش في ذلك العالم.

ها هو سرٌ آخر يكشفه ياسين من أسرار حياته الميؤوس منها، وكأنّ على أحلام الفقراء أن تكافح لتمخُر عباب بحر الحياة الهائج. فالأحلام هي الشيء الوحيد التي لا يمكن سلبها منهم.

تعاطفت معه ومع حلمه، بل غبطّه، فهو على الأقل يملك أحلامًا تضفي على حياته ظلالًا تقيه هجير اليأس الذي يقتل في الإنسان كل معنى جميل. أحيانًا نحتاج إلى خيالٍ رحب نواجه به ضيق الحياة وفظاعتها.

على الأقلّ هو يحلم ويسعى لتحقيق حلمه، أما أنا فمحاصرٌ من كل اتجاه، لا أسرة، لا مال، لا علم، لا مأوى ولا حتى وجهٌ جميل يخفف من ثقل كل هذه اللاءات، فكيف لمثلي أن يتخلص من تلك الدائرة المغلقة؟!

4

مرّت فترة طويلة قضيتها في صُحبةِ ياسين، في تلك «العُزبة» الغارقة في البؤس، وهي فترة من عمري انصرمت بأيامها ولياليها، ما بين حزنها وفرحها، وآلامها ولذّاتها، وظلامها ونورها... إلى أن شعرت بشيءٍ يفوق المعتاد في تصرّفات ياسين نحوي. أتكلم معه فأجده لا ينظر نحوي، ولا يتفاعل مع حديثي، مما يضطرني غالبًا إلى السكوت بشعور انكسار يبعث على الشفقة.

وددتُ لو أعلم سبب ذلك النفور الذي ازداد في الآونة الأخيرة وبالي منشغلٌ في كيف أتفادى أي عواقبَ وخيمة فيما لو قرّر أن يطردني.

مؤلم جدًا أن تحسَّ بأنّك عبء، وأنك تتحول إلى شيء لا يُطاق، والأشد إيلامًا أنك لا تستطيع أن تحفظ ماء وجهك، وتلملم ما بقي لك من كرامة وترحل. فأنا مثل السجين الذي يُقاد إلى زنزانته، ليتجرع فيها أصناف الذُل والهوان من غير حولٍ له ولا قوة، هكذا كنت أشعر وأنا أعود في كل ليلة إلى «العزبة»، أبتلع نظرات ياسين وصمته ولا يمكنني الهرَب إلى أيّ مكان آخر.

كنت جائعًا ولا أملك ريالًا واحدًا. لم يكن أمامي سوى الذهاب إلى عمي سالم كعادتي عندما أفلس. عبرت ذلك الزقاق الموحل وأنا في بؤس شديد أتأمل تلك الأبواب المفتوحة التي تخرج منها روائح كريهة، أراقب الصبية الأفارقة وهم يلعبون في تلك الأزقة عُراة بلا سراويل.

حينما وصلت إلى بيت عمي طرقت الباب، فجاءني صوت عيشه مجلجلًا ومخيفًا كعادته:

- مييين؟

- أنا يوسف.

- ماذا تريد؟

- عمّي سالم.

- لحظة.

تناهى إلى سمعي قرع خطواتها وهي مغادرة وتنادي سالم بصوتها الحاد.

ما هي إلّا لحظات حتى فتح الباب وخرج عليَّ بسحنته التي تحمل سمات البؤس، وبمنظره الهزيل الغارق في التعب. حدقت في شكله للحظات، في أكتافه السمراء البارزة، وذراعيه النحيلتين، وتلك «الفوطة» الخضراء الباهتة على وسطه. كنت أضمر له مشاعر حُب دفينة بالرغم من كرهي لما فعله معي. كم وددت في تلك اللحظة أن أضمه إلى صدري وأخبره بأنني اشتقت إليه، ولكنه فاجأني بسؤاله وهو واقف بالباب:

- نعم يا يوسف، أتريد شيئًا؟

لم يستطع حتى أن يدخلني إلى بيته، لأنه يعلم أن ذلك قد يثير غضب عيشه، ولا ألومه على ذلك.

- محتاج فلوس.

تنهد قليلًا ثم قال:

- ما عندي فلوس، قالها بصوت مرتفع كأنما يريد لعيشه أن تسمعه، بينما يدسّ في يدي خمسة عشر ريالًا، وهو يكمل: ثم إلى متى ستبقى على هذه الحال؟ متى تفكر في مستقبلك وتشوف لك عمل تأكل منه عيش. أنت ما شاء الله كبرت والمفروض تعتمد على نفسك.

لم أنبس ببنت شفة. اعتدتُ على الهروب في مثل هذه المواقف التي أشعر فيها بأنّني مُدان، وأنني لا أملك جوابًا للسؤالِ، فكلام سالم صحيح، لأنّني أصبحت كبيرًا بما يكفي لأعتني بنفسي.

أدرتُ ظهري لعمي وعدتُ أجرُّ قدميَّ بوهنٍ وكأنني أدفع عربة ثقيلة، مطأطئًا رأسي، غارقًا في التفكير كيف سأجد حلًا لوضعي.

كنت أمشي هائمًا على وجهي، في ذلك الزُقاق الطويل المليء بكل قاذورات العالم، أخوض من غير أن أشعر في تلك المجاري التي تسيل مثل لُعابٍ قذر من أفواه الأبواب المفتوحة ومن تحت الأرض، متأملًا إبَر الهيروين الملقاة في كل مكان بإحساسٍ متبلد أَلِفَ مثل هذه المناظر البشعة!

حينما خرجت من ذلك الزقاق اتجهت يسارًا نحو كوبري الميناء، لأنني أردت الهروب قليلًا من حي غليل، فلو اتجهت يمينًا لدخلت إلى أعماق غليل حتى أصل إلى «دوار الخاتم» ولكنني فضلت الهروب إلى أطراف الحي من ناحية الشمال. سرت بروحٍ ضالة حتى صار كوبري الميناء عن يساري والحي عن يميني وواصلتُ المشي شرقًا بلا هدف معين أو نقطة أردت الوصول إليها.

كنت أجول ببصري بشكل عبثي نحو الملاعب الصغيرة المندسّة تحت الكوبري وفي خلَدي تدور أسئلة كثيرة عن القدَر المحتوم الذي ينتظرني. كيف سأعيش؟ ومن أين سآكل؟ وكيف سأقضي الأيام القادمة وجيبي فارغ إلا من خمسة عشر ريالًا؟! أشدّ على الريالات في جيبي. أعرف أنها آخر ما قد أحصل عليه من عمي.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا واقفٌ أمام «سوق الأهدل» يبدو أنني كنتُ أمشي بلا وعي ولم أنتبه لتلك المسافة التي قطعتها مشيًا على الأقدام، فالروح عندما تكون خاوية تسوق صاحبها مثل ريح غاضبةٍ.

مشيت ومشيت حتى استوقفتني باحة «سوق الطيور». بحثت عن مقعدٍ أُريح فيه قدميّ إلى أن وجدت قطعة «كرتون»، نفضت عنها غبارها وتربّعت فوقها ورحتُ أتأمل تلك الطيور. كانت أكثر سعادة مني وهي في قفصها، لأنها تأكل وتشرب وعندها المسكن. منظرها وهي تزقزق في قفصها ذكَرني بقول لا أذكر مَن قائله «ليس السجين من حالت دونه الأقفاص، إنما السجينُ من ضاقت به الأرض بما رَحُبت».

كنت جائعًا متعَبًا تملؤني مشاعر كره لنفسي الغارقة في حياة الجمود والانتظار وقبول ذلّ مدّ اليد وذلّ رفض عمي تقديم المال لي، وذلّ نظرات ياسين... أتت لحظة أدركتُ فيها أنّ مَن لا يستطيع تدبير ثمن طعامه ومسكنه سيعيش ذليلًا.

عدتُ وفي نفسي شيء بدأ يتغيّر. وقرّرت أن أعود في وقتٍ يكون فيه ياسين في البيت. وددتُ أن أتحدّث معه كي أتفادى أي عواقبَ وخيمة فيما لو قرّر أن يطردني.

حاولت فتح باب الحديث، فقلت:

- هل تخبرني لماذا أراك مبتعدًا عني؟ هل أسأت إليك بشيء لا سمح الله؟

جاء رده باهتًا مقتضبًا:

- ليس هناك شيء.

أعدتُ عليه السؤال بطريقة أخرى:

- منذ فترة وأنت تتجاهلني ولا تتحدث معي.

التفت نحوي بملامح متجهّمة ورفع صوته:

- يا أخي قلت لك ما في شي.

صمتُّ وانسحبت إلى ركني واختبأت تحت ملاءتي مثل طفل كُسر قلبه. حاولت أن أنام لكنني لم أستطع، ولم يكن صعبًا تقدير سبب تجهّم ونفور ياسين.

أحسستُ بسياط التأنيب تجلدني بقسوة، وكانت لهجة ياسين تنذرني بأن الوقت انتهى... فتدبّر أمرك.

صرتُ أتجنّب اللقاء به، فلا أعود إلى «العزبة» إلّا بعد شروق الشمس؛ بعد أن يكون ياسين قد خرج إلى عمله، فهو يخرج مع الفجر ليجوب في أحياء جنوب جدّة، تلك الأحياء التي تكتظُّ بمجهولي الهوية

الذين دفعتهم الحاجة لمسابقة الغربان في النهوض مبكرًا بحثًا عن لُقمة العيش، فهم يفضّلون التنقل بالسيارات الخصوصية لأنها أرخص من سيارات الأجرة.

كان قد مضى أقل من أسبوع على لقائنا الأخير، عندما عدت وفوجئت بأنه لم يخرج إلى عمله. بدا واضحًا لي أنه ينتظرني، فقد رأيت في عينيه تلك النظرات التي يجلدني بها ثمّ يشيح بوجهه عنّي.

كعادتي، جلست مثل قطٍ جائع في رُكن الغرفة الصغيرة. إلّا أنني لاحظت أنهُ يتململ ويبقي نظراته عليّ على غير عادته منذ فترة.

كنت أنظر إليه بطرف عيني عندما التفت نحوي وقال:

- اسمع يا يوسف. أريد أن أخبرك بشيء، ولكن أرجو أن لا تفهمني غلط.

علمتُ أنّ الوقت قد حان ليبوح بتلك الغصّة العالقة في حلقة.

- أنا لم يعد باستطاعتي سداد إيجار «العُزبة» وحدي، ومثل ما أنت عارف إيجارها 600 ريال، وأنت ما شاء الله رجّال وتقدر تساعدني.

حاولت أن أفتعل الغباء بانتظار أن يصل إلى لبّ الموضوع:

- كيف أقدر أن أساعدك؟

تشاركني في دفع الإيجار بالنصف.

كانت كلماته حادة قاطعة، شطرت قلبي إلى نصفين، نصفٌ أحملُ فيه خيبتي من عمي سالم ومن نفسي أيضًا، والنصف الآخر انقطاع الأمل في البقاء مع ياسين. أحسستُ برعشة تدبُّ في أطراف جسمي، وبشيء كبير يتهاوى بداخلي.

أحيانًا نقف مذهولين من تلك اللحظة التي يقرر فيها شخصٌ نحتاجه التخلي عنّا، وكأننا ملابس رثّة لم تعد تتناسب مع مقاسات حياته.

تأملته بعينين ساهمتين، وقلت:

- لكنني لا أستطيع أن أدفع ثلاثمائة ريال في الشهر وأنت تعرف ظروفي.

- خذ من عمك سالم.
ابتسمت ببرود:
- هل تصدق أنه قال لي كلامك نفسه.
علت ملامحه الدهشة:
- كيف يعني... ما فهمتك؟
سردت له ما حدث لي مع عمي سالم. فصمت قليلًا وقال:
- معه حق... أنت رجل والمفروض تشتغل وما تحتاج لأحد.
كنت أتوقّع ردّه، فأنا المتهم الأول في هذه القضية. أنا الجاني والمجني عليه في الوقت نفسه، وها قد جاء وقت إصدار الحكم.

الفصل الثالث

الفرح في هذه الحياة يُشبه سطرًا كتبناه سهوًا في رواية مليئة بالحزن

1

ياسين كان رحيمًا معي حين أقارنه بعمي سالم، فهو على الأقل أمهلني فترة من الزمن لتدبّر أموري والبحث عن عملٍ يساعدني في دفع نصف الإيجار الشهري لتلك «العُزبة» البائسة.

كان الطوق قد أُحكم. «عليَّ أن أتدبّر أمري»، هكذا قال كل من عمّي سالم وياسين.

اتخذت القرار الأصعب في حياتي حينها: التخلّي عن الشيء الوحيد الذي منحني أوقاتًا من السعادة، تخليت عن لعبة كرة القدم. وقرّرت أن أبحث عن عمل، أيّ عمل. كنت أدرك أنه لن يمكنني إيجاد عمل ينجّيني من «حشّ» شلّة الدكاك. لذا كان كل ما يهمني أن يكون العمل خارج حي غليل، فلا أريد لأحد في الحي أن يرى نوع العمل الوضيع الذي أتوقّع أن أعمل فيه. هكذا رحت أدور على البقالات ومحلات الأقمشة والألبسة... بحثت حتى عند باعة الفحم، وكان يواجهني سؤال عن العمل الذي أتقنه... لكنّني لا أتقن سوى التسكّع وكرة القدم والجلوس على الدكاك، وهذه كلها لا تنفع في إيجاد عمل.

تحولت إلى كائن يُشبه قرد المكاك، أضيع وقتي بين الأزقة والأسواق، ألتقط فضلات الطعام التي يُقدمها لي صاحب المطعم مقابل جمع نفاياته. وفي أفضل الأحوال، كان صديقي المقرب إسماعيل الملقّب بـ«الدغريشي» يسرق لي صحن أرزّ من مطعمه. وها أنا أصل إلى مرحلةٍ لم أعد أحتمل فيها نفسي، أكره ما أصبحت عليه.

ذات مساء كنت ممددًا فوق مقدمة سيارة مهترئة، سيارة قديمة وشهيرة في الحارة مهلهلة وبلا أبواب، محشورة بمحاذاة حوش قديم في وسط الحي، فإذا بصوتٍ ينادي:

- يا «هرّ»!

رفعتُ رأسي، فلم أصدّق ما أرى، إنه درويش الـ«مجعرم» حامي حِمى الحارة ببطولاته الشهيرة والرجل الذي يهابه الجميع.

أجبته برهبة:

- هلا سيد درويش.

نظر نحوي بابتسامته المائلة:

- سمعتُ أنك تبحث عن عمل.

حدّقت في سحنته المهيبة وذراعه العريضة المتدلية من نافذة السيارة، وقلت:

- نعم، لكن... فقاطعني:

- أبحث في الحارة عن شخص يشتغل في بقالة، فإذا كنت مستعدًا جهّز نفسك من بكرة.

قلت على الفور:

- نعم، مستعد.

بينما يحركّ سيارته الكورولا الصغيرة، أطلّ برأسهِ الكبير، وقال:

- موعدنا بكرة.

انطلق مسرعًا وتركني في زوبعةٍ من الحيرة والدهشة. لم أكن أتوقع أبدًا أن يأتي الفرج على يدِ درويش «المجعرم»، ذلك الرجل الذي ذاع صيته في كل أحياء جنوب جدة، الرجل الذي يهابه الجميع، لِما عُرف عنه من الصلابة والشدة في المعارك والمضاربات التي يخوضها هنا وهناك حتى اكتسب الكثير من العداوات والكثير أيضًا من العلاقات التي تبنى على مصالح القوة فقط لا غير.

حي غليل من الأحياء التي تنبني فيها المكانة والسلطة على القوة والجرأة في خوض المنازعات، ونحن أبناء هذا الحي نعرف مثل هذه الشخصيات ونحترمها لأننا نعتبرها قوة لِحيّنا. ودرويش «المجعرم» ورث هذا العنف من الحيّ الذي تربّى فيه، وأدرك أنّ المهابة تقوم على الهراوات والسكاكين، ولذلك كان لحارتنا هيبة ومكانة بين الأحياء. وقد حصَّنها درويش بوجوده كأسطورة يمتد أثرها إلى الأحياء الأخرى.

2

كانت الأرض لا تسعني من الفرحة، ونمتُ تلك الليلة قرير العين، مُنشرح الصدر. حتى إنني عندما استيقظت في اليوم التالي شعرت وكأنّني بُعثت من جديد، مثل فراشة للتو خرجت من شرنقتها وراحت تُحلق برهافة أجنحتها بحثًا عن الرحيق الغائر في أعماق كؤوس الأزهار.

بالرغم من سعادتي إلّا أنني كنت في حيرةٍ من أمري، فلستُ أدري كيف ومتى سألتقي بدرويش «المجعرم»؟! لم يكن بيننا موعد في مكان معين، أو ساعة محددة، وهذا ما جعلني قلقًا طيلة ذلك اليوم. هكذا رحتُ أذرع شارع «زينل» من شماله إلى جنوبه مثل ذلك اليمني الذي اعتدنا على سماع صوته وهو يصرخ بحنجرته «بطاطس.. بطاطس» وكان من عادته أن يمسح الشارع ذهابًا وإيابًا.

تذكرته لأنني كنت أشبهه في ذلك اليوم، ولكنني لا أستطيع أن أصرخ مثله وأنادي بملء حنجرتي «يا درويش أين أنت». فصرتُ كالمجنون، تارة أمشي، وتارة أجلس على عتبات المحلات بمحاذاة الشارع مطلًا برأسي مثل بومة تترقّب. فلمّا تعبت وكدتُ أفقد الأمل في مجيئه، راودتني فكرة الذهاب إلى تلك السيارة الخَرِبة لأنّها المكان الذي رآني درويش فيه بالأمس.

جلستُ فوق السيارة لساعات حتى رأيته مقبلًا عند الساعة العاشرة مساء تقريبًا. أوقف سيارته بطريقة عشوائية بمحاذاة السيارة الخربة، ونزل بجسمه المهول وأنا أتأمله بتبجيل كبير، أحدّق في تلك العضلات النافرة من ذراعيه، وفي صدره الذي يشبه درعًا رومانيًا، وقال لي:

- كيفك يا «هرّ»؟

- تمام الحمدلله.

أخذ بيدي وسار بي إلى بقالة العم أحمد وأنا أُقلبُ عينيّ في دهشة وخوف. لم أكن أتوقع أبدًا أنّ بقالة العم أحمد هي المكان الذي سأعمل فيه، تلك البقالة العتيقة في حارتنا، والتي يقصدها معظم أهالي الحي وأبناء الحارة.

وصلنا إلى عتبة البقالة، وكان العم أحمد جالسًا ومثبتًا ساقيه بشماغ يلفّه بطريقة اعتاد عليها كبار السن، يثني الشماغ ويطويه ثم يلفه على جسده. حينما تراه للوهلة الأولى على هذه الهيئة ينتابك شعور بأنه مربوط أو مقيَّدٌ بحبل.

كان مشغولًا كعادته كل ليلة في لُعبة «الضومنة» كما نسميها أو «الدومينو» كما تسمّى في أماكن أخرى، مع رفقةٍ اعتاد الجلوس معهم دائمًا، «العم بكري والعم يحيى والعم مبروك» وجميعهم آباء لأصدقائي، أعرفهم ويعرفونني جيدًا.

عندما وقف درويش بقامته الهائلة فوق رؤوسهم وسلّم عليهم قال للعم أحمد:

- هذا يوسف الذي سوف يعمل معك.

لم أكن لحظتها في وضعٍ يسمح لي بالتراجع أو الهروب بعد أن علمت مع من سأعمل، إذ تصوّرت الكم الهائل من «الحَشّ» والسخرية التي ستلحق بي.

أجال ببصره نحوي فيما كنت أتأمل صلعته التي احتلت مقدمة رأسه وكثافة شعره الأبيض الذي أحاط بمؤخرة رأسه وجانبيه، وقال:

- حياك الله يا يوسف تعال بكرة عند الصباح كي أعلمك الشغل في المحل.

شكره درويش ومضينا. هكذا وبكل بساطة تمّ الأمر. ولم يكن بحجم الحفاوة التي تلقيتُ فيها خبر العمل.

بينما كنا نقطع الشارع متجهَين إلى سيارته وضع ذراعه الضخمة حول

رقبتي حتى اختفى رأسي الصغير بين عضده وزنده، وقال لي بشيء من التشجيع:

- كن رجلًا ولا تتخلف عن موعدك مع العم أحمد.

أجبته وهو يعتصر رقبتي:

- أكيد... أكيد، ما يحتاج توصيني.

إلاّ أنني في حقيقة الأمر توجّست من العمل في بقالة العم أحمد التي تُعتبرُ مزارًا لأهالي الحي وتقع في مكانٍ قريب من «دكةِ» شباب الحارة وهذا ما لا تُطيقه نفسي.

كما تساءلت في نفسي عن السبب الذي دفع درويش «المجعرم» لتقديم هذه الخدمة لي، وهو البعيد عن تقديم الخدمات المجانية. حتى إنني ظننت أن لعمي سالم صلة بما فعله، فبينهما تاريخ طويل جمعهما على الرغم من فتور العلاقة بينهما وتحديدًا بعد أن تزوج سالم من عيشه، لأنها استطاعت أن تجعله يدير ظهره لكل أصحابه وينصب وجههُ أمامها كمومياء محنَّطة.

3

لم يتبقَ لي من المهلة التي منحني إياها ياسين سوى عشرة أيام، ومع ذلك عقدتُ العزم على ألّا أعمل في بقالة العم أحمد حتى لا أكون موضع سخرية من الجميع. هم أصدقائي وأنا أعرفهم جيدًا، فكيف هو الحال وأنا المعنيُ بالأمر؟! لأنّ أحدًا منهم لم يسلم من لساني الذي كان سليطًا عليهم بلا رحمة.

كنت الإنسان الصعلوك الذي نخر الحزن عظامه فتحول إلى مهرّج لينقذ نفسه من قبضة اليأس من هذه الحياة، فوجدت أن الضّحك هو السبيل الوحيد للنجاة من هذا البؤس. هكذا اكتسبتُ تلك الروح الساخرة تعزّزها سلاطة اللسان. لذا قرّرت ألاّ أعمل في بقالة العم أحمد، حتى لو عشتُ مشردًا بلا مأوى.

في اليوم التالي تخلفت عن موعدي واتجهت إلى ملعب حارتنا لأُبدّد وحشة القلب ولو بالجلوس في محيط الملعب.

كان الوقتُ أوّل المساء وأنا جالس برفقة إسماعيل «الدغريشي»، وهو الصديق الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة عنّي. كنتُ مسندًا ظهري على مرتبة خُلعت من سيارة ووُضعت على طرف الملعب ممددًا ساقيَّ السمراوين الدقيقتين غارقًا في الحديث مع إسماعيل، وإذا بصوتٍ جهوريّ ينادي من بعيد:

– يا هرّ... يا هرّ...

قلبت رأسي يمنةً ويسرة بحثًا عن مصدر الصوت، فرأيت رأس درويش «المجعرم» يطلّ مثل غوريلا من خلفِ سيارته في الجهة المقابلة للملعب. ارتعدت فرائصي هلعًا وانتفضت مثل عصفور. لم يكن لي مفرّ من تلبية ندائه. ولمّا وقفت أمامه مثل مرتكب ذنب قال لي:

- اركب السيارة.

من دون اعتراض استويت قاعدًا داخل السيارة، فقال:

- لماذا لم تذهب إلى الرجل؟

وقبل أن أنبس بكلمة واحدة، هوى بكفه العريضة على وجهي وصفعني صفعة جعلت رأسي يرتطم بزجاج النافذة التي بجانبي وأضاف: كيف تقلل من قدري عند العم أحمد. الآن نذهب معًا للبقالة وتبدأ الشغل من هذه الليلة.

عشتُ حالة رعب شديدة، وفي حلقي غصة بكاء لم أستطع إخراجها.

عندما وقفنا بمحاذاة البقالة ومددتُ يدي المرتعشة إلى مزلاج الباب لأفتحه، جاءت يَدهُ مثل حيةٍ وببطء شديد نحو رقبتي، فتلني بقوةٍ وقال:

- أحلف بالله لو تعيد حركتك هذه، أو أسمع أي شكوى من العم أحمد لأجعلك عِبرة.

نظرتُ إليه بعينين زائغتين وقلت:

- أعدك... لن أكررها.

نزلتُ من السيارة وقلبي يخفق بشدة، ونفسي تغلي كأنها في مرجل. انسللت سريعًا داخل البقالة من غير أنّ أُلقي التحية على الكُهُول الذين يتوسطون عتبة البقالة، فوجدتُ العم أحمد قابعًا خلف مكتب قديم من خشب الواوا منشغلًا مع أحد الزبائن.

سلّمتُ عليه وانتحيت جانبًا حتى يفرغ من محاسبة الزبون الذي بدا لي من لهجته أنّه صومالي الجنسية. نظر نحوي بعطفٍ وقال:

- وينك يا ولدي ما جيت من بدري؟

لم أستطع أن أنطق بكلمةٍ واحدة فما زالت تلك العَبرة تخنقني، وتلك الصفعة يتردد صداها المؤلم في أعماقي. لم أخرج بَعدُ من هَولِ الصدمة التي تعرضت لها منذ قليل، كنت مُهشَّمًا من الداخل ولا يُمكنني أن أجمع شتات نفسي، فقلت بكلماتٍ مُتعثرة:

- انشغلت يا عم أحمد.

ابتسم لي وقال:

- إذًا يا بُني دعني أخبرك كم ستتقاضى شهريًا، وإذا رأيت أنه مناسب أريدك أن تبدأ من الغد عند الساعة العاشرة صباحًا، فدوامك من الساعة العاشرة صباحًا حتى الساعة الثانية ظهرًا، ثم تخرج لثلاث ساعات وتعود مرة أخرى عند الساعة الخامسة مساءً إلى الثانية صباحًا، وسوف أعطيك ستمائة ريال في الشهر.

لم يكُن لي خيار الرفض بعد صفعة درويش التي سأظلُّ أتذكرها ما حييت. فقدتُ القدرة على التفكير لأنني كنت خائفًا من مغبّة رفضي لعرضه المجحف، والخوف شللٌ مؤقت، بل هو أكبرُ مستنقع لجرثومة الانكسار والتيه. فأجبته منكسرًا:

موافق يا عم أحمد.

4

خرجتُ من البقالة حاملًا وجهي المُنكسر على كفّي وكأنّني أمشي بلا ملامح، وبِلا هوية...! أحسست حينها أنّني لستُ إنسانًا، إنما كائنٌ لا قيمة له ويعيش مع أناس سحقوه حتى آخر ذرةٍ من إنسانيته.

اتجهت إلى الزُقاق المؤدي إلى «عُزبة» ياسين، لأنّ كل شيء في تلك الليلة انطفأ في عيني، وهروبي إلى النوم كان السبيل الوحيد للخلاص ممّا أنا فيه.

فتح لي ياسين الباب بوجهه الممتعض دائمًا، وبادرته قبل أن يَتفوّه بأيّ كلمةٍ تزيد من عُمق جراحي، فلم تعد روحي تتحمل الإهانات، ولا تُطيق تلك الوجوه المنقوعة في الشفقة. وقلت له:

- وجدت شغل أبشّرك.

تهلّل وجهه وقال:

- مبروك يا يوسف، وإن شاء الله هذه بداية الغيث.

- إن شاء الله.

قلتها من قلب الغصّة التي ما زالت تخنقني.و لذت بفراشي المُمزَّق المُلقى في زاوية الغرفة مثل كومة نفايات، وتلحّفت واضعًا كفي الأيمن تحت خدّي الذي تلقى صفعة درويش. ما زلتُ أشعر بحرارة يده، ولأولِ مرة في حياتي تخليتُ عن كبريائي وتركتُ لدموعي أنّ تنهمر بغزارة حتى بلّلت وجهي. لم أكن قادرًا على حبس تلك الدموع، فالروح إذا تبخّرت بالألم تُمطر دموعًا غزيرة.

لقد بكيتُ في تلك الليلة كثيرًا حتى انطفأ شيءٌ من حزني، شعرت براحة وطمأنينة واكتشفت بأنني أقسو على نفسي حين أتعامل مع مشاعري التي أكبتُها بكل تعنّت وجهل! أدركت ذلك بعد أن تذوقت حلاوة الدموع وراحتها، وكيف كانت تغسل صدأ الحُزن العالق في

صدري، فندمتُ على كل دمعة حبستها في مهدها من أجلِ أن أحتفظ بصورة الرجل القوي!

عند العاشرة صباحًا ذهبت إلى البقالة فرأيتُ العم أحمد يدور بين الأرفف وكأنّه يتفقد الأشياء، ويستلّ بيده بعض العُلب من المواد الغذائية ويُدنيها من عينيه كي يقرأ تاريخ انتهائها. ألقيت التحية عليه وبقيت واقفًا لا أدري ماذا أصنع؟

قال لي بعد أنّ ردّ التحية:

- اقترب يا يوسف... أريد منك أن تتفحص عُلب المواد الغذائية المرصوصة على هذا الرف، وتتأكد من تواريخ انتهاء صلاحيتها.

كانت البقالة صغيرة ولكنها تغصُّ بالبضائع والسلع، وتتوسطها ثلاجتان قديمتان، إحداهما يتكدّس فيها الدجاج المبرَّد واللحوم وبعض أسماك السردين المغلفة، والأخرى فيها أصناف كثيرة من الآيس كريم ومشتقات الحليب، وبجانب الباب ثلاجة طويلة مُعبّأه بالمشروبات الغازية.

مشى بخطوات واهنة نحو مكتب خشبي إلى جانبه صندوق صغير مخصّص للخبز، ثم جلس ببطء شديد على كُرسي قديم من المعدن مغطى بسجادة صلاة. كانت هناك ثلاثة أدراج في المكتب فأخرج مفتاحًا صغيرًا وأعطاني إياه، وقال لي:

- الدرج الأول فيه دفتر الديون، والدرج الثالث فيه الفلوس.

ثم نهض مرة أخرى وأخذ بيدي ندور معًا وسط البقالة يُعلمني تفاصيل الأسعار. قضيتُ كل ساعات النهار الأولى منصتًا لما يقوله محاولًا أن أعرف ما المطلوب منّي بدقة.

عند أذان الظهر وقبل أنّ نخرج قال لي:

- مع الأيام سوف تتعلم يا ولدي. لكن لا تنسَ أن تُغلق البقالة عند الساعة الثانية.

خرج مع أذان الظهر بعد أن عصب رأسه بشماغه متجهًا إلى المسجد، وبقيت أنا عند عتبة البقالة أفكر كيف سيمضي هذا اليوم بسلام، لأن فترة

المساء هي التي ستضعني في مواجهة النّاس... ستعرف الشلّة وكل من في «المركاز»!!

عند الساعة الخامسة مساء خرجت متوجهًا نحو البقالة متخفّيًا بين السيارات كأنني لصّ هارب من عيون تراقبه. دفعتُ باب المحلّ ودخلت وأنا أتلفّت خلفي. كان العم أحمد منهمكًا بقراءة القرآن فأشار بيده أن أجلس.

أتمّ السورة التي كان يقرأها وقبّل المصحف ثم وضعه في الدرج الثاني من المكتب، وقال لي:

- تأخّرت يا يوسف.

- سامحني يا عم أحمد، هذا أول يوم لي، وإن شاء الله بكرا أجي بدري.

رفع جسمه بصعوبة وترك لي المكتب وقال:

- أنا عندي مشوار وأعود عند العشاء. انتبه على المحل.

خرج يجرُّ قدميه وكأنّ مفاصله لم تعد تطيقُ حَمله في هذه الحياة. لم يكن متقدمًا جدًا في السن، لكنه هَرِمَ سريعًا بسبب الأسى الذي نخر عظامه، والحزن الذي استوطن قلبه، بعد حادثةِ ابنه الذي توفى فجأةً ثم سرعان ما لحقت به زوجته ورفيقة دربه.

كانت تحضرني تلك الصور المؤلمة وأنا أحدق فيه من خلف زجاج البقالة وهو واقف على طرف الشارع يشير بيده إلى سيارة أجرة.

لقد كان ابنه «علي» مصابًا بمتلازمة داون، ولكننا بسبب الجهل لا نناديه إلا بـ«علي المنغولي». أهلُ الحي جميعهم فُجعوا بوفاة علي، وتأثّرت القلوب لمنظر العم أحمد وهو ينتحب مثل طفل تائه، فقد كان علي صبيًا ودودًا محبًا، ونراه دائمًا برفقة العم أحمد، يصطحبه دائمًا معه ولا يرفض له طلبًا، ويستمع إليه رغم صوته الضخم وكلماته المتعثرة. لقد كان مدللًا ومحبوبًا من الجميع فهو يلعب في المسجد أثناء الصلاة

ولا أحد يثرّب عليه. موته أحزن أهل الحي، لكنه كان فاجعةً أصابت العم أحمد فأضعفته.

بعد مرور سنتين على هذه الحادثة توفيت زوجته ولَحِقت بابنها، ولم يتبقَ له سوى ابنتاه: حياة وكانت مثالًا للخيالات السرية لشباب الحي، وفاطمة الابنة التي كرّست اهتمامها ورعايتها لوالدها. لم تكن له أمنية أعزّ من أن يراهما تستقران في كنف زوجيهما ليطمئن قلبه وتقرّ عينه قبل أن يُسدل الستار على أيامه. وهذا ما جعل العم أحمد زاهدًا في الحياة، وبعد أن كان يفتح بقالته قبل فتح أبواب المدارس ولا يغلقها حتى ما بعد منتصف الليل، صار يفتحها عند العاشرة صباحًا ويغلقها في أوقات كثيرة.

مرَّت الأيام وأنا أعيشُ مختبئًا في جوفِ البقالة كي لا يُفتضح أمري، لكن سرًا كهذا لن يظل طي الكتمان في حي تتلاصق فيه البيوت، وتتقابل فيه الأبواب. لا شيء يبقى في الخفاء طويلًا؛ فحكايات أهل الحي تتسلل من بين الشفاه مهما حاولوا إخفاءها، وبيوت الرذيلة لها سمعة تسبقها، وأزقة الخراب تحمل أسماء تهمس بها الجدران قبل الناس، وبائعو المخدرات يُشار إليهم بالبنان! في هذا الحي حتى الصمت له صوت، وكل سرّ يتحول مع الوقت إلى رواية تتناقلها الألسن. لا شيء... لا شيء يتحرك في ذلك الحي ويخفى على أهله، فكيف بعملي في بقالة العم أحمد المقصودة من أهل الحي.

لم تمضِ أيام حتى تصدرت قصتي أخبار الحي، بل إنّ «شباب الحارة» صاروا يتمركزون حول البقالة كل مساء، ويصرخون بعبارات ساخرة تخترق قلبي مثل الرصاص:

«يا هرّ علبة تونة بالله»... «يا هرّ لا تنسَ تمسح بلاط البقالة»... «يا حرامي لا تسرق البقالة»...

ويمتد سيلٌ من «المحشّات» لا ينتهي.

لم يخلّصني من هذا الوجع سوى «الدغريشي»، فهو تعرّض لهذه

المعاناة قبلي عندما أُجبر على العمل مع أخوته. فكانت نصيحته لي أن أخرج دائمًا بوجهٍ ضاحك، وأن أتصالح مع ما أنا عليه، فهذا أقوى ردّ على تهكمهم، وأقصر طريق للحدّ من تطاولهم.

وبالفعل فعلت ما نصحني به، ومع مرورِ أسبوعين على بقائي في البقالة اعتادوا على رؤيتي هناك وألِفوا وضعي كبائع في المحل، وصارت تخفّ وتيرة السخرية حتى تلاشت مع الأيام. لكنّني كلما رأيت اجتماعهم شعرت بالمرارة. ولولا خوفي من درويش لربما تخلّيت عن هذا العمل.

تدحرجت الأيام في رتابةٍ مُملة، كل شيء يتكرّر يوميًا مثل الإذاعة المدرسية في كل صباح، ففي النّهار أُفرز السّلع المنتهية صلاحيتها، ثم أقوم بتنظيف الأرفف بمنفضة ريش النعام، وأعيد ترصيص كل العُلب والكراتين المُبعثرة، وأرتمي أخيرًا خلف ذلك المكتب الذي يغصّ بالحلويات واللبانِ وأنواع مختلفة من البسكويت التي تُباع بنصف ريال.

في المساء تبدأ الحركة بطيئة عند العصر حتى تصل إلى ذروتها بعد صلاة العشاء. وكان الوقت يمضي سريعًا في الليل بسبب كثرة الزبائن وانشغالي معهم إمّا في البيع أو تبادل الأحاديث، ولكن أجمل الأوقات بالنسبة لي هي بعد ذهاب العم أحمد إلى بيته.

بعد أن عملت معه تغيّر نظام العم أحمد عمّا كان عليه، فأصبح لا يأتي إلا عند الساعة الخامسة عصرًا ثم يجلس على تلك العتبة أو «الدكّة»، التي هي مساحة من الإسمنت عرضها وطولها قرابة الثلاثة أمتار، فيتربّع في وسطها حتى يجتمع برفقائه المعروفين في كل ليلة ليمارسوا هوايتهم في لُعبة «الضومنة» حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، ثم يمضي بعد أنّ يأخذ الغلّة تاركًا لي بعض «الفكة» التي تساعدني في إدارة شؤون البقالة.

في ذلك الوقت يَطيبُ لي السمر مع إسماعيل «الدغريشي» ذلك الإنسان الذي اتسع صدره لهمومي التي لا تنتهي، فهو يَمني الجنسية ولكنّه مولود في السعودية، وقد رافقني في رحلة المراهقة والشباب، التي قضيناها في لعب كرة القدم في حواري جنوب جدة.

ذلك الشاب الطويل الأسمر، عريض الصدر، له عينان شهباوان غائرتان تُعبّران عن حدة ودهاء، وله شارب كث أسود يعتدّ به دائمًا ويعتني بمظهره أكثر من نظافة جسمه وذلك لتعلّقه الشديد بأحد رموز الفن الينبعاوي توفيق الرويسي من محافظة ينبع، والذي اشتهر في إحياء ليالي الطرب في قاعات أفراح جدة آنذاك. فكان إسماعيل يتشبّه به في شكلهِ ومظهره وطريقة أدائه للمواويل الينبعاوية. إذ كان معروفًا في حارتنا بحنجرته القوية النقية في الصدح بالمواويل على أوتار السمسمية، فكنّا لا نُقيم فرحًا إلا ويتصدر المكان ويقدَّم له «المايك» أو الميكروفون فتأتي معاناته وآلامه ممزوجة بعذوبة صوته على شكلِ مواويل تئنُّ لها قلوبنا وتُخرج الآهات المكتومة في أعماقنا.

إسماعيل يشبهني كثيرًا، إلا أنّ وضعهُ أفضل لكثرة أخوته الذين وضعوا حدًا للهوه ونزَقه. كان أصغرهم فتركوه فترة من الزمن يتبع هواه ويهيم مثل ضالّ حتى قارب العشرين من عمره، عندئذٍ وقف أخوه الكبير في وجهه وخيّره بين العمل معهم في أحد المطاعم اليمنية الشهيرة التي يقومون عليها، والرحيل إلى اليمن. ومنذ ذلك اليوم وهو يعمل معهم كسائق لسيارة دباب بأربعة عجلات فيقضي جُلّ نهاره في حلقة الخضار، والمستودعات التي تبيع بالجملة، ومحلات أنابيب الغاز، فهو المسؤول عن مشتريات المطعم ونواقصه.

كان إسماعيل يسامرني كل ليلة في البقالة نتجاذب أطراف الحديث عن أحوال الحارة أحيانًا، وعن تلك الحياة التي تخلينا عنها بغير إرادة منّا. هو صديق لا يمكن أن أنسى وقفاته معي وأنا أعيش أسوأ حالاتي حينما يدسُّ في جيبي، من غير أن يستشيرني، خمسين ريالًا، وأحيانًا قد تكون مئة ريال! وقد يحمل لي وجبة مندي لا أحلم بها لولاه. كان الوحيد الذي كلما شعر بأنّني على وشك السقوط في هوة اليأس السحيقة يمسك بيدي.

5

قبضتُ أول راتب بعد مرور الشهر الأول، فشعرتُ بفرحةٍ عارمة ظلّت عالقة في ذاكرتي، أذكت في روحي معاني جميلة لم أشعر بها من قَبل. شعرتُ بثقتي في نفسي، وكأنني أُقبل على الحياة بوجهٍ آخر.

انطلقتُ سريعًا إلى ياسين ووضعتُ في كفهِ ثلاثمائة ريال، فتهللّت أساريرُ وجهه، وهو ما زادني ثقةً في نفسي. لم ألتفت حينها إلى ما تبقى معي، لأنّني لم أكن أُخطط لشيءٍ أبدًا، فسعادتي في الإحساس بقيمتي كإنسان لا يعيش على فضلةِ أحد، وهذا كافٍ ليغنيني عن كل أموال الدنيا.

بدأتُ أحبُّ نفسي كثيرًا وتصالحت مع عملي كبائع في بقالة.

عشتُ في راحةِ بال وسكينة لم أشعر بهما من قبل، وأحببت العمل في البقالة والجلوس فيها لأطولِ وقتٍ ممكن، شعرت بأنها بيتي الثاني، وبقيت على ذلك فترة طويلة حتى جاء اليوم الذي تعرضتُ فيه لموقفٍ غريب، أعاد لي شبح الخوف من جديد، وعكّر صفو أيامي.

ذات ليلة بعد أنّ ذهب العم أحمد إلى بيته، كنت أنتظر مرور إسماعيل كعادته، وإذ تدخل عليَّ فجأةً حياة ابنة العم أحمد بعطرها النفّاذ الذي كان يسبقها. جاءت تختال بمشيتها في عباءة ضيقة تُبرز مؤخرتها التي تشي بالفتنة، وتجوب ببصرها هنا وهناك بعينين عسليتين واسعتين غارقتين في الكحل الأسود.

راحت تنتقي بعض الأغراض وتتصرّف كأنني غير موجود، وأنا أتابعها في ذهول ودهشة حتى جمعت حاجياتها داخل الكيس، ثم وقفت أمامي بعينيها المليئتين بالنور والنار. كان بريقهما يخترق قلبي، فقالت لي وأنا ساهم في عينيها:

- هات باكيت دخان مارلبورو أبيض.

لمّا كدّسَت أشياءها داخل الكيس وهمّت بالرحيل، أوقفتها واضعًا كفي فوق أغراضها وسألتها عن الحساب. فنظرت نحوي بازدراء وقالت:

- أي حساب؟! لا تكون بقالة أبوك.

قلت لها مرتبكًا:

- لا... لكنّ العم أحمد أوصاني بأن لا أعطي شيئًا بالمجان حتى لو كان هذا الشخص من أهل بيته.

غضبَت غضبًا شديدًا وخرجت وهي تتوعدني وتقول:

- سوف ترى نتيجة تصرّفك.

ما هي إلا لحظات حتى تسمّر أمامي درويش «المجعرم». فاجأني من خلف المكتب حتى وقف فوق رأسي والشرّر يتطاير من عينيه، ومدّ كفه الأيسر باتجاه رقبتي وتلّني إلى الأعلى، فوضعت يديّ فوق رأسي متحاشيًا أي صفعة قد تهوي على وجهي، وقال:

- اسمع يا هرّ، إذا جاتك حياة مرة ثانية تعطيها أي شيء تريده ولا تفتح فمك بكلمة.

- خلاص يا درويش، ما يصير خاطرك إلّا طيب.

نزع يده عن رقبتي وأخذ الكيس وقبل أن يخرج قال:

- والله لو عدتها مرة ثانية، لأدفنك هنا في البقالة! ثم خرج.

كنت أراه من خلف الزجاج المُطلّ على الشارع وهو يتّجه إلى سيارته حيث تنتظره حياة بابتسامة امتنان ونظرة نصرٍ توجّهها نحوي، ثم مضيا معًا وفي قلبي تختلطُ مشاعر الخوف والحيرة والدهشة.

كنتُ أقف متصلبًا ممتقع اللون باهت الوجه، تَرتعشُ أطراف جسمي، ويجتاح قلبي وجيب لا يهدأ. شعرتُ بأنّني أختنقُ في هذا المكان عاجزٌ عن التنفّس.

ما إن ذهب «المجعرم» حتى دخل عليَّ إسماعيل «الدغريشي» والسيجارة معلقة بطرف شفتيه. قطّب جبينه وقال لي:

- ما الذي أراده منك درويش؟

ارتميت فوق الكرسي غير مستوعبٍ ما حدث وقلت له مندهشًا:
- شفت مين اللي معاه؟
فأجابني ببرود:
- أيوه... القـ... حياة.
من ردّه فهمت أنه يعرف ما لا أعرف. فقلت له:
- وهل تعرف ذلك من قبل؟
مجّ سيجارته فيما كنتُ أحدق في شاربه الكثّ، وقال:
- نعم أعرف. هل تظنّ أنّ درويش يقدّم خدمات لوجه الله؟
- غريبة...! كنت أتوقّع منها تصرّفات لا ترضي العم أحمد. لكن ما وجدَت غير درويش «المجعرم»؟
ضحك إسماعيل حتى بانت أسنانه التي تعفّنت بجير السجائر:
- درويش يا حبيبي، موفّر لها الجو اللي تبغاه: الأمان والإدمان.
- ماذا تقصد؟ هل يعقل أنها...؟
ضحك في قهقهةٍ متواصلة وبصوت عالٍ:
- نعم يا صديقي... كل ليلة تحشش معه في شقته.
ثم أردف مخفضًا صوته يحذرني بقلب صديق مخلص:
- اسمع يا هرّ لا تتدخل في شؤون غيرك، ولا تفتح فمك بكلمه وخليك في لقمة عيشك.

تتسلل إلى ذهني صورة حياة التي كانت تهزّ ردفيها عمدًا أثناء مشيها، وكأنها تريد أن تجذب الرجال وتزيد من سعارهم؟ فقد كانت تشدّ عباءتها حول خصرها كي تبرز مؤخرتها الممتلئة، وكلما مالت بردفيها، تميل معها نظرات الرجال. كانت تعرف جيدًا كيف تجعل من نفسها أنثى تثير شهوة كل الشباب في الحارة، ثمّ اختارت الشخص الذي وفّر لها الحماية ولبّى رغباتها.

قضينا تلك الليلة في الحديث عن سرّ درويش وحياة، ومتى بدأت حكايتهما، وكيف توطدت هذه العلاقة. لكن لا شيء يدوم في العتمة في حيّنا هذا.

6

لا أحد في حارتنا يستطيع مجابهة درويش الذي أمضى سنوات عديدة من شبابه داخل السجن في قضايا متعددة، فهو وحشٌ تتغذى روحه على الإجرام. وهو سيلجأ بشتى الطرق مهما كانت وعرة ومخيفة ومحرَّمة كي ينتصر على مَنْ يتحدّاه.

هذا «المجعرم» عاش في حاراتٍ لا يجرؤ أحد أن يمشي بمحاذاتها، فكيف بمن يخترق أعماقها، ويسيرُ في أزقتها ليلًا، ويعرف خفاياها؟! أماكن مظلمة ومخيفة تعجُّ بالرذيلة وبائعي المخدرات، يقطنها أفارقةٌ مجهولو الهوية يقتاتون على صناعة المُسكِر والمخدرات وبيوت الدعارة، وهي حارات شهيرة في جنوب جدة.

الآن فهمت لماذا اختارني لهذه المهمة كبائع في بقالة العم أحمد، وأجبرني على العمل في هذه البقالة تحديدًا.

يبدو أنّني الشخص المناسب للعملِ في مكانٍ كهذا، شاب يتيم معدم وفقير، بلا سنَدٍ أو قوة عضليّة تحميه في هذه الغابة التي تقوم على الصراع بين القوي والضعيف، وتعيش فيها وحوش ضارية تفترس بعضها البعض من أجلِ أن تأكل وتتغذى.

مضى زمن طويل، ونسيت ما حدث بين درويش وحياة إلّا أنّ حزنًا عميقًا ظلّ في داخلي كلمّا نظرت في عينيّ العم أحمد الذي لا يدري ماذا يحاك له في الخفاء، أتألم في كُل لحظة يحنو عليّ فيها هذا الرجل العجوز بكلماته الدافئة الرحيمة.

أحسست بأنّني شريكٌ في الإثم جراء سكوتي، ولكنّني سألتُ نفسي: ماذا لو أخبرته بالأمر؛ هل يستطيع أن يفعل شيئًا؟ على العكس تمامًا رُبما أزيد من ألمه وحزنه ومعاناته، أضف إلى ذلك أنه لن يقدر على مواجهة

درويش. هكذا كنت أراجع حيثيات إبلاغ العم أحمد في مخيلتي، فقررت أن أدفن تلك القصة في صندوق الكتمان.

كنت أعلم أن ابنته حياة منذ طفولتها كانت فتاة شقية على عكس أختها فاطمة الهادئة والخجولة. وكانت متمردة إلى أبعد حدٍ في مراهقتها ولا تتورع عن إطلاق لسانها الطويل بلا حياء بالسب والشتم مع شباب الحارة، لكنّني لم أتوقع يومًا أن تصل إلى هذه المرحلة من الضياع والتفلت في الأخلاق ومع من؟! مع درويش...!

تكرر ما حدث لي مع حياة، وصارت دائمًا، وتحديدًا في أوقات متأخرة من الليل، تدلف إلى البقالة وتأخذ ما تشاء بغير حساب. وكنت عاجزًا عن فعل أي شيء خوفًا من رؤية درويش مرة أخرى وهو ما لا أريده أبدًا.

تجاوزت هذه الفتاة حدودها حتى وصل بها الحال أنّ تمدّ يدها إلى مال أبيها، فلم تعد تكتفي بلملمة بعض الأغراض البسيطة من البقالة، بل جاءت ذات مرة وقالت لي:

- أعطني مائة ريال.

قلت لها وأنا أرتجف خوفًا وغضبًا:

- لا أملك هذا المبلغ.

ضحكت ساخرة:

- أنا ما قلت أعطيني من جيبك، بل من فلوس أبي.

- أعلم ذلك... ولكن العم أحمد قبل ما يروح يأخذ النقود كلها.

تقدمت نحوي مثل ذئبة ثم دارت حولي حتى اخترق عطرها أنفاسي، ومدت يدها إلى الدرج فأخذت كل ما فيه وخرجت.

لم أكن أجرؤ على فعل أي شيء، فوجه درويش لا يبرح مخيلتي في كل مرة تسرق فيها حياة ما يُبقيه العم أحمد في ذلك الدرج من مال. فكرت غير مرةٍ أن أقفُ في وجهها، وكلما عزمت أمري على صدّها

تذكرتُ ما قاله لي إسماعيل «لا تتدخل في الموضوع وانشغل بلقمة عيشك»، فأتراجع وفي نفسي حسرة على ضعفي وعجزي.

كنت على يقين بأن العم أحمد سيكتشف أمر تلك النقود التي تختفي فجأة بلا مبرر، فقد اعتاد في كل ليلةٍ أن يُبقي في الدرج مائتي ريال فكّة لليوم التالي. ولأنني لا أشتري أي شيء للبقالة، كان يلاحظ ذلك النقص، ومع ذلك يتغاضى عن الأمر، ولا أدري لماذا؟! مع أنني أرى امتعاض وجهه في كل مرةٍ يراجع فيها ما في الدرج، وأقول لنفسي متى سيسألني عن ذلك المال الذي ازدادت وتيرة نقصانه في الآونة الأخيرة.

مرت الأيام من دون أي تغيير، أعيش بنفس الروتين الذي اعتدت عليه! حتى جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها. فأحيانًا لا تصدمنا المواقف بقدر ما يصدمنا من قاموا بها! وهذا ما جعلني أعيش صدمةً قوية هوت على رأسي مثل ضربة فأس.

حدث ذلك حينما جاء العم أحمد في آخر يوم من شهرٍ من شهور السنة -فأنا لا أدري كم من العمر قضيته في هذه البَقالة- وكانت الساعة الخامسة مساء. جاء بوجهٍ مُغتمّ وفي عينيه بريقُ حزن، وهو يحاول أن يتحاشى النظر إلى وجهي. حين دخل البقالة نهضت من مكاني لأفسح له المجال كي يجلس خلف المكتب. لكنه بقي واقفًا مطأطئًا رأسه منكفئًا على نفسه. أدخل يده في جيبه وأخرج الستمائة ريال وراح يَعدّها لأكثرِ من مرة بيدٍ مرتعشة. كان في فمهِ كلامٌ كثير فضّلَ ألّا يبوح به، وبعد أن أطلق آهةٍ جاءت عميقة ومؤلمة، قال لي:

- خذ يا ولدي راتبك، ولا أريد أن أراك هنا مرة أخرى.

فكّرت أن أسأله عن السبب، لكن الخيبة التي رأيتها في عينيه كانت كافية لأعرف، وطالما أنّني عاجزٌ عن الإفصاح فضّلت أن أصمت، وخرجت. ما كان يؤلمني حقًا هو أنني خرجت مُتهَمًا بالسرقة، من دون

أن أدافع عن حقي وعن اسمي وعن كرامتي كإنسان مظلوم لا علاقة له بما حصل.

عبرت فوق تلك الدكة التي لطالما شاهدته يقضي الليالي فيها يتسامر مع رفقائه، خطوت بضع خطوات في ذلك الشارع الذي احتضن أيامي بكل ما فيها من فرح وحزن. الشارع الذي غبت عنه وعن دكاكه طويلًا منذ أن عملت في هذه البقالة.

أحسستُ بالخيبة والضعف وقررت أن أعود إليه لأخبره بالحقيقة، لأنني لا أريد أن يُفتضح أمري بهذه التهمة الجائرة التي قد تضرّ حتى بسمعة عمي سالم. قفلتُ راجعًا حتى وضعت كفي على مقبض الباب، ولكنني تراجعت. قلت لنفسي وما الفائدة من ذلك؟ هو سيتألم من افتضاح أمر ابنته، وأنا سأتلقى عقابًا لا أعرف كيف سيكون من درويش.

هربت إلى المكان الوحيد الذي ترتاح فيه نفسي، إلى الملعب الكبير الممتد بمحاذاة كوبري الميناء، ملعب الحارة الذي عشتُ فيه أجمل أيام حياتي. وصلت إلى الملعب أمشي بخطوات مترنّحة نحو تلك المرتبة الممزقة المرمية في جانبٍ منه، وجلست مسندًا ظهري، ممددًا ساقيَّ، غارقًا في أفكاري وأنا أسمع ضحكات شباب الحارة وهم يرحّبون بي بشيء من السخرية.

أسئلة كثيرة تطرق رأسي بعنف عمّا سيحدث لي!

أيّ ثمنٍ سأدفعه إذا اعتبر درويش أنني هربت؟ وكيف سأقنع ياسين بأنّ يمهلنيَ مرة أخرى ريثما أجد عملًا آخر.

7

لم ألتفت لسخرية أبناء حارتي. كانت روحي هائمة في فضاءات الحزن، أتجرع في داخلي مرارة الألم بغصةٍ تلجم رغبتي بالبوح حتى ضاقت بي نفسي. صحوت من شرودي على صوتٍ مألوف:

- يا «هرّ».

إذا بإسماعيل «الدغريشي» داخل سيارته الدباب، يؤشر بيده ويضغطُ بوق السيارة بشكلٍ مزعج يحثني على القدوم بسرعة. لكنني كنت مثل حجر ثقيل لا أحد يستطيع حمله من شدة الفتور الذي أصاب جسمي.

نهضتُ بصعوبة بالغة متجهًا نحوه، حتى توقفت بجانب الباب الأيمن مُدخلًا رأسي في فراغ النافذة، أحدق في وجهه بعينين تشيان بالأسى، فقال لي:

- اركب معي أريدك في شيء؟

علمتُ أنه سيحدّثني عمّا جرى لي، وإلا كيف تنبّأ أنني هنا في الملعب وليس في البقالة. لا بد أنه عرج على المحلِّ أولًا فأخبره العم أحمد بما حدث، فجاء يبحث عني في المكان الوحيد الذي يعرف أنني أحبه.

ركبت معه والصمتُ يلفّنا حتى خرج بسيارته من حي غليل متجهًا إلى النزلة اليمانية وهي من أشهر أحياء جنوب جدة. أدخل يده في جيبه وسحب منه «باكيت» دخانه المارلبورو الأحمر واستّل سيجارة وأشعلها، وبعد أن نفث تلك السحبة الأولى قال لي:

- كنت عارف يا يوسف أن الموضوع سوف ينكشف، لا بدّ أن العم أحمد كان يحسب الفلوس ويعرف الداخل والخارج، لكن أنا بسألك ماذا حصل بالضبط؟

- لا شيء، أعطاني الراتب وقال لي: توكل على الله.

- هكذا من غير إحم ولا دستور؟
- نعم.
نظر نحوي بتعجب وحيرة:
- يعني ما سألك عن أي شيء؟
- لا.
- ولا أخبرته أنت بأي شيء؟
- لا.
ربَّت على كتفي وهو يشعر بالرضا عمّا قمتُ به:
- سوف يعوّضك الله خيرًا يا صديقي، أنت شهم لأنك ما فضحت بنت الناس.
- هذا ما جعلني أخرج من عنده أحمل وزر اتهامي بالسرقة.
لم يكن يقلق إسماعيل لأمري بقدر ما كانت تقلقه فضيحة حياة وما قد تسبّبه لأبيها. هذه المروءة كثيرًا ما يتحلى بها الصغير قبل الكبير تجاه أي فتاة تنتمي إلى حارتنا حتى وإن كانت متمردة، أو فتاة لَعوب.
قضيت معه اليوم كله متنقلًا بين الأحياء والمحلات يشتري البضائع ويقوم بتعبئة أنابيب الغاز حتى استقر بنا المطاف في المطعم الذي يعمل فيه. دعاني إلى عشاءٍ فاخر ومتنوع من الأكلات اليمنية الشهيرة، فقدم لي طبق «لحسة» وهو عبارة عن بيض مع الجبنة السائلة وطبق آخر من التونة المطبوخة ثم أخيرًا طبق «معصوب» مع الشاي العدني الفاخر.
تحدثنا كثيرًا عن احتمالات ما قد يحدث في قابل الأيام، وحذّرني من التصادم مع درويش «المجعرم» فهو إنسان مجبول على الإجرام وليس لديه ما يخسره في هذه الحياة. ودعاني لأن أتحاشاه قدر استطاعتي. فهو ليس بالرجل المغفل، بل على العكس يختار ضحاياه. وأخبرني أنه جمع أموالًا من أعماله الإجرامية، وهو عدا ما يجنيه من الحمايات لبعض التجّار وأصحاب المصالح، يمتلك محلًا لتصليح السيارات في شرق

جدة، وأكثر من بسطة في البلد يبيع فيها الخردوات والألعاب وغيرها. وعلى الرغم من البحبوحة التي يعيشها فإنّ سلوكه ظلّ سلوكًا إجراميًا.

خلال عودتي إلى «عُزبة» ياسين كنت أفكرُ كثيرًا بطريقة للخروج من هذا المأزق الجديد، فلم أجد غير الصدقِ سبيلًا لذلك، لكنني مع ذلك سأحتفظ بسرّ حياة وسأكتفي بأن العم أحمد قد أعفاني من العمل لسبب لم يقله، وأنني سأبحث عن عمل جديد في أسرع وقت.

ياسين لم يتغير كثيرًا فهو على حاله منذ أن عرفته، يقضي أيامه على وتيرة واحدة، بائسًا منعزلًا عن الناس، لا يشغله غير حلم الهجرة والهروب من هذا المكان إلى أرض بعيدة تقطع كل ما يمتُّ لماضيه بصِلة.

أعطيته القسط الشهري وأخبرته بما جرى، فلم يَتَمعّر وجهه، بل كان هادئًا جدًا وأبدى لي تعاطفًا لا يخلو من التصنّع وقال:

- المهم يا يوسف تدوّر على شغل من بكرة.

- إن شاء الله.

قال عبارته بنبرةٍ فيها تشكيك، وعاد ليتابع الفيلم الذي كان يشاهده.

لم أنم في تلك الليلة إلا بصعوبة بالغة، كانت عيناي تحدّقان في شاشة التلفاز لكن عقلي يفكر بالمجهول الذي ينتظرني.

غفوت حتى وقتٍ متأخّر من اليوم التالي، ولم أنتبه إلّا وياسين فوق رأسي يدفعني إلى النهوض ويخبرني أنّها الساعة الخامسة مساء. وثبت على عجل وأنا أرى ملامح الغضب في عينيه. وكانت المرة الأولى التي يوقظني فيها من نومي، وكان واضحًا لي سبب ذلك.

خرجت هائمًا على وجهي لا أدري إلى أين أذهب؟ بدا لي أنّ كل شيء حولي ساكن وكأنني أمشي في مقبرة. حين وصلت إلى ناصية شارع زينل من جهة الشمال، اتجهت يمينًا وسرت بمحاذاة الملعب حيث كان أبناء حارتي يلعبون كرة القدم، جلتُ ببصري نحوهم للحظات ثم تجاوزتهم

وكأن هذا المكان لم يعد يعنيني، وواصلت الهرب سيرًا نحو الشرق حتى بلغت سوق «الأهدل».

انغمست بين الأجساد المتزاحمة داخل السوق، أجوب ببصري عبثًا في وجوههم، أراقب سحناتهم وأرسم لكل سحنة حكاية أتخيلها، لكن لا أجد وجهًا بائسًا بقدر وجهي.

كنت أملك مالًا في جيبي، ففكرت أن أبتاع لي قميصًا جديدًا مع جينز أتباهى بهما أمام أهل الحي، فقد نسيت متى آخر مرة اشتريت فيها ملابس جديدة، وبالفعل تجوّلت بين ممرّات السوق باحثًا عن محلات الأزياء الرجالية. اخترت أرخص شيء وقعت عليه عيني، لكن مع ذلك كنت سعيدًا في تلك اللحظة. سعيد بأنني كافأت نفسي، وبأنني نزعت عني ثوب التعاسة والفقر ولو إلى حين.

اتجهت بعد ذلك إلى «كُشك» أعرفه يقع في طرف السوق، إذ كنت جائعًا جدًا، فمنذ أن صحوت إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل لم تستقبل معدتي لقمة تُقيم صلبي، فطلبت ساندوتش كبدة وعصيرًا باردًا. تنحّيت جانبًا وجلست على درج كبير يفضي إلى ساحات السوق الداخلية، مستمتعًا بطعم الكبدة مع العصير.

لكن هذا الشعور راح يتلاشى عندما رحت أسترجع ما حصل معي والمخاطر التي تتهددني إن لم أجد عملًا بسرعة. بقيت وحيدًا كئيبًا ساخطًا على هذه الحياة بقلب يعتلج من شدة الحزن والهم، إلى أن تناهى إلى سمعي صوت اصطكاك أبواب المحلات. حملت نفسي وقفلت راجعًا تسيطر عليّ حالة من الضياع ولا شيء غير الضياع، أو بصورة أدق كنت عائدًا إلى المجهول!

في طريق عودتي التقيتُ بإسماعيل، فصرخ بأعلى صوته:

- أين أنت يا «هرّ»، دوّختني وأنا ألفّ الشوارع بحثًا عنك.

ما كنت أحتاج لأجيبه، آيات الحزن التي ترتسم على وجهي يعرفها إسماعيل من نظرة. طلب مني الجلوس بجانبه داخل الدباب، وأرخى صوت المسجلة التي كانت تصدح بالمواويل الينبعاويه. بعد قليل أخفض الصوت وأدار وجهه نحوي وقال:

- تبدو متعبًا وقد تأخر الوقت هيا نذهب.

- موضوع إيجاد عمل يُنهكني.

- أعرف. لا تهتم يا «هرّ» غدًا في الليل نذهب معًا إلى مقهى أعرف يمنيين يشتغلون فيه، وإن شاء الله ندبر لك عمل هناك.

قلت له مستغربًا:

- كيف أعمل في مقهى وأنا بالكاد أعرف كيف أصنع كاسة شاي.

ضحك من كلامي وقال:

- لن تقوم بأي شيء! أنت ستصبح «معلم شيشه»، يعني تباشر على الزبائن وتقدم معسَّلات وتولّع الفحم.

قابلت حديثه بالاستهجان وقلت بسخرية:

- هل أنت جاد في ما تقول! أوَتكلمني من كل عقلك؟!

- نعم أنا جاد، وهذا أفضل من الحالة التي أنت فيها.

رفضت وبشدة وقلت:

- مستحيل أن أعمل في مقهى! وتريدني أيضًا معلم شيشه ومعسَّلات!!

رأيت انعقاد حاجبيه، وراح يتحدث بصرامة وكأنه مسؤول عني:

- هل لديك بديلٌ آخر؟ والله يا يوسف بوضعك هذا لن تجد حتى فرصة أن تكون حارس «صندقة حمام». على كل حال نذهب معًا وترى بنفسك. موعدنا غدًا في الملعب عند الساعة السابعة مساءً لنذهب إلى المقهى وبعدها احكم أنت وقرر.

حين ترك لي مساحة الاختيار بعد أن أعاين المقهى وطريقة العمل فيه، استجبت على مضض وأنا أشكّ بأنني قد أوافق على هكذا عمل!

الفصل الرابع

حين يختنق العالم بالسواد،
يكفي وميض صغير ليوقظ الحياة

1

عند الساعة السابعة من مساء اليوم التالي، كنت أنتظر إسماعيل على تلك «المرتبة» المُلقاة على طرف الملعب. وجاء في الموعد المحدد، فنهضت بتثاقل متوجّهًا نحوه.

ذهبنا إلى مكان لا يبعد كثيرًا عن «حي غليل». تفاجأت بوقوف إسماعيل بجانب ذلك الكازينو الرابض خلف سوق «الأهدل»، الكازينو الذي كنت أنظر إليه دائمًا في كل مرة أمرّ بجواره كمكانٍ ليس لمن هم مثلي، ولم يخطر لي على بال أنني قد أعمل فيه يومًا.

قلت لإسماعيل بخوف وتوتر:

– ما وجدت غير هذا الكازينو، تُريد لكل سكان غليل أن يعرفوا أنّني صبي مقهى؟

أطلق ضحكة مدوية وهو يقول مازحًا:

– من أنت حتى يهتم لأمرك كل سكان حي غليل؟! انزل بس.

يبدو أنه كان صادقًا في ما قال! فمن أنا حتى يهتمون لي، لست إلا رجلًا فقيرًا دميم الوجه، وما أكثر مَن هم على شاكلتي في تلك الأحياء.

نزلت أجرّ قدميَّ بخطى واهنة كأن هناك من يقودني إلى حتفي، دلفنا عبر بوابة كبيرة تفضي إلى حَوشٍ واسع مليء بجلسات مربعة مبنية بالطوب الأبيض داخلها فُرش متسخة، مليئةٌ بالبقع السوداء من أثار تساقط الفحم، وعلى أطراف كل جلسة مساند تمزّقت حتى خرج منها القطن المحشو بداخلها.

كانت هذه الجلسات مكتظة بالزبائن الذين أدمنوا «الشيشة» أو «المعسَّل»، أشحت ببصري عنهم حتى لا تقع عيني على شخص يعرفني، وتبعتُ إسماعيل حتى عبرنا ممرًا ضيقًا ينتهي بحجرة مليئة بالمعسلات، وأخرى صغيرة يتطايرُ منها شرر الفحم.

كل الوجوه التي صادفناها كانت من الجالية اليمنية وقليلٌ جدًا من الإثيوبيين الذين عرفتهم من لهجتهم، فهم يعيشون معنا، وبيننا لغة مشتركة، هي لغة الفقرِ والحاجة، بإمكاني أن أميّز الصومالي من الإثيوبي من بقية الأفارقة بمجرّد أن يتكلم.

كان إسماعيل كلما صادف أحدًا سأله عن شُعيب. بدا لي أنّ شعيب هذا هو من سيتولى أمري في هذا المقهى، عدنا أدراجنا عبر تلك الممرات بعد أن تبين أنّه غير موجود في تلك الزوايا المعتمة التي تضوع منها رائحة الدخان ونكهات المعسلات.

كنت أسير خلفه حتى انفرجت أمامنا باحة المقهى، أو الكازينو كما هو مكتوب على يافطته بشكل كبير وواضح، فإذا بشعيب هذا يتوسط إحدى الجلسات مشغولًا بالحديث مع الزبائن، يتبادل معهم الضحكات بصوتٍ مرتفع يدلّ على مكانته في المكان.

لم يشأ إسماعيل أن يناديه باسمه فتسمّرنا في مكاننا بانتظار أن يلتفت إلينا. كان منهمكًا في الحديث، لكنه بين فينة وأخرى يتلفّت يمنةً ويسرة مراقبًا المكان حتى وقعت عيناه علينا، فابتسم لإسماعيل وأشار بيده أن ينتظره قليلًا. وما هي إلّا دقائق حتى أقبل علينا.

كان شعيب هذا قصير القامة، يمنيَّ الجنسية، وجهه عريض وفي عينيه نظرة ذكاء، وله شارب كثّ يغطي فمه الذي تحيط به هالة سواد من أثر الدخان، ويعصب رأسه بعمامة حمراء. كان في بداية عقده الخامس لكن مظهره لا يدل على ذلك، فقد كان يتحرّك بحيوية ويتنقّل بخطى سريعة.

صافح إسماعيل بحرارة وسأله عن أخباره وأحواله ودار بينهما حديث فيه مجاملة ومودّة. ثمّ أشار إسماعيل بيده نحوي وقال له:

- هذا يوسف الذي أخبرتك عنه، أريدك أن تهتم به وتضعه تحت رعايتك.

تأملني قليلًا وفي عينيه أسئلة كنت أشعر بها، وقال:

- لا تشغل بالك سأقوم بالواجب وأكثر، المهم أن يساعدنا هو أيضًا في العمل.

تبسّم إسماعيل في ثقة وقال:

- من هذه الناحية أنا أضمن لك هذا.

ردّ شعيب بابتسامةٍ مماثلة، وقال:

- هل أخبرته بالأجر وطريقة العمل.

رمقني إسماعيل بنظرة سريعة وقال:

- نعم...

تفاجأت بما قاله، لأنني لم أكن على علم بشيء، كل ما أخبرني به إسماعيل هو أنني سأعمل في مقهى ولم يذكر لي شيئًا عن الراتب، لكنني لذت بالصمت كعادتي.

حينها التفت شعيب نحوي وقال:

- هل تريد العمل في الصباح أم في المساء؟

رحتُ أجول ببصري نحو الكم الهائل من الرؤوس التي تنفخ دخان الشيشة والمعسل، فخمّنتُ أن فترة المساء يكثر فيها مرتادو المقاهي، فأجبته:

- في الصباح.

قال وهو يصافحني:

- إذًا غدًا عند الساعة السادسة صباحًا تكون متواجدًا هنا.

عاد مرةً أخرى إلى إسماعيل وودعه بحرارة وهو يطمئنه بأن الأمور ستسير على ما يرام.

2

خرج إسماعيل بسيارته الدباب بصعوبة بالغة من بين السيارات التي تطوّق موقف الكازينو من كل جهة. ومنذ لحظة خروجنا من بوابة الكازينو الحديدية الكبيرة التي كانت مفتوحة على مصراعيها، كنت أريد أن أسأل إسماعيل عن الشيء الذي ظلّ يزنّ في أذني وحيّر أمري، وهو مسألة راتبي الذي حُسم أمره من غير علمٍ مني. فقلت له:

- كم راتبي الذي اتفقتما عليه؟

ابتسم في هدوء وظلّ صامتًا. وحينما انعطف مع الدوار الكبير المقابل لسوق الأهدل من ناحية الشمال واتجهنا غربًا حتى صرنا بمحاذاة حي القريات. أخرج «باكيت» دخان واستلَّ سيجارة وأشعلها، وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا قال:

- يا «هرّ» أنت في وضع لا يسمح لك بأن تشترط راتبًا معينًا، فأنت الآن في أمسّ الحاجة إلى المال حتى تُسكت ياسين وإلّا تشرَّدت. ومع ذلك هو راتب أفضل مما كنت تتقاضاه من عملك في بقالة العم أحمد.

كلامه بعث الطمأنينة في نفسي، فسألته:

- لكنك لم تخبرني كم الراتب؟

- 800 ريال.

انفرجت أساريرُ وجهي قليلًا، وشكرته من أعماق قلبي، لأنني سأحصل على خمسمائة ريال لنفسي، وهذا مبلغ سيبقيني سعيدًا طيلة الشهر. تغيّر مزاجي وشعرت بانفراج أسعدني بينما إسماعيل يخترق أحياء جدة الجنوبية من النزلة إلى الهنداوية لينهي أعماله اليومية المكلف بها.

كان إسماعيل مُنشرح الصدر إذ رآني سعيدًا، وكنت أحاول أن أعبّر له عن الامتنان والحب على ما يقوم به دائمًا معي.

حينما يصنع لك إنسان معروفًا يتجاوز حدود ما يمكن أن تتوقعه، لا يكون من السهل أن تعبّر عن امتنانك له، فتلوذ إلى الصمت أو الدموع. كانت كل تلك المشاعر تموج في داخلي، واشتهيت لو أنني أستطيع أن أعبّر عنها.

أنزلني إسماعيل عند ناصية ذلك الزقاق الضيق المؤدي إلى عُزبة ياسين، وقبل أن أغلق باب سيارته نظرت إليه للحظات وقلت له:

- الله يسعدك يا صديقي كما أسعدتني وأدخلت الفرحة على قلبي، هذا جميل لن أنساه لك أبدًا.

ضحك في سخرية تليق بهذا الموقف، وراح يغيّر منحى الحديث بطريقة يلطّف فيها الموقف حتى لا يشعرني بعجزي وقال:

- أنا أخوك يا «هرّ»، وليس بين الإخوة معروف... لكن ما أقول إلا الله يعينني عليك...

ثم أطلق ضحكةً، وضحكت معه على أسلوبه الساخر الذي يهرب إليه عادةً حين يشعر بجدية الموقف وصدق المشاعر.

ياسين لم يتغير أبدًا، متصالح مع نفسه ومع عمله، ومع أحلامه أيضًا. أو بالأصح بقي له حلمٌ واحد: الهجرة، بعد أن انتهت علاقته بـ«حبيبته» المتوهَّمة. هو يُحب نظام حياته ويتعايش معه بسلام، لا يريد المغامرة في أي شيء، ولا التجديد في طريقة عيشه. وكان دائمًا يقول لي: «أنا حُر وأعيش بإرادتي، ولا أريد أن يستعبدني أحد».

لم يتغير شيء في حياته، يعود من عمله فيتمدد يتابع فيلمًا جديدًا ويحلم أن يتقمص دور إحدى شخصياته، مطلقًا خياله في تصور كيف ستكون الحياة لو أنه الآن هناك، يعيش تلك العيشة التي يراها.

ألقيت التحية عليه واتجهت إلى ركني من الغرفة فرميت نفسي مثل صريعٍ هوى في خندق.

منْ دون أن يلتفت نحوي، سألني كعادته اليومية:

- ما أخبارك؟
- وجدتُ عملًا وسأبدأ غدًا صباحًا.
مال بجسمه قليلًا حتى رأيت نصف وجهه وقال:
- هذا خبر جيد... وأين هذا العمل؟
أجبته بكل ثقة:
- في كازينو.
عقد ما بين حاجبيه وتساءل:
- كازينو؟ ماذا تقصد بكازينو؟
لأول مرة أشعر فيها بأن ياسين يستوقفني مندهشًا لأمرٍ يخصّني، فقلت:
- كازينو، أي مقهى للشيشة والمعسَّل.
- وما عملك هناك؟
- لا أعلم، غدًا سيتضح كل شيء.
كنت منزعجًا من إلحاحه، وقد ظهر ذلك في نبرة صوتي وأجوبتي المقتضبة، فصمتَ وعاد لمتابعة فيلمه، وغرقت أنا في أفكاري.

3

عند الساعة الخامسة والنصف فجرًا خرجت أحمل رأسي المثقل بالنوم، لأنني لم أعتد أبدًا أن أصحو في مثل هذا التوقيت، لكنني نهضتُ بصعوبة بالغة أجرُّ عظامي النائمة علّني أصل باكرًا قبل بدء العمل.

فتحت درفة الباب في ترقّب وحذر، أُقلّب بصري يمنةً ويسرة، فلم أر سوى ظلام ذلك الزقاق الطويل، ولم أسمع شيئًا عدا نبضات قلبي. مشيت في تلك العتمة بخطى واهنة، أبحث عن نفسي فلا أجدها، أتحسس جسدي كي أعثر عليه في غياهب ذلك الزقاق المخيف.

حينما أشرفت على ناصية الزقاق توقفت إلى جانبي سيارة ياسين! كان يمشط شعره، ويستمع إلى موسيقى تنبعث من إحدى الإذاعات. بدا العجب على وجهه، وسألني:

- إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت؟!

قلت بشيء من البرود والكسل:

- إلى العمل.

- في هذا الوقت؟!

- نعم.

دعاني للركوب معه، وهو ما أدهشني كثيرًا، فلم يكن ياسين يعاملني بهذه الطريقة من قبل، ولم يحصل أن كان لي شرف الركوب في سيارته. وعندما صرت بجانبه سألني:

- أين مكان عملك؟

- خلف الدوار المقابل لسوق الأهدل.

هز رأسه قليلًا وقال:

- إذًا سأصطحبك إلى عملك كل يوم.

شكرته على هذه البادرة الغريبة التي أثارت في نفسي شكوكًا وتساؤلات عن سبب هذا التحوّل المفاجئ. هل يعقل أن هذا ياسين الذي لم يعاملني يومًا حتى كشريك سكن؟ لا أدري... لكن الأيام كفيلة بأن تسبر أغوار هذا اللغز المحيّر.

أدار محرك السيارة وأنا في صمتٍ تام، أستمع إلى فقراتِ تلك الإذاعة، وخرج صوتُ امرأةٍ دافئ يقطع صمت الطريق وهي تتحدث عن جمالِ الصباح وكيف تُلقي الشمس بأشعتها الذهبية أنوارًا من الأمل والتفاؤل، ثم انسحب صوتها بهدوء لتحل محله موسيقى هادئة جدًا أنصت لها جسدي كله وراح في خدرٍ لذيذ. كانت موسيقى لم أكن أسمعها كثيرًا، ولكن ذلك لم يدم طويلًا فالكازينو كان قريبًا جدًا إذا ما ذهبت إليه بالسيارة.

وصلنا والسماء لا تزال في حالةِ مخاض لم تلد الصباح بعد، فكانت رمادية اللون، وكان السكون يلفّ المكان. لمحتُ بوابة الكازينو الكبيرة فإذا هي على حالها، مفتوحة على مصراعيها. بدا المكان هادئًا جدًا في غياب الأصوات العالية التي كانت تعمّ المكان أمس.

شكرتُ ياسين بابتسامة تفتّقت بصعوبة من وجهي الذابل من النوم واتجهت إلى الكازينو فعبرت البوابة بحذر خشية العيون المتطفّلة التي قد تعرفني فيفتضح أمري. أطرقت برأسي ومشيت بخطى سريعة. باحة الكازينو، التي كانت بالأمس تكتظ بالناس، هي الآن شبه خالية إلا من شخصين كانا في ركن جلسة بعيدة عن بوابة الكازينو.

عبرتُ الممر الضيق الذي كانت أرضيته مرصوصة بالبلاط الأبيض القديم وبداخله بُقع سوداء صغيرة، لأصل إلى تلك الغرف المفتوحة على بعضها، إحداها كالتنور من شدة الحرارة، وهي الغرفة التي يوقد فيها الجمر في موقد كبير على مدار الساعة، والأخرى تتكدس بداخلها «المعسَّلات» بنكهات مختلفة، وكل أنواع وأحجام الشيشة.

في ردهة صغيرة يوجد مغسلة معلقة على جدار متآكل، وفي ذلك المكان المحشور بين رائحة الشيشة ولهب الجمر وجدت عاملين يمنيَّين يجلسان في تلك الردهة وبقايا النوم لا زالت عالقة في عيونهما، فألقيتُ عليهما التحية وسألتهما:

- أين شعيب؟

نظرا إليّ بتذمر وأجابني أحدهما الذي عرفت لاحقًا أن اسمه حمزة:

- شعيب تجده الآن نائمًا في غرفته ولا يصحو إلا عند العاشرة.

ثم سألني: - هل أنت يوسف؟!

- نعم.

أسند ظهره إلى الجدار وارتشف قليلًا من كأسٍ ورقيّ بداخله حليب عدني أو شاي عدني، وقال:

- أخبرَني عنك شعيب، وأمرني أن أُطلعك على العمل المطلوب منك.

- حسنًا.

تسمرتُ واقفًا مثل جندي لا يفارق مكان حراسته، لا أدري ماذا أصنع. فالوقت لا يزال مبكرًا والشمس أشرقت للتوّ وبدأت خيوطها الذهبية الناعمة تغشى المكان.

أعلم أنّني أفسدت خلوتهما، وقطعت حديثهما، وهذا ما كان جليًا في نظرات حمزة الساخرة من تطفّلي ووقوفي بهذه السذاجة بينهما، لكنني مرغمٌ على البقاء معهما في تلك الردهة الخانقة، فأنا لا أعرف أحدًا ولا أعرف المطلوب مني، وفوق ذلك أخشى أن يعرفني أحد.

تناهى إلى سمعي أصوات الزبائن «يا معلم» «يا محمد». وثب حمزة بسرعة وتجاوزني من دون أن يلتفت نحوي. لست أدري لماذا دائمًا يحتقرني الجميع؟ ولكنّني أجزم أنّ مظهري، ووجهي الدميم، وقصرَ قامتي، كان يوحي للناس بأنني لست في مقامٍ يستحقُ الاحترام.

الأدنى يكون أشد قساوةً على من هو أدنى منه. كم مرة عبرت الشارع وتجاوزت عامل نظافة فقير ولم تشعره بأنك تراه حتى ولو كان يبتسم في وجهك.عندما بقيت في مكاني التفت حمزة، وبنظرة متعالية قال:

- الحقني.

تبعته وأنا أحدق في صلعته التي تتوسط رأسه يحفها شعره المجعد الذي يملأ جوانب رأسه بكثافة. بقيت خلفه حتى عندما توقفنا أمام زبون كان متمددًا مثل فقمة. فقال له حمزة:

- طلبك؟

رفع الرجل رأسه وهو يتثاءب وقال:

- تفاحتين وبراد شاي.

عدنا أدراجنا إلى تلك الردهة الملتهبة بالحرارة ودلفنا معًا في غرفة تحوي رؤوسًا صغيرة مغطاة بورق القصدير، وقال لي: «هنا تجد نكهة التفاحتين». فأخذ واحدة منها وراح يبحث عن نرجيلة ثم وضع هذا الرأس الصغير بعناية شديدة في أعلاها وأمسك ما يسمّونه لَيْ ووضع مقدمته بين شفتيه وبدأ يسحب نفسًا عميقًا ويدير بيده ذلك الرأس كأنه يضبط الرأس بشكل دقيق، وبعد أن انتهى قال لي:

- احملها واتبعني.

احتضنتها وسرت خلفه، فأشار بيده نحو مَنقلٍ صغير يُشبه السلة بداخله جمرٌ متقد وطلب مني أن أحمله هو أيضًا. حملته وسرت خلفه حتى انتهينا عند ذلك الزبون، فأخذ النّرجيلة مني ووضعها أمامه، ثم وضع فوق الرأس بضع جمرات وتركناه واتجهنا إلى زبون آخر.

4

بدا لي العمل أبسط مما تخوّفت، كل ما في الأمر هو أن أحمل النرجيلة وأضعها بجانب الزبون مع بضع جمرات أصفّها فوق رأس المعسل أو الشيشة ثم أتجه إلى آخر وأكرر ما قمت به.

حين توسطت الشمس كبد السماء وتلظت بحرارتها أحشاء الأرض، هرب المرتادون إلى الغرف الداخلية، وكانت رديئة هي الأخرى، بداخلها فرش نصف محترقة، ومساند مهترئة، وروائح التبغ والشيشة تعبق في أرجائها.

مع ارتفاع وتيرة العمل، خرج علينا شعيب بقامته القصيرة وصوته يضج في الكازينو، ينادي بأسمائنا. شعرت لوهلة أنه جاءنا مثل عاصفة.

كنت أنا وحمزة نتحرك منهمكين في تلبية الطلبات، عندما تناهى إلى سمعي عبارات شتم وتعليقات ساخرة من هذا المدعو شعيب، أحسست بأنه يشتمني أنا ولكنني لست متأكدًا، فكلما عبرت بمحاذاته وأنا أحمل بيدي نرجيلة أسمع له بَرطمةً فيها شيء من التهكم.

لست أدري من أين خرج هذا المعتوه؟ كأنه انبثق من تحت الأرض فجأة. كنت أتحاشى النظر في عينيه حتى لا يصدق ظني بأنه يهينني، فأخادع نفسي المضطربة. إنه لشعور مخزٍ أن أعلم بأنه يسخر مني فأتعمّد تجاهل الأمر.

مع مرور الوقت بدأت أنتبه لاحتقار الزبائن أيضًا من خلال نظراتهم وهم يرونني أتخبط في إنزال النرجيلة، وأُسقط الجمر على الأرض، بل كان بينهم من يهينني بطريقة لبقة! كأن يقول: «نادِ على حمزة ولا تلمس شيئًا». وأنا أصرخ باسم حمزة حتى اشتاط غضبًا هو الآخر وقال لي وهو يموج في غضبه:

- أنت لا تجيد شيئًا، ما الذي رماكَ علينا؟

يزداد شعوري بالذلّ، لكن ألوذ بصمتي.

كنت في تلك الردهة التي تغلي وتزداد ظلمة وجحيمًا، فقد تحولت إلى فوهة من نار بسبب حرارة الشمس وحرارة المكان، عندما أطلّ شعيب والشرر يتطاير من عينيه. من مشيته السريعة متجهًا نحوي عرفت أنه سيصب جام غضبه في وجهي مباشرة. وحين تسمّر أمامي، وكان بطولي تمامًا، قال لي:

- أنت خيبت ظني، فالزبائن يشتكون منك، وحمزة أيضًا غاضب منك. يبدو أن إسماعيل قد استغفلني حين قال لي بأنك كفء لهذه الوظيفة. فإما أن تنتبه لعملك أو لا تأتي بعد هذا اليوم.

كنت مطأطئًا رأسي وأنا أنصتُ لتوبيخه. ثم قلت له بصوتٍ مرتجف:

- أريدك أن تمنحني وقتًا يا عم شعيب فهذه هي المرة الأولى التي أعمل فيها في مقهى وأحتاج أن تمهلني حتى أتعلم وأعتاد.

أشاح بوجهه عني وكأنه لا يطيق النظر في وجهي الدميم الذي يتصبب عرقًا وقال:

- هذا المكان ليس للتعليم ولا هو حقل للتجارب. ومع ذلك، من أجل إسماعيل، سوف أمنحك أسبوعًا... أسبوعًا واحدًا فقط.

شكرته على هذه المنحة العظيمة للبقاء في هذا المكان الوضيع! وقبل أن يدير ظهره ناديته، فالتفت بوجهٍ تعلوه ملامح الاشمئزاز. وقلت له:

- دعني في البداية أرافق حمزة لأرى كيف يقوم بالعمل حتى لا أكرر أخطائي.

فأجابني بتذمر وبكلمة واحدة:

- اليوم فقط.

ثم أدار ظهره موزّعًا صرخاته في كل مكان.

بحثت عن حمزة واتجهت إلى الزاوية المعتمة التي تفوح برائحة

الجمر والشيشة لدرجة أنّ رأسي كاد ينفجر من الصداع الذي ألمَّ به، فلم أجدهُ هناك. عدت أدراجي إلى ساحة الكازينو وكانت الشمس في أوجِ غضبها والرطوبة تغسل جسدي ورائحتي كريهة، مسحتُ المكان ببصري فلم أرهُ هناك أيضًا، عندئذٍ توجهت إلى الغرف الداخلية وبدأت أتفحصها غرفة غرفة حتى عثرتُ عليه يقهقه مع أحد الزبائن واتضح لي أنّ حمزةَ هذا تربطه علاقة ودودة بكثير من رواد الكازينو.

انتظرته وأنا أقف بعيدًا عنهم مثل جذع نخلة. ومع أنّ حمزة رآني، وكان يعرف أنني أنتظره، لم يعِرني أيَّ انتباه، بل أوغل في إذلالي حين تركني هكذا على هذه الحال التي تُثير الشفقة. لست أدري ما سرّ هذا العداء الذي أراه وأشعر به في نظراته وتعامله معي في يومي الأول داخل هذا المكان الموبوء.

حين أدرك أنني لن أتزحزح خرج من الغرفة، التفت نحوي بنظرات يملؤها الاستخفاف، وقال:

- ماذا عندك؟

أجبته بصوتٍ مرتجف:

- شعيب أرسلني إليك.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

برطم وهو يسير: - الله يعدّي هذا اليوم على خير.

لحقت به إلى أن توسَّطنا ساحة الكازينو. ارتفع أذان الظهر وكنت جائعًا وعطِشًا وأنا أركض خلف حمزة الذي يتأفف ولا يلتفت نحوي.

سألني: - ما الذي تريده منّي؟

قلت له في خوف أضمره في نفسي وأحاول جاهدًا ألّا أبديه:

- شعيب أرسلني إليك كي تعلّمني طريقة العمل.

أجاب ساخرًا:

- ليس هناك ما يحتاج إلى تعلّم، لكأنّني سوف أكشف لك عن سرٍّ خطير.

قال كلماته وعلى شفته ابتسامة سخرية.

قلت له:

- اليوم فقط.

ردّ عليّ ضاحكًا:

- اسمعني، هذا لا يحتاج إلى ذكاء فوق العادة، كل ما هنالك حمل النرجيلة والفحم فقط. أين الصعوبة في الأمر؟

قلت:

- لكن بعض الزبائن يطلبون مني أشياء لا أستطيع القيام بها.

- مثل ماذا؟

- هناك من يطلب مني أشيّش؟

قال مستغربًا:

- ماذا تقصد؟

- عندما أضع النرجيلة بجانبه وأرصّ الفحم فوق رأسها يطلب مني أشيّش أولًا، وأنا لا أشيّش ولا أدخّن.

ضحك بصوت عالٍ، وقال:

- فهمت، نعم هناك من الزبائن من يريد منّا أن نسلّك الشيشة ونضبط «الرأس» للتأكد من أن ليس فيها تنفيس ولا انسداد.

فقلت:

- ما الحل إذًا؟

- قل له إنك لا تستطيع، أو إنك لا «تُعسّل».

حاول أن يتخلّص من مرافقتي له، ولكنّني رجوته بإلحاح أن أظل بجانبه هذا اليوم فقط.

احتقن وجهه ودُهش من إلحاحي، فهتف مستاءً وهو يحدّق في عيني:

- أعانني الله على هذا اليوم.

5

كان شعيب يقف عند باب الممر الضيق المؤدي إلى ردهة الفحم والنار واللهب. عندما وصلنا إليه قال لحمزة إنه يريد أن يكلمه، وفهمت أنا أنه عليَّ أن أكمل طريقي. لكن شعيب لم ينتظر أن أبتعد، وقال لحمزة كلمات نفذت إلى قلبي كالسهم وتجرّعتها كالسمّ الزعاف. «هذا صَبي جديد ولا بد أن نتحمله قليلًا». وختم عبارته الوقحة بأن ربّت على كتف حمزة.

وقفتُ أمام الجمر مباشرة في تلك الغرفة التي لا باب فيها ولا نوافذ سوى فتحة مربعة صغيرة على أحد جدرانها. كنت في حالة يُرثى لها، فها أنذا منذ أن طُردت من بيت عمي سالم أعيش في صراعٍ دائم بين كبريائي المدفون في أعماقي، وضعفي أمام احتقار الآخرين.

هكذا إذًا، أنا لستُ سوى «صبيّ» في هذا الكازينو، بل أشعر أنني لا شيء... لا شيء، وما يؤلمني أكثر ويزيد من حدة الوجع هو أنني لست قادرًا على استعادة كرامتي والردّ عليه ولو بنظرة إنكار، أو قول كلمة تعيد ترميم نفسي المحطمة.

أُرهقت من شدة التفكير في ضرورة إحداث ردة فعل سريعة تجاه هذا الوقح شعيب حتى لا يتجاوز حدوده مرة أخرى. كنت في حيرة من أمري، إذ ماذا عساي أقول؟ كانت نار الغضب تسري في عروقي وقدماي ترتعشان. إنها اللحظة التي أحس فيها بالخوف والغضب معًا. قررت أن أذهب إليه وأقول له أي شيء، حتى لو تطلب الأمر أن أشتمه وأمضي، ما شعرت به هو أنّ نفسي أبت أن ينتهي الأمر بهذه السهولة.

شحذت همتي واستجمعت قواي، ودفعت نفسي الخائرة أسوقها سوقًا تجاه هذا القصير الذي أهانني، ورحت أبحث عنه وقلبي يخفق بشدة. كم أكره هذا الخوف الذي ينتابني كلما أردت الدفاع عن نفسي!

لم يكن في ساحة الكازينو، فنحن الآن نعيش صيف جدة الحار، والشمس تغلي فوق رؤوسنا. لمحته في إحدى الغرف وقد أزاح تلك العصبة التي يكوّرها فوق رأسه الذي يشبه القُلّه.

حين اقتربت من باب الغرفة المفتوح، والذي تعمّد هو أن يتركه مشرعًا حتى لا يغيب عن ناظره شيء، مراقبًا ساحة الكازينو مثل بومة تقلب عينيها في كل الاتجاهات، هالني منظره المخيف وأنا أحدق في شعره الكث وكأن فوق هامته نبتة رمث. رمقني بنظراته الحادة وهو يمزّ سيجارة بنفس عميق وقال بصوت صارم:

- ماذا تريد؟

ازداد خفقان قلبي وبدأت أناملي ترتعش. كنت عاجزًا عن إطلاق ذلك المارد الذي بداخلي، إنها حالةٌ تصيبني حين أعيش ذلك الصراع الداخلي بين الرغبة في الانتقام ورد الاعتبار والخوف والخور الذي يسكنني، ودائمًا ما تكون الغلبة للخوف والضعف الذي عشت عليه وتصالحت معه، وفي كل مرة أخسر فيها معركة من هذا النوع، أجدني أحتقر نفسي وأكرهها...

تلعثمت قليلًا وقلت بصوتٍ مخنوق:

- أنا جائع... ألا يوجد مطعم هنا؟!

أجابني وهو يقلب أوراقًا أخرجها من جيبيه ونثرها أمامه:

- سوف تفتح كافتيريا الكازينو بعد قليل، واطلب من إبراهيم ما تشاء.

أعلم أنّني ضعيف جدًا ووحيد ومحاصرٌ وفي أمَسّ الحاجة للمال، كل هذه الأمور وغيرها جعلتني قزمًا في غاية الوضاعة. يااااالله، كم هو مؤلم أن تخاطب ذاتك بهذه القسوة، إنني أمزق نفسي، أعاقبها بعنف، ولذلك هانت عند الآخرين.

كنت قد رأيت فتحة مستطيلة في عرض جدار يُطل على ساحة الكازينو وقد تحولت إلى نافذة من زجاج كتب أعلاها كلمة «كافتيريا»

بخط رديء. كانت في الصباح مغلقة لكن عند خروجي إلى فناء الكازينو وجدتها مشرعه ولمحت بداخلها رجلًا طويلًا ممتلئ الجسم، يرتدي جلابية واسعة وعلى رأسه عمامة ملفوفة بالشال الأبيض، عرفت من مظهره أنه مصري وصعيدي أيضًا.

اقتربت من النافذة وحيّيته وأنا أحدق في بشرته الداكنة وعينيه الصغيرتين الضائعتَين في ملامح وجهه الكبير. فقال لي:

- أهلا وسهلًا بالضيف الجديد.

كان ودودًا مبتسمًا شعرت بسكينةٍ في حديثه لي. سألني:

- ماذا تريد يا أستاذ؟

ابتسمت له وقد غمرني شعور بالرضا وقلت:

- أنا يوسف، عامل جديد هنا.

- وأنا بقول الكازينو منوَّر ليه.

ضحكت من تعليقه الطريف وأحسست بأن كلمته جاءت في الوقت المناسب، فمثل هذه الكلمات كفيلة بأن تمسح على آثار الوجع بداخلك بلطف ورقّة.

قلت له:

- النور بوجودك يا عم إبراهيم.

فسألني وهو يرسم ابتسامة خجولة على شفتيه:

- كيف عرفت اسمي؟

- شعيب أخبرني.

استدار ينشغل بوضع أباريق الشاي على النار، وكرّر:

- ماذا تريد يا يوسف؟

أجبته بهدوء:

- غداء.

فقال بلهجته العذبة:

- عِنَيّا الاتنين.

كنت متعبًا جدًا من شدة الوقوف، فجلست تحت النافذة على نحوٍ مثير للشفقة. أعلم أنّني أتحدث عن نفسي بهذه الصورة التراجيدية، ولكنني بالفعل أحسست حينها بأنّني مثير للشفقة.

بعد دقائق سمعت صوته الدافئ الودود وهو يقول:

- تفضل يا عم يوسف.

ومدّ لي صحنًا يحتوي على تونة مطبوخة، ثم سألني إذا كنت أريد مشروبًا معه.

- أي شيء، المهم أن يكون باردًا جدًا.

فأحضر لي مشروبًا غازيًا باردًا وعلبة ماء، ورغيفًا من الخبز. أخذت ما أحضره من يده مثل لاجئ جائع يقتات على صدقات الآخرين.

احترتُ أين سآكل طعامي هذا، لأنّني خشيت أن أدلف إلى إحدى الغرف فأُطرد منها قبل أن أمدّ يدي إلى الطعام، فقررت أن أذهب به إلى الخارج. تجاوزت البوابة الرئيسية وبحثت عن ظلٍ أحتمي فيه من وهج الظهيرة، ورحت آكل بنهمٍ وأنا أتأمل القطط التي بدأت تدنو مني، وتراقبني بحذر شديد.

أنهيت طعامي وعدت بالصحن الذي مسحته مسحًا من شدة جوعي، فوضعته على طرف نافذة الكافتيريا وأنا أُمسح ببصري أرجاء المكان، حيث لاحظت تواتر دخول الزبائن متعجبًا من تزايد أعدادهم في هذا الوقت من الظهيرة، فالحرارة تشوي الأجساد. لكن يبدو أن للشيشة طقوسًا لا أعرفها.

6

كنت شارد الذهن أفكر في الحوار الذي دار بين شعيب وحمزة عندما جاءني صوت العم إبراهيم عذبًا ومتدفقًا بالحب:

- بالعافية يا عم يوسف.

- الله يعافيك يا عم إبراهيم.

شكرته على الطعام، وعلى لباقته وحُسن أخلاقه، فقال:

- لا شكر على واجب، دا شغلي يا حبيبي.

لاحظت بين فينة وأخرى دخول زبائن للكازينو، بل شعرت بأن أعدادهم تزيد، في الوقت الذي كنت أظن أنه ليس من الطبيعي أن يكون هناك مرتادون للكازينو في هذا الوقت تحديدًا.

لطفه جعلني أسترسل في الكلام معه، فسألته:

- كم سنة لك وأنت تعمل هنا؟

ضحك وقال:

- كثير.

- في حدود كم سنة تقريبًا؟

- عشر سنين.

كان يدير لي ظهره غارقًا في العمل بين الأباريق والفناجين والكؤوس وغسل الخضار والفواكه.

صمتُّ قليلًا وأنا أتفحص الكافتيريا من الداخل، كنت أفكّر كيف لرجلٍ في مثل سنّ عمّ إبراهيم أن يتحمّل ساعات الوقوف الطويلة في هذه الكافتيريا؟

بدافع الفضول سألته:

- لم أركَ في الصباح؟

- أنا لا أعمل في الصباح، ودوامي يبدأ من بعد صلاة الظهر.

فقلت له مستغربًا:

- ولماذا لا تأتي مع بداية فترة المساء، عند الساعة الخامسة.

التفت نحوي وابتسم وهو يقول:

- يا ليت يا يوسف ولكن خلال فترة المساء يكون العمل كثيرًا، والزبائن أضعاف ما تراه الآن، هذا يحتم عليَّ أن أجيء مبكرًا لأعدّ العدّة لمعركة المساء.

ضحكنا معًا على تعليقه الساخر، لكنّ الضحكة انطفأت إذ جاءني من ناحية غرفته صوت شعيب غاضبًا، وقال لي:

- ماذا تفعل؟ ألا ترى الزبائن، هيا تحرك واسألهم عن طلباتهم.

- انتفضت في مكاني واتجهت بخطى سريعة نحو ردهة الجحيم باحثًا عن حمزة. لكنه مرَّ حاملًا بيدٍ نرجيلة وبالأخرى منقل الفحم الصغير ولم يكن يلتفت نحوي. حاولت أن أسير بجانبه فسار مسرعًا وعندما حاولت اللحاق به توقف ونظر إليّ بوجه كالح متجهم. فقلت له:

- أريد فقط أن أتعلم منك كيف تقدم الطلب للزبون، وكيف توزّع الفحم وتسلّك عملية السحب. أريد أن أتعلّم منك. ألم يطلب منك شعيب أن تعلّمني؟

تأملني في احتقار شديد، ثم أدار ظهره وقال:

- لا تمشِ معي وابقَ خلفي وانظر ماذا أفعل.

سرتُ أحَدّق في مؤخرته وهي تهتز كأنها مؤخرة دب صغير. لا أدري لماذا هذا الأحمق يعاملني بهذه الطريقة؟ سألت نفسي أكثر من مرة عن سبب هذا العداء الذي يبديه لي هذا البغيض، فأنا منذ أن التقيت به لا أذكر أنني أسأت له بكلمة واحدة.

قررت أن أحسم أمري هذه المرة مهما كلفني ذلك من أذى، أريد أن أشكوه إلى صاحب القرار، أيظن أنه أفضل مني بشيء، إننا في منزلةٍ واحدة ونقوم بالعمل نفسه. لقد تعبت من سلوكه السيئ، ونظراتهِ المليئةِ

بالازدراء تجاهي، يجب الآن أن أضع حدًا لهذه المسرحية السخيفة وأوقفه عند حده.

اتجهت إلى غرفة شعيب، لكنّه لم يهتم لمجيئي واستمر يدقّق النظر في فواتير تتوزّع على طاولة أمامه. قلت له:

- لقد فعلت ما أمرتني به لأتعلّم طريقة العمل ولكن...

لم يرفع رأسه عن فواتيره، وقاطعني:

- ولكن ماذا؟

- لكنّ حمزة رفض ذلك وطردني؟

ترك الأوراق وراح يحدق في عيني بشيء من الريبة وقال:

- حمزة فعل ذلك...!

أجبته بثقة:

- نعم وبإمكانك أن تسأله بنفسك.

صمتُّ للحظات وأنا أرى في ملامحه الشكّ في ما أقول.

بدأ يُلملم الأوراق ثم قام بثنيها على شكل مربعات صغيرة ووضعها في جيبه الأمامي الذي كان يغصّ بأوراق كثيرة، وقال لي:

- سأنظر في الأمر. اخرج أنت الآن.

خرجت من عنده وفي داخلي إحساس بالراحة والسعادة بعد أن أزحت هذا العبء عن قلبي وأخبرت شعيبًا أن حمزة لم يسمع كلامه. كنت راضيًا عن نفسي، لوهلة أحسستُ بأنها المعركة الأولى التي أكون فيها ندًا لأحد.

احترت أين سأذهب في تلك اللحظات. سرتُ مشتت الفكر وسط ساحة الكازينو الملتهبة بحرارة الشمس، لمحتُ العم إبراهيم عبر نافذة الكافتيريا فأسرعت الخطى إليه، فهو الوحيد الذي قد يربت على كتفي ويخفف من ارتفاع وتيرة قلقي.

أحسَّ بأنني قلق وملامحي تشي بأمرٍ قد يحدث الآن، فقال لي:

- ما الأمر يا يوسف؟ أشعر بأن هناكَ مشكلة بينك وبين حمزة.

لم أتفاجأ بأنه يعرف بما يدور بيني وبين حمزة، فهو بطبيعة الحال لا يتلصص علينا، إنما يرى كل ما يحدث من نافذة الكافتيريا المطلة على الساحة.

- نعم هناك مشكلة يا عم إبراهيم.

فقال بهدوء:

- أخبرني.

وقبل أن أجيبه عن سؤاله، رأيت شعيبًا يخرج من تلك الغرفة عاصبًا رأسه بعمامته المرقّطة يجيل ببصره هنا وهناك. ثم أقبل نحوي وقال:

- أين هو حمزة؟

كنت متوترًا جدًا وربما خائفًا أيضًا، فقلت:

- لا أعلم.

ذهب مباشرة عبر الممر الضيق، متجهًا نحو الجُحر الذي يختبئُ فيه العمال، وبينما كان بصري يتوزّع في كل الاتجاهات باضطراب شديد سمعت صوت إبراهيم مرةً أخرى وهو يقول:

- هذا اليوم الأول لك! كيف حدثت بينك وبينه مشكلة؟

جاء سؤاله في صيغة تعجب. لم يكن مستوعبًا أن تحدث لي ورطة في يومي الأول، فقلت له وأنا في حيرة من أمري:

- والله لا أعلم يا عم إبراهيم.

ثم أردفت أقول:

- منذ أن وصلت إلى هنا هذا الصباح، وحمزة هذا لا يطيقني، ويعاملني بازدراء، ومع ذلك تغاضيت. لا أدري ما السبب في تصرّفه. ومع أن شعيب طلب منه أن أرافقه حتى أتعلم العمل، بقي يسخر مني ويعاملني بازدراء لا يمكنني أن أتحمله. فاشتكيت إلى شعيب تصرّفات حمزة.

قال لي مبتسمًا:

- أنا أعلم ما يدور هنا، ويجب عليك أن تتحمل وأن تغضّ الطرف عن كثير من الأمور، بل أن تكون مستعدًا لمواجهة ما هو أصعب من ذلك.

توجّستُ من كلامه هذا فسألته:

- وهل هناك ما هو أصعب؟

لكن قبل أن يتكلم العم إبراهيم جعجعَ صوت شعيب مناديًا باسمي. كان حمزة إلى جانبه، فانطلقت نحوهما وقلبي يزداد خفقانه من مواجهة حمزة في مثل هذا الموقف.

تأملت في سحنته الساكنة فبدا مطمئنًا جدًا، وشعرت بأن شعيب لم يوبخه على عصيانه لأوامره. قال لي شعيب في حزمٍ وصرامة:

- ماذا تريد أن أفعل بك؟

قلت مستغربًا:

- ما الأمر؟

قال بنبرةٍ غاضبة:

- لماذا تكذب وتتهمه وتفتري عليه؟

تلعثم لساني وأنا أقول:

- ماذا.. أنا أكذب، أقسم بالله... أنـ... نـ...

قاطعني حمزة بوجه الثعلب وقال:

- لا تحلف بالله، أنت لم تقل لي أي شيء ولم تطلب مني أي شيء...!

عندما حاولت الدفاع عن نفسي، تدخل شعيب بنبرةٍ قاطعة: اذهب الآن إلى بيتك، ولا تأتي إلا غدًا مساءً عند الساعة الخامسة.

حاولت جاهدًا أن أجعله ينصت لي، وأن لا يتسرع في قراره ولكنه كرّر بطريقة حازمة:

- اذهب الآن.

7

حين أوشكتُ على الخروج من بوابة الكازينو وصرخات القهر تحتبسُ في داخلي، سمعت العم إبراهيم يناديني بصوت خافت. التفتّ ورائي فإذا هو قادمٌ إليّ بقامته الممتلئة، معتمرًا عمامته البيضاء، راسمًا على وجهِه الترابي اللون ابتسامة حنوٍ وفي عينيه نظرات شفقة.

وقف أمامي ووضع يده على كتفي، فتمنيت لو أستطيع أن أحتضنه. لم يسبق أن احتضنني أحدٌ في حياتي. ربما أحمل ذكرى عن حضنٍ في طفولتي، وربما ما زلت أشعر بأنّني طفل.

شعرت بحرارة تلك العاطفة التي تتدفق من عينيه. سألني:

- هل طردك شعيب؟

- لا.

- إذًا ماذا حدث؟

- حمزة ادّعى بأنني أفتري عليه، ويبدو أن شعيب صدّق كلامه. قال لي اذهب الآن ولا تأتي إلا غدًا في المساء عند الساعة الخامسة تمامًا.

قال وهو يربت على كتفي:

- فهمت الآن!

أقلقتني إجابته تلك، فسألته في حيرة:

- عم إبراهيم، من قبل تحدّثتَ عن صعوبات ستواجهني. والآن تقول فهمت. ماذا فهمت؟

- سأخبرك لاحقًا. اذهب الآن.

ذهب وتركني بعد أن علّق في رأسي سؤالًا حائرًا، كأنه دقَّ مسمارًا في جمجمتي ومضى.

خرجت من الكازينو في تلك الظهيرة الحارة وأنا في حالةٍ يُرثى لها

من شدة التعب، لم أكن مجهَدًا جسديًا، بل كنتُ مُثقلًا ومتعبًا بسبب الألم النفسي الذي تعرضت له في هذا اليوم، لم يخطر ببالي أن يمرّ هذا النهار على هذا النحوِ الموجع، كانت ساعاته تمضي بحوافرها الحادة داخل نفسي المتهالكة، ممّا جعلها بطيئة جدًا ومليئة بالنكد والقلق.

يبدو أنّ هذا مسرحًا آخر في حياتي، أمارس فيه كعادتي دور المنبوذ الذي خلعته الحياة بسبب فقره وبشاعة منظره. هذا الدور يليق بي كثيرًا، فأنا المرشح الأول لمثل هذه الأدوار الدرامية.

كنت أفكر في ذلك كله وأنا أمشي على قدميّ ونار الظهيرة تسفعني. أول ما بدا لي من ملامح حارتي كان الملعب الذي احتضن كل ذكرياتي. تمنيت لو أنني أعيد تلك اللحظات الجميلة وأنا أركض فرحًا مع أبناء حارتي، تلك الأيام التي لا يمكن أن أنساها. أشتاق لذلك الزمن الذي كان اسمي يُذكر فيه على كل لسان.

عبرت الزقاق الضيق المفضي إلى عُزبة ياسين، مختنقًا بالروائح النتنة المنبعثة من كل مكان. طرقت الباب بهدوء، ففتح لي ياسين برأسٍ متدلٍ فوق كتفيه، ينظر إليَّ بعينيه الغارقتين في النوم. عاد مرة أخرى ورمى بنفسه فوق فراشه، اتجهت أنا نحو فراشي في ركن الغرفة وتمددت فيه أتقلّب مفكرًا في عبارة العم إبراهيم.

في اليوم التالي كنت أنتظر ياسين عند سيارته، كانت الساعة الرابعة عصرًا، وهو الوقت الذي ينطلق فيه ياسين بعد قيلولته ليجوب أحياء جنوب جدة باحثًا عن الفقراء الذين يجادلون سائقي السيارات الخصوصية من أجل الحصول على أقل الأسعار، وكان ياسين يجيد فن التعامل مع هؤلاء وكأنه يعرفهم منذ سنين.

جاءني متأنقًا كعادته، مبتسمًا، هادئًا. كان يعلم بأنّني في انتظاره، فقد أخبرته بكل ما حدث معي في الكازينو وألحّ هو أن يتكفل بإيصالي إلى هناك. لم أجرؤ أن أسأله عن سرّ هذا التغير الكبير في معاملته لي، خشيتُ

أن أرتكب حماقة تُعيده إلى سيرتهِ الأولى، ولكنني كنت سعيدًا جدًا بهذا التغير وهذا بحد ذاته كافٍ بالنسبة لي.

توقفنا بمحاذاة الكازينو وقبل أن أنزل من سيارته، أمسك بذراعي اليسرى وقال لي:

- كل عمل شاق يا يوسف، الراحة بالنسبة لأمثالنا وهمٌ أو حظ، فعليك بالصبر وسعة الصدر حتى تستطيع أن تعيش.

أجبته بامتنان:

- شكرًا ياسين... سأتذكّر ذلك.

8

وصلت مبكرًا فقررت أن أكتشف محيط الكازينو. وقفت أتأمل تلك الأرض الفلاة المنبسطة خلف الكازينو الممتدة شرقًا حتى استاد جدة، أو استاد الأمير عبدالله الفيصل. خلف الكازينو رأيتُ غرفة صغيرة ملاصقة للمبنى كأنها غرفة حارس عمارة. لكنني فوجئت وأنا ألمح شعيب يخرج منها، فاختبأت منه حتى لا يراني أو يحسّ بوجودي.

احتميتُ خلف سورِ الكازينو وأنا أختلس النظر إليه، وحين توارى عن بصري اتجهت نحو مدخل الكازينو. عبرت البوابة متجهًا نحو الكافتيريا، لا زالت عبارة العم إبراهيم تطنُّ في أُذني إلى الآن، أردت أن أعرف ماذا يقصد حين قال: «فهمت الآن». مسحت ببصري ساحة الكازينو وكان خاليًا إلى حدٍ ما، والأجواء ساكنة، لكنّني دُهشت من كثرة العُمال مقارنةً بما رأيته في صباح يومي الأول. كانوا منهمكين في تنظيف فرش الجلسات المتقاطعة في وسط الساحة، وشطف الممرات والحمامات، وشعيب يراقبهم مثل سجان. تحاشيت النظر في عينيه، ومشيت بثباتٍ حتى توقفت عند شُباك الكافتيريا.

سلمت على العمّ إبراهيم الذي كان هو الآخر منغمسًا في عمله، فلمّا رآني قال والبسمة على وجهه:

- أهلًا أهلًا حبيبي يوسف.

كنت أشعر بهذا العطف الذي يكنُّه لي ينضح من كلماته ونظراته:

- أهلًا فيك يا عم إبراهيم.

- هل نمت جيدًا وجئت مستعدًا للعمل؟

- لا أخفيك أن كلماتك بالأمس أبعدت النوم عن عيوني.

توقف عن عمله والتفت نحوي متسائلًا:

- أيّ كلمات يا يوسف؟

تعجبت من ردّه وقلت له:

- ما قلته لي قبل خروجي من الكازينو!

فأجاب مرةً أخرى متسائلًا، وكأنه قد نسي بالفعل:

- عمَّ تتحدث يا يوسف، لقد نسيت بالفعل. عن أي شيء تتحدث؟

ذكّرته بالحوار الذي دار بيننا حول ما سأواجهه من مصاعب، حتى توقفت عند عبارة: «فهمت الآن».

هزّ رأسه وقال لي:

- أيوه افتكرت، ولكنني لن أجيبك الآن، لأن العُمال كما ترى منشغلون بتجهيز مرافق الكازينو وتنظيفه استعدادًا للفترة المسائية، ولكنني أعدك أن أُخبرك الليلة.

كانت الساعة تقترب من الخامسة، والعمال -غالبيتهم يمنيون- يتحرّكون بلا توقف، وشعيب من مكانه يتصيدُ أخطاءهم، ويصرخ موجّهًا الأوامر. إنه مثل العفريت، يخرج لك من كل مكان، وهذا ما يجعل العمال يشتغلون وكأنه فوق رؤوسهم.

وقفت في مكاني لا أدري ماذا أصنع، أتقصّد عدم النظر نحو شعيب عساه ينساني قليلًا. ولكن تلك الخدعة الساذجة لم تدم أكثر من دقائق حتى سمعت صوته البغيض وهو ينادي «يوسف».

حثثت الخطى نحوه وقبل أن أصل إليه قال:

- اذهب وساعد زملاءك في غسل النرجيلات، وأتمنى أن لا تصطدم بأحدٍ منهم، فجميعكم هنا إخوة... لقد تعمّدتُ أن تأتي في المساء حتى تجد المساعدة من الجميع، فلا تخيّب ظني فيك.

أجبت بنبرةٍ خاضعة:

- شكرًا... سأكون عند حسن الظن.

انقضى وقت العصر والكازينو بدا ساكنًا بعد حملة النظافة والاستعدادات.

لم يكن هناك زبائن كثر، كانوا يُعدون على أصابعِ اليد الواحدة، واستمرّ الأمر إلى ما بعد المغرب. أحسستُ بارتياح وانشراحَ في الصدر لعملي في هذه الفترة المسائية، كان عدد العمال كبيرًا ولا يوجد ضغط عمل.

لكن بعد صلاة العشاء استيقظ الكازينو من غفوته وسكونه، بدأ الزبائن يتدفقون بأعداد كبيرة، وتكاثرت الأيدي الملوّحة طلبًا للخدمة.

الغرق في تلبية طلبات الزبائن جعلني غير قادر على التفكير بأي شيء سوى طلباتهم: شاي، ماء، عصائر... وبعضهم يطلب العشاء، وجميعهم يريدون المعسّل بنكهات مختلفة لم أكن أعرف عنها شيئًا قبل اليوم. الغريب أنني لم أعد أشعر بذلك الخوف من الناس، ولا الخوف من أي شخص قد يعرفني، انزاح ذلك الإحساس تمامًا ووجدتني أعمل بدأبٍ منقطع النظير.

كلما واجهتني مشكلة، ناديت أحدَ العمال ليساعدنيَ، فلم أجد أحدًا منهم يُشبه حمزة ذاك، بل يبادرون للمساعدة. وبالرغم من ضغط العمل إلا أنني كنت سعيدًا. كان الليل جميلًا وأنا أرى الضحكات تدوّي في الأرجاء، أتأمل الزبائن الذين يصنعون البهجة في آخر الليل وقد تحول الكازينو إلى مبخرةٍ واكتظت السماء بالدخان، و«الست» أم كلثوم تحفر بعمق في قلوبنا بصوتها الشجيّ وتستدرّ البوح من أعماقنا. كل شيء كان يبعث على البهجة، وكلما تقدم الليل ازدانت الأجواء بالمتعة والفرح.

كلما وجدت لحظة لا أنشغل فيها، أذهب لأقف بالقرب من شباك الكافتيريا، أُبادل العم إبراهيم أحاديث عن تصرّفات الزبائن، وكثيرًا ما يضحكني بنكاته الساخرة، ولسانه السليط الذي لم يسلم منه أحد لا من الزبائن ولا حتى من العمال. لا أحد يغضب منه، وكأنهم اعتادوا عليه وألفوه، بل وأحبوه لأجل شخصيته المرحة.

لم أتوقع أن يكون العمل في فترة المساء بهذه المتعة، وهذه الراحة النفسية، وسط تلك الأجواء التي تذكرني بليالي حارتنا بين أصدقاء الحارة. هنا الأمر مختلف قليلًا، لكنني أحسستُ بأنني لا زلت بين الناس...

بالرغم من كثرة الطلبات التي لا تتوقف، كنت أعمل بلا تذمر وكأنني نحلة لا تكل ولا تمل. لكن كنت أنسى كثيرًا، فمرة أنسى براد شاي، ومرة أنسى علبة ماء، أو مشروبًا غازيًّا، أو عصيرًا... وهو ما أدى إلى بعض الخلافات البسيطة بين الزبائن وغالب.

بعد أن تكررت أخطائي قال لي غالب:

- بما أنك جديد، خذ هذا الدفتر وهذا القلم واكتب دائمًا رقم الجلسة وسجّل طلباتهم.

كانت هذه أوّل نصيحة من غالب الذي عرفت لاحقًا أنه المسؤول الأول عن سير العمل في الكازينو وعن أمور المحاسبة.

غالب هذا رجل بدا لي كبيرًا في السن من خلال سحنته الشاحبة وتجعد ملامح وجه، إلاّ أنه لا يزال محتفظًا بقوته وخفة حركته. كان متأنقًا في ملبسه ومؤدَّبًا في حديثه، له عينان براقتان تنمان عن ذكاء وفراسة، يعرف كيف يمتص غضب الزبائن بأسلوب ليِّن، ولا يحاول أن يصعّد الأمور. يتدخّل لحل كل مشكلة في لحظتها حريصًا على أن يُشعر الزبون أنه موضع اهتمام.

الجميع كان يحترمه، ليس خوفًا منه كما الحال مع شعيب، بل لأنه يحترم الجميع ويفرض احترامه على الجميع، ولا يسمح لأحدٍ أن يتجاوز حدوده في التعامل معه أثناء العمل.

كان يعلم بأنّني عامل مبتدئ، فلم يوبخني على أخطائي، أو يعاتبني على نسياني، بل قدّم لي النصح في كل مرةٍ رآني أُخطئُ فيها. فعملتُ بمشورته تلك حتى تعلمت طريقة الحساب وبدأت أخطائي تقل شيئًا فشيئًا.

عند الساعة الرابعة فجرًا ومع خروج الكثير من الزبائن تفاجأت بدخول إسماعيل «الدغريشي» مرتديًا الثوب السوداني ومعتمرًا طاقية مخرّمة وهو يبتسم لي. على قدر ما كنت مندهشًا من رؤيته، لم أكن سعيدًا

بمجيئه، كان الثوب السوداني مألوفًا جدًا عند شباب جنوب جدة والكثير منهم يلبسونه، إما من باب الفتوة والتباهي بذلك، أو من باب الخيلاء والعنجهية، كان هذا هو المفهوم السائد عندنا في ذلك الوقت.

سلمتُ عليه بحرارة وقلت له مستغربًا:

- ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟!

فقال لي وهو يضحك:

- اشتقت إليك، وجئت لأصطحبك إلى المنزل.

سألته مرة أخرى:

- وما أدراك أنني أعمل في الليل؟

- طرقت الباب على ياسين وأخبرني أنك هنا.

- ما الذي جاء بك في هذه الساعة المتأخّرة. انشالله يكون خير؟

أخرج من جيبه «باكيت» الدخان، وأشعل سيجارة مزّ منها نفسًا عميقًا، ورفع رأسه إلى لأعلى نحو السماء ينفث ذلك النيكوتين الذي اجتره بمزاجٍ عال وسألني:

- متى ينتهي دوامك؟

- لا أدري... ربما بعد ساعة.

فقال في ثقةٍ ومباهاة:

- الآن أخليك تطلع، وأوصلك للبيت.

خفت من غضب شعيب. لا أريد أن أقع مرة أخرى في ورطة معه. قلت:

- ولكن يا «سُمعة» لم يبق على الدوام إلا ساعة. لماذا لا تنتظرني حتى أنتهي.

- فأجابني واثقًا:

- لا تهتم.. ودع الأمر لي.

قال كلامه وتركني في الساحة. فكرت كم يصعب على مثلي أن يقول ما يشتهي؟! رباه لا أدري كيف أتخلص من هذا الضعف الذي يسكنني.

ضعفي جعلني أتسمّر في مكاني منتظرًا ما سيقرره إسماعيل نيابةً عني.
جاءني وعلى محياه ابتسامة وقال مداعبًا:
- براءة يا «هرّ»، هيّا أنت حُرٌّ طليق، فلنذهب من هنا.
علقتُ على كلامه بدهشة:
- وشعيب؟
أجاب مرة أخرى في زهو:
- أقول لك لا تهتم لا بشعيب ولا بغيره... تعال معي.
كنت ألمح شعيب من بعيد وهو ينظر إليّ برضا، وأشار بيده أن أذهب! كنت أسير نحو البوابة عندما سمعت صوت العم إبراهيم يناديني، فقلت لإسماعيل: - سألحق بك.
كان الكازينو هادئًا بعد خروج الكثير من الزبائن، وبدأت تخف وتيرة العمل، وهذا ما جعل إبراهيم يخرج من الكافتيريا. اقترب مني ووضع يده على كتفي وقال لي:
- كما وعدتك، سأخبرك لماذا قلت لك ذلك الكلام.
ابتسمت والفضول يعلو ملامحي وقلت:
- صحيح، ماذا كنت تقصد بذلك؟
قال بصوتٍ خافت:
- حمزة كان يخطط لطردك من فترة الصباح، لأنها أكثر راحة وأقلّ عملًا، ومع الأسف استطاع ذلك خلال يوم واحد.
ضحكت من كلامه، وقلت:
- أشكرك يا عم إبراهيم على اهتمامك بي. والحمد لله أنه فعل ذلك، فلولاه لما كنت الآن سعيدًا.
ودعته وأنا أرى تلك الدهشة مرسومة على وجهه لمّا سمع ما قلته عن سعادتي بالعمل في فترة المساء التي يراها متعبة.

9

إنها الساعة الرابعة فجرًا، وأنا أتجول مع إسماعيل في سيارته الدباب وسط حاراتِ غليل، وقد انبعث صوت الفنان توفيق الرويسي بموالٍ على مقام «السيكا»:

حبك أمرني بأمر الحب مش أمري

أعشق دلالك وعندك ذا اللي شاغلني

هذا الفنان جعل إسماعيل مولعًا بالفن «الينبعاوي» فهو يقلّده في أدائه للمواويل، وفي ترك شاربه الكثّ، وحتى في طريقة وضعه للخاتم الكبير المصنوع من العقيق في خنصر يده اليسرى.

كنت أشعر بوجود طاقةٍ غير عادية في إسماعيل وهو يجول بي في منعطفات الحارة في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ أرى في حركاته وملامحه فرحًا يجعله شارد الذهن.

أراه يتمايل طربًا مع أوتارِ آلة القانون التي تئنُّ على مقام «السيكا» ويتأوه مع شدو توفيق الرويسي.

كنت أشعر أنّ لديه سببًا لفرحه غير العادي، وأنّه ينظر نحوي متبسّمًا كأنه يريدني أن أسأله عن سبب فرحه. أن يُخرج سرًا من صدره. فسألته:

– ماذا عندك يا «سمعة». هيا هات أخبرني فأنا متعب وأريد الذهاب للنوم.

نظر إليّ بابتسامة هادئة وقال:

– لقد كان معي عمّار قبل قليل، وقد لا تتخيل ماذا حدث بيننا؟!

دهشت وقلت:

– عمّار ما غيره؟!

– نعم. وقد صارحته بحبي له، ذلك الحب الذي كنت أدفنه في قلبي منذ سنتين.

- وماذا كان ردّه؟
- كان سعيدًا، وبادلني نفس الشعور!!
لم أصدق ما سمتعه أُذناي، عمّار ذلك الغلام الجميل يُحب إسماعيل!
كنت أحدق في عينيه الغارقتين في الحب، وسألته:
- كيف استطعت أن تأخذهُ معك وأنت تعلم أنّ...؟
- أعلم أنّه كان في كنفِ حسن «الدنقل» ولكنه انتهى منه. هو أخبرني بذلك.
فهمت عندها السبب الذي طيّر النوم من عينيه، وكان في أمسِّ الحاجة للبوح.
كنت متعبًا، فعبّرت له عن فرحي لفرحه، وطلبت منه بلطف أن يوصلني للعُزبة على وعدٍ مني أن أستمع لأخباره وأشجانه في وقتٍ لاحق، فوافق بإشارةٍ من رأسه وهو يغنّي. وحين نزلتُ من الدباب، قال لي:
- اكتم سرّي يا «هرّ».
أجبته ضاحكًا:
- من عيوني.
كان هذا الغُلام الوسيم عمّار يروح ويغدو في الحارة مُربكًا قلوب الفحول الضارية من الرجال ولا أحد منهم يجرؤ على الاقتراب منه، لأنه كان يختال بغرور في حماية رجل أسود اسمه حسن ويلقَّب بـ«الدُنقل» وكان شرسًا وشجاعًا، مُهابًا من الجميع، مع أنه لا يصل إلى منزلة درويش «المجعرم» في قوته وصرامته.
إسماعيل أيضًا لم يكن بالشخصِ الضعيف، وله مكانته في حي غليل، فقد وُلد ونشأ وترعرع في رحابه، ويعرف كل صغيرة وكبيرة فيه، وهو مُقدَّمٌ في الحفلات وليالي الطرب وهو لا يعرف الخوف أبدًا، له صولات وجولات في حيِّنا وفي الأحياء المجاورة أيضًا، لكنه كان يحترم «الدنقل» فلا يتطاول على شيء من ممتلكاته، وكان عمار أحد ممتلكاته.
حسن هذا تشادي الجنسية، في عقدهِ الرابع، لكنه هو وإخوته، بعددهم الكبير، مولودون هنا وكأنهم من أبناء البلد. وكان يعيش وحده قريبًا من بيت والده العجوز وأمه التي تبيع «المقلية» في المساء فوق بسطة قريبة من البيت.

قيل عنه إنه ساحر ومشعوذ، وتناقل أهل الحي أخباره. شاع عنه أن الشيطان يتمثل له في كل ليلة، ومنهم من قال إنّهم رأوه يمشي عاريًا آخر الليل، والبعض قال إنّ هناك نارًا تشتعل في حجرته كل ليلة. وقد شاهدته بنفسي مرّةً حين كنا نلعب مباراة ختامية في ملعب الحارة، وهو يطوف حول الملعب ويتمتم بكلماتٍ لا أحد يفهمها كدعم لفريق الحارة. وقد اعتبر الجميع أن عمّار الذي كان لا يفارقه أبدًا كان مَجرد ضحية لسحره مما جعل هذا الغلام يتبعه وينام في بيته أحيانًا.

هناك من أنكر ذلك كُله وقال إن حسن ما هو إلا تاجر مخدرات، وله مخبأ معروف يتوافد إليه المتعاطون؛ والبعض يقول إنه المسؤول عن سرقة «كفرات» سيارات أهل الحي، وإنه هو الذي يسطو على البيوت ليلًا ويسرق الأجهزة الكهربائية... المهم أنّ هذا الرجل كان حكاية تُروى على كل لسان.

مثل هؤلاء لا أحد يمتلك شجاعة أن يقترب منهم. فالتعدي على ما يخصّهم يعني أنّك وضعت نفسك في مأزق، وأنك سوف تكون معرضًا للاعتداء في أي وقت.

ليس غريبًا أن تحدث مثل هذه العلاقات في أحياء جنوب جدة كحي غليل، السبيل، الكرنتينة، القريات والنزلة اليمانية، بل إنها أيضًا تحدث بكثرة في المدارس وتحديدًا في المرحلة المتوسطة والثانوية، ويمكن القول إنّ مثل هذه العلاقات التي تحدث بين رجل راشد وغلام مراهق، ظاهرة اجتماعية مألوفة في الأحياء الموبوءة، التي يتفشى فيها الفقر والجريمة. أحياء تُعَدُّ أرضًا خصبة للرذيلة بكل أنواعها، خاصةً في ما يتعلق بالجنس لأن الكثير من ساكنيها يعانون من الكبت الجنسي!

تولّع قلب إسماعيل بعمّار يوم رآه يرقص في إحدى الحفلات، وكان يراقبه دائمًا ويترصد تحركاته حتى أصبح مريضًا بهذا الغلام، يطارده دائمًا، وعمّار كان يعلم هذا ويتمادى في صدّه وجفائه، ممعنًا في إيلامه متلذذًا بتعذيبه، وإسماعيل لا يكفّ عن اللحاق به في كل مكان.

عمّار كان الوحيد بين أخواته الأربع، ويعيشون مع والدتهم المسكينة بعد وفاة الوالد، لذلك كان ضعيفًا جدًا ومعرضًا للأذى في كل وقت، فهو في حاجة للحماية دائمًا وليس له مخرجٌ من هذا المأزق سوى إشباع رغبات أي رجل ذاع صيته بالهيبة والقوة والإجرام لكي يبقيه آمنًا من الوحوش التي تدور حوله بشبق.

كنت أسترجع صورة عمّار وأنا متمدد على فراشي، وياسين يغطّ في نوم عميق، أتذكّر كيف كنّا ننظر إليه حين يخرج من بيتِهِ، وكان في ذلك الوقت في الحادية عشرة من عمره، حين تُرسله أمُه إلى البقالة، ونحن جالسون مثل أثاث قديم مُلقى في الشارع نراقبه بنظراتِ فسق، ورغبات مسعورة، وبعضنا يقول: «لا ندري مَنْ سيقطف ثمرته»! فنضحك معًا على هذه الإيحاءات الجنسية.

لم أكن أميلُ إلى مثل هذه العلاقات المثلية أبدًا، لكنّني أضطر أحيانًا أن أجاري أبناء حارتي في حديثهم، حتى لا أبدو غريبًا عنهم. أعلم أنني لستُ العاقل بينهم، ولكنها حقيقة أشعر بها في داخلي، فأنا لا أطيق أبدًا مثل هذه العلاقات التي أعتبرها نجسة، تنفر منها كل نفس مجبولة على الفطرة السليمة، ومع ذلك أنخرط مع أبناء حارتي في مثل هذه الحكايات، وأتقمّص دور «الفحل» الممتلئ بهذا السُعار المجنون تجاه كل غلام جميل.

عمّار كان فتى مهذبًا، وجميلًا، يحرص على الصلاة في المسجد، منذ أن بلغ الثامنة من عمره. كانت أمه تحثّه على المواظبة في حلقات التحفيظ في المسجد، وأحيانًا يصل بها الأمر أن تنتظر إمام المسجد في الخارج بعد صلاة العشاء، وتوصيه بعمار كي يهتم به ويحرسه في كل مرةٍ يخرج فيها من حلقة التحفيظ، فكثيرًا ما كان يهدده إمام المسجد بأمه إذا لم يذهب مباشرة إلى البيت. هكذا كانت أم عمار المسكينة تحمي ابنها بكل وسيلة ممكنة، لأنها تدرك أنها تعيش في حي لا يرحم من هم على شاكلةِ ابنها.

مع مرور السنين، ودخول عمار فترة المراهقة وتحديدًا في المرحلة المتوسطة باءت كل محاولاتِ أم عمار بالفشل، تلك المسكينة التي كانت تُعدّه لمستقبلٍ مشرق، وتحفر بأناملها الصخر كي يحظى بحياة آمنة، خارت قواها حين نضج هذا الغلام واشتدّ عوده قليلًا. ملّ من سلوكِ أُمه وتصرفاتها التي تُشعره بأنه لا يزال طفلًا صغيرًا، وشيئًا فشيئًا بدأ هذا الابن يتمردّ على أُمه ويخرج كثيرًا بغير إذنها، بل ترك حلقات التحفيظ في المسجد، وبدأ ينخرط مع أبناء الحارة الذين هم بدورهم كانوا يرحبون به ويشجّعونه لحاجة في أنفسهم.

لم يكن يُدرك عمّار الخطر الذي يدور حوله، كان غِرًا لا يعلم ماذا يُحدق به، حتى جاء الوقت الذي بدأ يشعر فيه بعيونِ هؤلاء الشباب، خاصّةً في المدرسة، تنظر إليه بطريقة غريبة، وأنه مُراقب في كل حركاته داخل المدرسة وعند خروجه منها.

كان القانون في المدارس آنذاك، وتحديدًا في المرحلتين المتوسطة والثانوية يُشبه كثيرًا قانون السجون، فإن لم يكن لك سندًا فسوف تنقضّ عليك الوحوش، وحين شعر عمار كثيرًا بتلك التحرشات الجنسية بدأ يلتف حول أبناء حارته أملًا بأن يحمي نفسه من هذه التحرشات، ولم يعلم المسكين أنه صيدٌ ثمين حتى لأقرب الناس إليه.

تعرض عمّار للخطف، والاعتداء الجنسي، وذاع صيته في الحارة، وأصبح كل أقرانه في الحارة يعلمون أنه قد «فُعل به» وأنه لم يعد رجلًا بعد الآن، وهذا ما جعله يتحطم ويشعر باليأس من تدهور حالته.

عندما لم يجد سنَدًا، وبعد أن أصبح عرضة للتحرّش في أي وقت، لجأ إلى حسن «الدنقل» للخروج من وضعه البائس.

ظلّ لسنوات مع حسن حتى جاء إسماعيل ليخبرني بأنهما افترقا، وعلمت حينها أنني لن أرى بعد اليوم إسماعيل إلا قليلًا، أو ربما لن أراه أبدًا، لأنه سيكون غارقًا حتى أذنيه مع عمّار...

10

أخذت الحياة دورتها وأنا أعمل في الكازينو في فترة المساء، والليالي تمر على وتيرة واحدة. تعلمتُ أسرار المهنة، وكيف تعِدّ للزبون نرجيلة تجعله ينتشي عند أولِ سحبةٍ يجرها نحو أعماق صدره، بل أحرقتُ نفسي بالعملِ حتى أنتقل من مرحلة أن أكون «صبيًا» إلى منزلةِ أن يُنادى باسمي: «المعلّم» يوسف.

بتُّ أعرف الزبائن الذين يرتادون الكازينو بشكلٍ يومي، وتوطدت علاقتي بهم، وتحولت إلى شخصٍ مرغوب من العديد من الزبائن، واسمي مطلوب في كل جلسة: «يوسف... يا يوسف»، وحين تعترضهم مشكلة في طلبٍ طلبوه يقولون للذي جاء بالطلب «نادي على المعلم يوسف». رضي عنّي شعيب، بل أصبح حريصًا على ألّا يغضبني، وبدأ يقرّبني إليه، وأحيانًا يعزمني على عشائهِ الخاص الذي يضم أيضًا غالب.

لم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل صرت المسؤول عن توجيه العمال وتنظيمهم، فأوزّع العمال كلٌّ على جهة معينة، أو جلساتٍ محددة يقوم فيها على خدمة الزبائن حتى لا تعمّ الفوضى. مما أثار الضغينة عند بعض العمال وعلى رأسهم محجوب، ذلك الرجل الطويل والنحيف، بوجهه الدقيق وأنفه الطويل المعقوف إلى الداخل. كان هزيلًا جدًا لكنه كان سليط اللسان، ودائمًا يُلقي «النكات» ساخرًا من شكلي حين أعبر بجانبه، أو عندما نلتقي في منعطفٍ، أو جلسةٍ، أو في أي مكان في الكازينو، بل كلما اجتمعنا.

لاحظت كيف أنّ محجوب يحاول أن يضع العبء كله على ظهري، وراح يمارس سلطته عليَّ، فقد كان مقرَّبًا من غالب الذي أوكل له مهمة انضباطية العمال، لكن محجوب استغل هذا وبدأ يجعل مني آلة تتحرك

في كل مكان، وكلما حاولت أن أصطدم به تذكرت ما حصل بيني وبين حمزة، فأكتم غيظي وأتراجع.

الراحة التي عشتها في الفترة التي مضت، وكلماتِ العم إبراهيم، جعلتني في منتهى الحذر من أي حماقة تتسبب في طردي. فأنا لا أريد العودة إلى حياة الضياع مرة أخرى؛ ومسألة العثور على عمل لشخصٍ مثلي تبدو في غاية الصعوبة، وهذا ما دفعني لتجنّب محجوب قدر الإمكان.

ظلّ يتهمني بأشياء أنا بريءٌ منها. يقول لغالب إنني أتعمد تأخير طلبات الزبائن، وإنني أتقاعس عن العمل وأظل أثرثر مع العم إبراهيم لأوقاتٍ طويلة، ولا أشارك في تنظيف الكازينو، وغالب ينقل شكاوى محجوب إلى شعيب، لكنّ شعيب لم يكن بالرجل الأحمق، فهو يتابع سير العمل وتصرفات العمال بحرصٍ شديد، فكان يراني مثل الشّعلة التي تحترق من أجلِ هذا المكان، مما جعله يشكُّ كثيرًا في ما ينقله غالب من شكاوى محجوب. وقد قال لي ذات ليلة: «لا تعطي محجوب أكبر من حجمه ولا تهتم بما يقوله عنك، فأنت من أفضل العمال عندي».

لم أكن أعرف شيئًا عن محجوب سوى أنه من العمال القدامى، فأنا لم أستطع أن أكون صديقًا لأيٍّ منهم، لأنهم عصبة تكره كل عامل لا يأتي عن طريقهم.

عندما توليت مسؤولية العمال غضب محجوب، وصار يمعن في السخرية مني وخاصة من شكلي، ويخالف كل أمرٍ أوجهه له، بل صار يحاول عرقلة عملي.

حاولت قدر الإمكان أن أبتعد عنه، ولا أشكوه إلى شعيب، خشية أن يتصعّد الأمر وأتسبّب بالمشاكل، ولأنّني على يقين بأن شعيب لا يخفى عليه شيء، ولكنه يُمهل أبناء عمومته وقرابته، فمعظم العاملين في الكازينو من محيطه.

أخبرني العم إبراهيم ذات ليلة أن شعيب هذا ليس بالرجل السهل، وأنه يملك بقالتين في حي القريات غير هذا الكازينو، ومتزوج من امرأتين وله ذرية من الأبناء والبنات كلهم يقطنون في حي القريات في بيتٍ كبير، والذي يتولى أمر البقالتين هما ابناه صالح وعباس اللذان لم أرهما قط، مع أن العم إبراهيم أخبرني أنهما يعرّجان على الكازينو بين فينة وأخرى.

علمت بعد ذلك أن شعيب يعيش مع عائلته في سعةٍ وبحبوحة من الثراء، بالرغم من بُخله على نفسه الذي رأيته في هيئتهِ الرثّة. لا أدري لماذا يحاول أن يخفي نعمة الله عليه، ويظل حابسًا نفسه في هذا الكازينو النّتن وتلك الحجرة الصغيرة؟!

بدا لي أنه لا يثق بأحد، وهذا ما جعله لا يبرح مكانه كثيرًا، ولا يترك الكازينو إلّا قليلًا، أو في أوقاتٍ لا أعلمُ عنها. العائد المادي لهذا الكازينو كبير، وقد صادف أكثر من مرة أن رأيته مع غالب في تلك الغرفة الصغيرة الملاصقة للكافتيريا وهما يفرزان الأموال بحسب فئاتها وكانت كومة كبيرة جدًا.

عودت نفسي على اللامبالاة، وأن أغضّ الطرف عن مماحكات وسخريات محجوب التي لا تنتهي، وفي كل ليلة أثبت فيها لشعيب بأنّني الرجل الذي يستحق هذه المكانة وهذا المنصب. كان ذلك يزيد من احتقان محجوب، لكنّني تعلمت الدرس هذه المرة، فلن أدع لهذا المعتوه أن يُعكر صفو سعادتي، خاصة وأنّ شعيب وعدني بزيادة في راتبي اذا نجحت في المسؤوليات الموكلة إليّ.

ذات ليلة رأيت درويش «المجعرم» يتوسط إحدى الجلسات برفقة شباب يشبهونه في كل شيء. ارتبكت ولم أعلم ماذا أصنع؟! فأنا لا أريده أن يراني هنا، في هذا المكان تحديدًا، وحاولت أن أختبئ بطريقة لا تثير الشك لدى العمال الآخرين، فاضطررتُ إلى المكوث كثيرًا في الدهليز الواقع بين الغرفتين اللتين تفوح منهما رائحة الفخم والمعسلات، تلك

الزاوية المكتومة التي لا تُطاق، مما أثار ضغينة محجوب الذي يقضي جُلّ وقته هناك، وفي نفس الوقت أشعل فتيل الغضب لدى شعيب الذي لاحظ غيابي عن ساحة الكازينو.

حينما رآني محجوب لا أبرح مكاني، ظنّ أنني أتعمَّد مشاكسته، أو أبحث عن خطأٍ قد يقع فيه، أو أُضمر له سوءًا قد يُضرُّ به، رأيت الشرَّ في عينيه، فاقترب مني وقال:

- ما الذي يُجلسك هنا؟ عملك في باحة الكازينو، أم إنك جئت لتبحث عن المشاكل أيها القزم؟

حدّقتُ في وجههِ وأنفاسي تتلاحق من الغضب وشدة التوتر وقلت:

- ابتعد يا محجوب، فأنا هنا من أجل العمل، وليس لدي وقتٌ للحديث معك في مثل هذه الأمور السخيفة.

احتقن وجهه وراح يرفع صوته:

- مكانك ليس هنا، اذهب قبل أن ترى شيئًا لا يسرّك.

نظرت في وجههِ وفي داخلي خوف من أن تحدث كارثة وقلت وأنا أغادر مكاني:

- هذا مكان عمل، وأنا بحكم عملي لي الحق في الوقوف بأي مكان في هذا الكازينو.

قررت تجنّب المشاكل والمغادرة. وأنا أخرج سمعته يقول:

- إذا كان فيك خير تعال إلى هنا مرةً أخرى.

لم ألتفت نحوه. كتمت غيظي واتجهت إلى الساحة وقلبي ينبض بشدة من رؤية درويش، ولكن لا مناص من ذلك، فمواجهته أصبحت أمرًا لا بدّ منه.

حين توسطت الساحة، كنت أتحاشى النظر ناحية درويش، مشتتًا بصري عبثًا في كل الاتجاهات ولكنّني كنت ظاهرًا للعيان، فجاءني صوته الجهوري المخيف وهو ينادي:

- يا «هرّ».. يا «هرّ».

حاولت أن أنظر هنا وهناك، فرأيته يشير بيده وهو يقول:
- هنا... هنا.
جئته وأنا أصطنع الدهشة لرؤيته، راسمًا على شفتي ابتسامة مبتورة أُخفي وراءها هلعي وكرهي لهذا الشخص.
لما اقتربت منه، نهض من مكانه وصافحني بيده وقال لي مستغربًا:
- ماذا تفعل هنا؟
- كما ترى.
فقال في دهشة:
- أنت تعمل هنا؟!
- نعم.
كنت أرى بوضوح الصدمة تعتلي وجهه وهو يقول:
- عمك سالم يدري بهذا الأمر؟!
- عمي لا يدري إن كنت حيًا أو ميتًا.
نظرتُ في وجهه بحزم وقلت:
- هل تريد شيئًا آخر؟!
كان يتأملني بنظراتِ شفقة أو استغراب. لم أعرف تحديدًا ماذا كانت تعني تلك النظرات التي يطوّقني بها. فقال ببرود:
- لا... سلامتك.
عدتُ مرةً أخرى مشتت الذهن، قلقًا ممّا سيحدث لاحقًا إن شاع خبر عملي هنا.
لم أحتمل نظرات درويش، وتلك الدهشة على ملامحه. تلك النظرات المغموسة بالشفقة كانت تعذبني، فكرهت وقوفي مثل مهرج في باحة الكازينو. قررت أن أبتعد عن وجهِ درويش البشع لعلي أتنفس قليلًا كي أتخلص من هذا التوتر. ولم يكن هناك أيّ مكان غير الدهليز الذي ينتظرني فيه محجوب على أحرِ من الجمر.

11

لم أكن خائفًا من محجوب، إنما فقدان عملي هو ما يُخيفني، ولا أريد أن أقع في الفخ مرة أخرى كما فعل بي حمزة من قبل. أتذكر جيدًا كلمات العم إبراهيم لَي: «لا تمنحه فرصةً يحقق من خلالها ما يريد»، وأنا أعلم أن محجوب يسعى بكل ما أوتي من غلٍّ ليستغل أي فرصة قد تورطني في مشكلة، ولذلك قررت أن أكون حذرًا هذه المرة.

ما بين الدهليز وساحة الكازينو ممر ضيق طوله عشرةُ أمتار. اختبأت في أولِ الممر حتى أكون بعيدًا عن محجوب، وفي ذاتِ الوقت مخفيًا عن مرمى بصرِ درويش، وبقيتُ واقفًا هناك مدَّعيًا بأنّني منهمك بتلك الورقة التي أدوّن فيها أرقام الجلسات، والعمال يمرون بجانبي غير مبالين بوجودي. إلّا محجوب، حين رآني توقف لحظةً عند آخر الممرِ وظلّ يحدقّ نحوي بغيظٍ، لكنّني أشحت بوجهي عنه ولم أعره أيّ اهتمام، لأنّ درويش كان في تلك اللحظات هو المأزق الحقيقي بالنسبةِ لي.

لم يطل وقوفي هناك مثل لص، حتى سمعت قرع نعال محجوب تقترب مني. فإذا هو منتصب أمامي والحنق يملأُ قلبه. كان مضطربًا ممتعض الوجه والرعشة تدبُّ في أطراف يديه، علمتُ أنّ الشيطان يجري في دمهِ وقد عقد النية على السوء، فخرجت نحو الباحة.

لكنه لحق بي وسألني:

– ألم أقل لك ألّا تقترب من هنا؟!

قال كلماته بطريقةٍ مستفزة، وكأنني طفل واقف بين يديه، فقلت له بعد أن نفد صبري، وفاض بي غضبي:

– من أنت حتى تقرّر ماذا يحقّ لي؟ سأتواجد في أي مكان أريد ومتى شئت.

قطّب حاجبيه، ومطّ شفته السفلى ودفعني بقوة بيديه حتى كدت أسقط على ظهري، ولما حاولت أن أردّ عليه بقوة جاء غالب يسعى كي يتدارك الموقف، فحال دوني ودونه واحتضنني بذراعيه وطلب مني أن أهدأ، بينما محجوب لا يزال يزبد ويرعد بكلمات أثارت انتباه كل من في الكازينو حتى خرج شعيب من مكانه. جاء مذعورًا لا يدري ما الذي يحدث؟ فاتجه مباشرة نحو محجوب وأمسك بذراعه وشدّه بقوة وهو يقول له: «اهدأ».

في تلك اللحظة حدث شيء لم أتخيله أبدًا. رأيت درويش يجري كالثور الهائج متجهًا نحو محجوب وهوى بيده الضخمة على وجهه اليابس، فسقط محجوب على قفاه، وشعيب يتأمل هذا المشهد المرعب بلا حراك، وقد تجمّد في مكانه، لا يعلم من أين أتى هذا الوحش؟! ولماذا ضرب محجوب؟!

كانت أنظار مرتادي الكازينو منصبّة علينا حين اقترب مني درويش «المجعرم» فوضع ذراعه على كتفي وقال:

- تعال!

مشيت معه مثل طفلٍ لا يملك من أمرهِ شيئًا، حتى توقفنا أمام شعيب فقال له درويش:

- من اليوم ورايح ما أحد يمدّ يده على يوسف... هذا بالنسبة لي أكثر من أخ، هل فهمت ما أقول؟

هزّ شعيب رأسه بنوعٍ من الإذعان وقال:

- حاضر.

كنت ألعن درويش في تلك اللحظة، هذا الكائن الذي لا يُجيد حلّ الأمور إلاّ بالهراوة أو بقبضةِ يديه. خفت أنّ ما قام به لن يمرَّ مرور الكرام، وأنَّ عاقبة ذلك لا تُبشر بخير.

عاد درويش إلى مكانه، وكأن شيئًا لم يكن! والعمال سحبوا محجوب الذي بدا وكأنه فاقدٌ للوعي، والدم على قميصه. قدّرت أن يكون درويش قد هشّم أنفه، لأنّ وجهه كان مغطًى بالدم.

بعد أن تفرق الجمع، بقيت وحيدًا تلتهمني نظرات العمال على نحوٍ غريب. وددتُ في تلك اللحظة أن تنشقَّ الأرض وتبتلعني وأنا أرى ذلكَ الغضب الذي ينزّ من أعينهم. شعرتُ بأنّني المتهم في ما حدث، حتى العم إبراهيم كان في نظراته الكثير من العتب وهو يطلّ برأسهِ من نافذة الكافتيريا. وفيما أنا أفتش عن أي زاوية أُخبئ فيها وجهي المتشظي تحت وطأة نظراتهم القاسية، ناداني شعيب وهو واقفٌ وسط الممر الضيق حيث لا يرانا أحد. جئته بخطى مرتعشة وقلبي يخفق بشدة، فلمّا دنوتُ منه رأيتُ ملامح الكدر جليّة على وجهه، وقال بصوتٍ حانق ومغتاظ:

- أريدك أن تذهب الآن، وتأتي غدًا في المساء.

قلت له متعجبًا:

- لماذا؟

قال:

- غدًا سأخبرك.

ما بالُ هذه السعادة لا تدوم! مرةً أخرى أشعر بأن شيئًا سيئًا على وشك أن يحدث. خرجت أمشي بخطى بطيئة وأنا أرى الكازينو عاد إلى حركته كأن شيئًا لم يكن. شعرتُ بالوحدة وأنا أتجاوز بوابة الكازينو الكبيرة والوقت في منتصف الليل والهمُّ يملأ صدري. إنه الخوف مجددًا وكأنّ الفرح ذَنبٌ أقترفه.

حين ابتعدت عن الكازينو بخطوات قليلة، جاءني صوت درويش من خلفي وهو ينادي كعادته:

- يا «هرّ».

التفتّ نحوه وأنا أكتم كمَدي، لا أريد أن أنظر إلى وجهه، ولكن ما حيلتي أنا الضعيف أمام هذا المجرم الذي يلاحق أحلامي البسيطة فيغتالها.

توقفت. فاقترب مني وسألني:

- لماذا خرجت؟

- لا شيء.

لم ترق له إجابتي، فأعاد السؤال وكأنه ينهرني:

- أقول لك لماذا خرجت؟ هل قال لك أحدٌ شيئًا؟

أجبته بصوتٍ مرتعش:

- لا شيء، قال لي صاحب الكازينو «اذهب الآن وتعال غدًا»، وهذا كل ما في الأمر.

وضع يده على كتفي وكأنه يكترث لأمري، وقال بحنوٍ مبالغ فيه:

- لا عليك يا «هرّ»، حتى لو طُردت من هنا فهو أفضل لك، ولا تخشَ شيئًا طالما أنا موجود.

قلت في نفسي، وجودك هو اللعنة بحد ذاتها.

ثم أردف يقول:

- تعال معي.

جرّني معه حتى وصلنا إلى سيارته، فأخرج ورقة وكتب فيها رقمًا، وقال:

- هذا رقم هاتفي الثابت، هناك عمل لك إن أردت وهو أفضل بكثير من عملك في هذا المكان السيئ.

وددت أن أضحك في وجهه، أن أسخر من كلامه. درويش يحدثني عمّا يصلح لي، يتكلم عن الفضيلة، يحاول أن يقوم بدور المرشد والموجِّه، وهو الذي لا يعرف سوى الرذيلة.

قلت له:

- حسنًا.

أخذت الورقة ومضيت.

في اليوم التالي جئتُ في الوقت المحدد، عند الساعة الخامسة مساء، بعد أن أنزلني ياسين كعادته بجانب الكازينو ثم مضى باحثًا عن لُقمة عيشه.

كان الجو ساكنًا، والعُمال يقومون بأعمال التنظيف، فانخرطت معهم في العمل وكأن شيئًا لم يكن، لكن لاحظت أنهم يتجنبون الحديث معي ويتحاشون النظر في عينيّ.

كنت أقوم بكنسِ الفُرش الخارجية عندما سمعتُ صوت شعيب ينادي:

- يوسف تعال.

لقد رأيته حينما دخل من الباب الكبير، وقد بدا أنه للتو خرج من جحره القابع خلف الكازينو، وعلى وجههِ أثار النوم. وقف عند نافذة الكافتيريا، وسمعته يطلب من العم إبراهيم أن يعِدَّ له كأس شاي عدني، ثم ابتعد قليلًا عن النافذة.

جئته والمكنسةُ لا زالت بيدي، لأنّني أردت أن أبيّن له أنني لا زلت ذلك العامل المخلص والمجِدّ في عمله. وقفتُ أمامه مستسلمًا كأنما أريد أن أُظهر ضعفي. كان وجهُهُ جامدًا، لا يمكن أن أتنبأ بنواياه، ولكنه كعادته لم يُطل في الحديث، أخرج من جيبه ظرفًا وقال:

- شكرًا يا يوسف ما قصّرت هنا، ولكنّني لا أريد مشاكل، وسمعة المحل أهم من كل شيء.

قلت مرتبكًا:

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني الله يستر عليك، دوّر لك على عمل آخر تترزّق منه.

قلت وأنا أكاد أنهار أمامه:

- ولكنّني لم أفعل شيئًا! وأنت تعلم أن محجوب هو من كان يعترض طريقي ويفتعل المشاكل.

قاطعني بحزم:

- انتهى الموضوع يا يوسف... اذهب الله معاك.

تصلبت قدماي بعد أن تركني وانصرف. قلبي يتفطر من شدة الحزن، ما حدث كان صفعة أخرى أتلقاها من دون ذنب.

مشيت بخطى وئيدة متجهًا إلى البوابة، فإذا بالعم إبراهيم يناديني. توقفت وأنا ما زلت في ذهول مما يحدث، ولمّا اقتربَ مني قال لي:

- أنا أريد أن أعتذر لك قبل أن ترحل.

قلت متعجبًا:

- على ماذا تعتذر يا عم إبراهيم؟ أنت الإنسان الوحيد الذي عاملني بلطف في هذا المكان.

قال وفي صوته تأنيب ضمير:

- أعتذر لك لأنّني لم أخبرك بأن محجوب هو أخو حمزة!

فاجأني الخبر وقلت:

- ولماذا لم تخبرني؟

- لأنّني خشيت أن تتعامل معه بضغينة، فآثرت أن لا أطلعك على الأمر حتى أجنّبك المشاكل.

اكتفيت بالصمتِ لأنّني أعلم أنّ الأمر قد قُضي وانتهى ولا رجعة فيه، ولأنّني كنت في أمس الحاجة للهروب لحظتها من هذا المكان القذر.

التمستُ العذر للعم إبراهيم، وصافحته بحرارة ومضيت في حالِ سبيلي.

الفصل الخامس

الخوف هو ظلّ الأشياء التي لم تحدث بعد

1

ثمّةَ خوفٌ لا يُفارقني، يُرافقني كالظلِّ، كلما حاولت الابتعاد عنه لحقني، خوفٌ ينازعني كل لحظة فرح، يُنغّص عليَّ بهجة الحياة، ويختلس مني فُتات الأحلام التي يُلقي بها القدَر في طريقي.

أصبحت أتأمل في ماهية الإنسانية، إنسانيتي أنا تحديدًا. باتت السعادة بعيدة عن متناولي، خارج دائرة احتمالاتي. لم أعد أطمح إليها، كل ما أرجوه الآن هو شيء من الطمأنينة وبعض من الراحة.

أشعر أن لا أحد يُقيم لإنسانيتي وزنًا أو اعتبارًا، وكل ذلك بسببِ دمامتي! فعلى قَدر الجمال المرسوم على وجهك، تكون قيمتك كإنسان. هذا ما كنتُ أحسُّ به وأراه في عيونِ الآخرين حين تلتقي نظراتهم بوجهي. أن تكون دميمًا فأنت بين مطرقة السخرية وسندان الرفض، مهما تكن طيّبًا ومهما تسعى من أجلِ أن تكون شخصية مقبولة في مجتمع كالذي أعيش فيه، بل ربما في كل مجتمع.

عندما كنت بعد في المدرسة، أحظى بذلك الحب والحنان من الأستاذ علي، كنت أعيش شغفًا بالقراءة عن جمال الروح، وأصدّق أن ما أحمله في داخلي من نور أبهى وأعظم من ملامحي القبيحة. لكن مع الأيام، ومع رحيل الأستاذ علي عن عالمي، اكتشفت زيف ما قرأته، وأيقنت شيئًا فشيئًا أن العالم لا يمنح الدميم سوى خيارين: أن يتجرع مرارة السخرية والرفض بصمت، أو أن يتحول إلى مخلوق قاسٍ يحمل في داخله انتقامًا لكل لحظة ضعف.

يقولون إن الفقير إذا كدّ واجتهد، قد يصنع لنفسه حياة أفضل، وربما يصبح ثريًا يومًا. لكن ماذا عن الدمامة؟ لا مخرج لها سوى ظلال التهميش، تنمو كجرح لا يندمل. فكيف إذا اجتمع الفقر والدمامة؟

ها أنذا الآن، مرة أخرى، من دون عمل، مع أنني جاهدت وبذلت من أجل أن أحظى بمكانةٍ في عملي ولو على حساب تعبي.

واصلت السير لساعات، تائهًا بين الأفكار التي تناوبت على اقتحام رأسي، حتى أثقلني التعب وأوشكت قدماي على الاستسلام. ومع ذلك لم أرغب في العودة إلى «عزبة» ياسين قبل الموعد المعتاد، كأنني كنت أهرب من نفسي أكثر مما أهرب من المكان.

كنت قد وصلت إلى ملعب الكرة، فاتجهت إلى تلك المرتبة المتهالكة في أحد أطرافه وارتميت عليها حتى طلعت الشمس وقدّرت أنّ ياسين خرج إلى عمله، فلم تكن بي طاقة للحديث عن أيّ شيء، وخاصةً عن طردي من العمل.

ها قد مضى شهران على طردي من الكازينو، عشتهما في حالة من الخمول. أجد صعوبة ومشقة في تجميع أفكاري للخروج مما أنا فيه من شعور بالخيبة والضعف. أتصرف كمنسحب من الحياة، ومن ياسين أيضًا. أخرج قبيل موعد عودته وأبقى أتسكع حتى آخر الليل لأرمي بنفسي على تلك المرتبة حتى شروق الشمس.

عدتُ إلى سابقِ عهدي من الضياع، أَقضي الليل بالسهرِ مع أبناءِ الحارة الذين استمروا يرتادون الأماكن نفسها ويجلسون على الدّكة ذاتها. لقد تغيّرت غالبية الوجوه، ومعظم المجتمعين أصغر مني سنًا. افتقدت أقراني؛ فمنهم من شغلته شؤون الحياة ومنهم من عافت نفسه هذا المكان، لكنّني كنتُ أُرغم نفسي على الجلوسِ مع مَنْ تبقّى، لأنني صرتُ أخاف من الوحدة التي تجعلني دائمًا في مواجهةٍ مع مصيري، ومع الأسئلة التي تُزعزع سكينتي.

حاولتُ أن أنزع من رأسي الأفكار التي تؤرقني، وأعود لأعيش مثلما كنتُ في السابق، لكن كيف يمكنني أن أهرب من واقع أنني كبرت،

والإنسان عندما يكبر يفقد كثيرًا من شجاعته! ويُدرك بأنّ الحياة ليست «مقامرة» تراهن عليها بعبثٍ كي تكسب ما تحلم به بضربة حظّ. فكرة أنني أكبُرُ وتصبح السنوات عبئًا ثقيلًا وأصير أقلّ شأنًا، معادلة كانت مخيفة بالنسبة لي. أخاف مما سأكون عليه بعد عشرِ سنوات؟

تلك الأفكار المخيفة كانت تتوغل بحدّة في عقلي، وكانت تخيفني وتدفعني للتفكير في حل لوضعي بعد أن عدتُ مفلسًا ومضطرًا لمواجهة نظرات ياسين الثقيلة، ونداء معدتي الذي لا يرحم.

كلما واجهت رفضًا في محاولاتي للبحث عن عمل، كنت أفكّر في الرقم الذي أعطانيه «المجعرم»، أسحبه ثم أستبعده، حتى كان ذلك اليوم الذي لم أستطع فيه النوم بسبب الجوع... فاتصلت به مستخدمًا هاتف ياسين. ما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى سمعت صوته الأجش يقول لي:

- ها أنت أخيرًا تتنازل وتتصل بي.

تجاهلت سخريته، وقلت:

- أنا أتصل بك كي أذكّرك بوعدك لي.

- وماذا وعدتك... لقد نسيت؟

- وعدتني بعد المشكلة التي حدثت في الكازينو أنك ستساعدني بالحصول على عمل في حال طُردتُ من العمل في الكازينو.

فقال مبتهجًا:

- الحمدلله أنك طُردت من ذلك المكان، وأنا لا زلت عند كلامي، انتظرني غدًا عند الساعة الرابعة عصرًا بجانب بقالة العم أحمد.

على الرغم من رأيي بـ«المجعرم»، شعرت بفرحة، وأكدت له أنني سأكون بانتظاره.

أغلقت السماعة، وأنا أفكر في طبيعة علاقتي بهذا الإنسان، وفي مشاعري المضطربة تجاهه؛ فتارة أشعر بأنه يهتم بأمري، وتارة يكون هو نفسه من يدمّر كل شيء من حولي. كلما حاولت أن أكرهه أجدني

أُحبه بسبب نُبلهِ وحرصه على الوقوف بجانبي، وإن كنت لا أدري إن كان تصرّفه تسبّب بطردي من الكازينو، فالمؤكد أنه اقتصّ لي من تجنّي محجوب عليّ.

على الرغم من السُمعة السيئة التي اشتهر بها درويش، بقي وفيًا لأبناء حارته. تشعر وأنت تراه في كل مرةٍ يذرع شوارع الحي وأزقته الضيقة بأنه المعني الأوّل بحمايتها. كل من في الحي، مِن أقرانه ومَن هم على شاكلته في الفتوّة والقوّة، يكنّون له الاحترام والتقدير، ولا أحد يجرؤ على التصادم معه. وأنا كنت ممزَّقًا بين احترامه ورغبتي بالابتعاد عن أمثاله، لكن ها أنذا عالق في شباكه للمرة الثالثة بعد الموقف الذي وضعني فيه مع العم أحمد، ثم تدخّله في الكازينو، والآن أشعر بتناقض مشاعري نحوه بين الخوف والشكر. لكن في كلا الحالتين أكره ضعفي وجبني.

يطمئنني أن نبتعد نحو أحياء بعيدة، حيث وجوه لا تحمل ملامح الذكرى، وهواء نقي قد يزيح عن روحي عبء هذا الاختناق الذي أطبق على صدري طويلًا.

كل ما أعرفه أنني قد أعمل حارس أمن في إحدى «الشاليهات» أو «الكبائن» كما نسميها نحن في جدة. لا أدري لماذا كنّا نطلق على تلك المنطقة الجميلة بـ «الكبائن» تلك الشاليهات الممتدة على شاطئ أبحر الشمالي.

كنت جالسًا بجانب درويش مثل طفلٍ يدفن في داخله كل رغباته، لا أجرؤ على الحديث معه. ولأن الطريق كان طويلًا، قلت محاولًا تبديد وحشة الصمت:

– يبدو أن المكان بعيد جدًا.

ابتسم ابتسامة جافة وقال:

- بعيد أو قريب، المهم أن تجد عملًا تسترزق منه. لا يوجد راحة أبدًا في هذه الحياة، ولا تتخيل أن أحدًا حصل على السعادة من غير أن يدفع الثمن. كل شيء له ثمن!

لم أعتد على مثل هذا الكلام الغريب بالنسبة لي، ومِمن؟ من درويش «المجعرم» الذي يحصل على كل شيء تشتهيه نفسه ولو بالظلم والبطش؟ فكيف تُراه يدفع الثمن؟

فاجأني كلامه! فقلت:

- أعلم أن الحياة متعبة، لكن هناك مَن يدفع أكثر مما يأخذ، وهناك من يأخذ أكثر مما يدفع.

بقي صامتًا وكأنه يعيد ترتيب الكلام في رأسه، ثم قال:

- مَنْ يدفع أكثر مما يأخذ مسؤول عن عجزه. لا أحد سيمنحك شيئًا بدافع الحب، أو من دون مقابل، فالحياة تقوم على المنفعة والمصلحة فقط.

قلت مستنكرًا:

- لم يحصل أن وجدت مَنْ يعطيني مقابل ما يطلبه منّي.

ضحك مقهقهًا بصوتٍ، وقال:

- لأنك لا تملك شيئًا!

ابتسمت بمرارة من سخريته. وسألته:

- وهل دفعت أنت الثمن؟!

غرس في عينيّ نظراته رافعًا أحد حاجبيه:

- أنا دفعت الكثير. دفعت الكثير من دون أن أحصل على مقابل... وقد جاء دوري لأجعل الآخرين يدفعون الثمن وهم صاغرين!

سألته بفضول:

- من هم هؤلاء الآخرين؟

قال وفي نبرة صوته شيء من الحقد والغل:

– الذين دمّروا طفولتي، والذين تسببوا في سجني... الذين جعلوا مني شيطانًا يمشي بين الناس. صمت قليلًا وأكمل: أنا يا «هر» لست إنسانًا سيئًا، أنا أطيب مما تتصور، لكن لا أُظهر هذه الطيبة ببساطة، صرتُ أخاف أن أعود ضعيفًا مرة أخرى، لا يمكنني ذلك.

شجّعتني كلماته على أن أتجرّأ، فقلت:

– ولكن الناس سيكرهونك، وأنت تعلم أنهم يُظهرون لك الودّ خوفًا منك ومن بطشك.

ابتسم وقال:

– أن يُظهروا لي الود خوفًا مني، أفضل من أن يستضعفوني ويسخروا من ضعفي.

عبارته تلك اخترقت قلبي، فقد بدا لي أنني المعني بها.

2

ظهر البحر أمامنا بامتداده الجميل، ورأيت الناس على حافته يفترشون الأرصفة. لا أذكر أبدًا أنني ذهبت إلى «أبحر الشمالي»! فأقصى نقطة وصلت إليها في الكورنيش هي ما يُسمى بـ«حمراء سنتر»، وهي الجزء الجنوبي القريب من أحيائنا المدفونة في العدم، وكان ذلك لمرات قليلة في أعياد الفطر.

كل ما أعرفه أنني قد أعمل حارس أمن في إحدى «الشاليهات» أو «الكبائن» كما نسميها نحن في جدة. لا أدري لماذا كنّا نطلق على تلك الشاليهات الممتدة على شاطئ أبحر الشمالي، «الكبائن». لم أكن أتصوّر وجود هذا المكان الجميل في جدّة.

راح درويش ينعطف بسيارته في منحنيات الطريق المحاذية للكورنيش حتى توقف في منطقةٍ رأيتُ أجزاء من الشاليهات التي بداخلها تطل من خلف السور. نزل من السيارة واتجه مشيًا نحو المدخل الرئيسي، وكنت أتأمل طوله الفارع وقامته المهيبه حتى وصل إلى بوابة مفتوحة على مصرعيها يعترض مدخلها جسرٌ طويل من الحديد يمنع دخول وخروج السيارات إلّا برفعه بشكل إلكتروني بواسطة الموظف الذي بالكاد كنت أرى رأسه الأسود داخل غرفة زجاجية بجانب المدخل.

جلتُ ببصري في تلك الشاليهات المتشابهة والمتناسقة بطريقة هندسية رائعة ومتسائلًا عمّا سيكون عملي هنا يا تُرى، هل سأكون حارسًا لإحدى هذه الشاليهات؟ أم خادمًا لسكانها؟ أو ربما عامل نظافة داخل هذا السور؟ لا أدري تحديدًا ماذا سيكون عملي في هذا المكان الراقي، وفي هذه البقعة النائية عن سكني وعن جنوب جدة بأكملها.

بعد وقتٍ قصير من دخول درويش تلك الغرفة الزجاجية رأيت رجلًا

أسمر قصير القامة يلبسُ ثوبًا أبيض قادمًا من الداخل ومتجهًا نحو الغرفة الصغيرة، فقام له درويش وتعانقا كأنهما صديقان مقرّبان.

انتظرت أنا في السيارة لبضع دقائق وهما يتحدثان، إلى أن فتح درويش باب الغرفة وأشار بيده نحوي. خرجت من السيارة مسرعًا وأنا أرى علامات الدهشة والاستغراب واضحة على وجهِ ذلك الرجل، شعرت بأنه قد صُدم من شكلي وقامتي القصيرة، لا أدري بالضبط ما تخفيه تلك النظرات التي مزَّقتني ولكنني رأيتها نظرات سخرية.

دفعت باب الغرفة بحذر، ثم تسللت بخطى هادئة وألقيت التحية بصوت منخفض يكاد يتلاشى. استقبلني الرجل الأسمر بملامح طغت عليها غرابة التناقضات؛ عيناه الصغيرتان غائرتان في وجه منتفخ، شفاهه السميكة مكتنزة بحدة، وشيب أبيض متفرق يغزو شعره المجعد، بينما شارباه الكثيفان يتمازجان بلونه الداكن، وكأن الزمن نحت ملامحه على عجل.

عرّفني درويش عليهما، فقال لي وهو يشير إلى صاحبه: «هذا عبدالله، أو عبده، مسؤول الأمن في هذا الشاليهات»، ثم استدار إلى الرجل الآخر وأضاف: «وهذا عمر، زميلك في الأيام المقبلة». فألقى عمر نظرة خاطفة وكأن الأمر لا يعنيه.

قال عبدالله:

- إن شاء الله تبيّض الوجه، فلولا ثقتي بدرويش لما وظفتك هنا.

ثم أضاف موضّحًا بلهجة حازمة:

- العمل هنا مسؤولية، والمكان له خصوصيته، ويحتاج منك الحرص والأمانة، وفوق ذلك الشجاعة والقوة!

كنت أستمع إليه ورعشة خوفٍ تسرّبت إلى أطرافي، فأنا أخاف مثل هذه المسؤوليات الكبيرة، مع أنني لا أعلم شيئًا عن الدور المناط بي في هذا المكان الغريب والبعيد، كما أنّ نبرة عبدالله أثارت القلق في نفسي وجعلتني أتخوّف من شيء أجهله تمامًا.

رفع درويش صوته في وجهي وكأنه رأى شرودي:
- فهمت الكلام يا «هِرّ».
أجبته باهتمام، وكأنني عسكريّ في حضرة الضابط:
- فهمت... فهمت... حاااضر.
ضحكا معًا على ردة فعلي حين أجبت درويش بهذه الكيفية المثيرة للشفقة على ما أظن!
فاجأني درويش إذ قال من دون أن يستشيرني في الأمر:
- ها يا عبدالله.. هل تريده أن يبدأ من هذه الليلة؟
ابتلعت ريقي بغصَّة وأنا أحشر الكلام في حلقي عاجزًا عن نطق أي حرف. كنت قلقًا جدًا من أن يوافق عبدالله وأنا لست مستعدًا لذلك، ولكن إجابته جاءت مريحة ومطمئنه حين قال:
- لا. الليلة صعب جدًا، فالرجل غير مستعد، وليس لديه «الزي الرسمي» الخاص بالأمن، كما يحتاج إلى تدريب لمعرفة المطلوب منه.
اطمئنّ قلبي بعد أن انتهى عبدالله من حديثه، لأنني لا أملك في جيبي سوى عشرين ريالًا، وخشيت أن أقع في مأزقٍ فيما لو بدأت العمل ابتداءً من هذه الليلة.
قال درويش وهو يصافح عبدالله:
- إذًا نراك غدًا إن شاء الله.
لكن عبدالله طلب منّا أن ننتظر قليلًا ثم دخل هو إلى الشاليهات، وجلست أنا داخل السيارة، وبقي درويش واقفًا يدخن في الخارج.
عاد مرة أخرى نحونا بجسمه المربوع، وخطواته السريعة، يحمل كيسًا لم أستطع تخمين ما بداخله، وابتسم في وجهِ درويش وهو يقول:
- هذه لصاحبك القصير!
ضحك درويش بصوتٍ عال وهو يقول:
- أعلم أنّني أحرجتك، وأن الرجل لم يكن كما تخيلته أنت، ولكن هذا جميل لن أنساه لك أبدًا.

التفتُّ إلى الناحية الأخرى متظاهرًا بأنّني لا أسمع شيئًا، لكن كلمات «عَبده» كما كان يختصر اسمه درويش في كل مرة، كانت تنخر قلبي كما تنخر حشرة السوس عمودًا من الخشب.

حين ركب درويش السيارة قذف الكيس فوق حجري وقال:

- اذهب الليلة إلى خياط وعدّل اللباس ليصبح على مقاسك.

نظرت إلى ما بداخل الكيس فإذا هو «زي رسمي» اعتدت رؤيته كثيرًا على حراسُ الأمن سواء في الأسواق، أو في المستودعات الكبيرة الرابضة في مساحات خالية من جنوب جدة.

رحتُ أقلّب ما في الكيس بين يديّ وكان بداخله قميص أبيض، وسروال أحمر داكن، وقبَّعة بلون السروال. وكانت أفكاري تبحث عن السبب الذي يجعل شخصًا مثل درويش يترك أعماله، أو حتى حياته الخاصة، ويتفرغ لمثلي وكأنني أدين له بشيء. فقد كان من المستحيل في نظري أن رجلًا عربيدًا كدرويش يُعطي بلا ثمن! خاصّةً بعد ما حصل حين جعلني أعمل في بقالة العم أحمد، فأيّ ثمنٍ يتوقعه مني هذه المرّة؟

ليكن ما يكون، أحتاج للعمل وعليَّ أن أعترف أنه لا أحد يكترث لأمري بعد إسماعيل سوى درويش، هذا الرجل الذي لا تربطني به أيّ صداقة حقيقية سوى أنه ابن حارتي، مع فارق السن الذي بيني وبينه.

حين اقتربنا من غليل ذلك الحي المطمور في تراب الفقر، قرّرت أن أطرد أيّ شكوك وأن أعمل بكل جدّ.

كسرَ درويش الصمت الذي كان يخيم علينا، وقال بنبرة آمرة:

- تذهب الآن إلى أقرب خياط وتضبط هذا اللباس على مقاسك، وغدًا نلتقي في نفس المكان عند الغروب فلا تتأخر.

أوقف سيارته في وسط الحارة وعيون أصدقائي ترمقني بدهشة متسائلة عن سر هذه الحظوة والمكانة التي يطمع فيها كل واحد منهم. فأن تكون برفقة درويش في سيارة واحدة، يعني أنك امتلكت حصانة قوية ضد أي اعتداء في حيّنا والأحياء الأخرى المجاورة.

قلت له بعد أن خرجت من السيارة:

- سأكون في الموعد المتفق عليه.

اتجهت إلى محل الخياط المحشور بين صفٍ طويل من المحلات، وعبارات أصحابي تلاحقني بالإطراء، وبعضها يطرح تساؤلات مريبة، لأن وجودك مع درويش على هذا النحو، يضعك في موضع شُبهة.

فتحت باب المحل ودلفت حاملًا بيدي الكيس، وسلمت على العامل الهندي الذي يعرفني بشكلي، لكنها المرة الأولى التي أدخل فيها إلى ذلك المحل الذي يستقبل دائمًا كل الأشكال والألوان، من النساء والرجال، لكن الغالبية كانت من نساء الحي، وأكثرهنّ من التشاديات، أو العمال.

حدقت في نظارته الكبيرة المرتخية على أرنبة أنفه، وصلعته التي احتلّت معظم رأسه إلا من شعر طفيف تشبث بجانبَيّ رأسه الصغير.

قلت له وأنا أمدّ له الكيس من النافذة الزجاجية الصغيرة:

- أريد جعل هذا اللباس على مقاسي.

بدأ يقلب الكيس بيديه الممتلئتين بالشعر، وأخرج القميص والسروال وهو يتأمل هيئتي وطولي، ثم لاحت على شفتيه ابتسامة سخرية وقال بلهجته العربية المكسرة:

- هذا كبير.

نظرت إليه باستنكار:

- كيف كبير يعني؟

طلب أن أجرّبه أمامه، وحين سحبت السروال عند الخصر إذا به يغطي ساقيّ مثل ستارة، كان طويلًا جدًا، وواسعًا حتى يكاد يبلغ صدري.

كان الهندي يبتسم وهو يتابع المشهد المضحك الذي يراه أمامه، وكنت أنا في غاية الحيرة. لا يمكنني التفكير بأي حل غير تعديل مقاس اللباس. طلبت منه:

- حاول أن تعدّل فيه بأي طريقة كانت.

أخبرني أنه لا يمكنه القيام بتعديل مناسب، فقلت له:

- لا يهم... أنت خذ المقاس، وفصِّل بالطريقة الممكنة.

لم يعر كلامي أي اهتمام، وراح يقلّب ذلك السروال، ويثنيه، ويُقيسه بالشريط الأصفر المتدلي على رقبته. ثم أبلغني أخيرًا بأنه غير مسؤول عن أي تشوّه يصيب السروال.

أومأت برأسي موافقًا. فخرج من جحره، وفي المساحة الضيقة بدأ يقيس طول ساقيَّ ويدوّن الأرقام في دفتر مهترئ، وحين فرغ أخبرني أنه سينتهي منه بعد ساعتين.

خرجت من المحل متجهًا نحو «المركاز» لعلي أجد بعض الأصدقاء، فمررت بمحاذاة بقالة العم أحمد، فإذا هو على حاله يلعب «الضومنه» مع رفقائه الذين اعتاد عليهم، ونحن بدورنا اعتدنا هذا المنظر، وكأنه مشهد تراثي سيبقى خالدًا في أذهاننا حتى وإن رحلوا.

تجاوزت البسطات وروائح البائعات الأفريقيات حتى وصلت إلى «المركاز» المطلِّ على كوبري الميناء فوجدت بعض الأصدقاء القدامى، والغالبية كانوا صغارًا لم أعتد الجلوس معهم. أخذت مكانًا فوق إحدى المراتب المهترئة وجلست القرفصاء، تأملت ذلك «المركاز» المصنوع من الخشب، وكان مقسمًا إلى ثلاثة أجزاء، كل جزء له قوائم أربع، وفوقها مفارش نتنة ومساند ممزقة.

بدأت أسمع تعليقات ووشوشات حول ركوبي في سيارة «المجعرم»، لكنّني لم أكترث بسخريتهم، وابتسمت ببلاهة وأنا أقلب عينيّ في سحناتهم، وأتذكّر تلك الليالي أيام كنت متسيدًا هذا المكان بلساني السليط، والمشاهد الكوميدية التي أقوم بها لأجعل من هذا «المركاز» مكانًا يضج بالضحك.

مرّت الساعتان سريعًا، وحين وقفت أستأذن منهم قال أحدهم ساخرًا:

- لم نعد نملأُ العين بعد درويش.

ابتسمت نصف ابتسامة وقلت من غير أن ألتفت نحوه:

– قفل فمك قبل لا أخلي «المركاز» كله يضحك عليك. شكلك ما تعرف «الهِر».

تعالت قهقهاتهم وأنا أقف لأغادر بينما استمروا يرشقونني بكلمات لاذعة تجاهلتها.

– منذ متى صرت مشغولًا؟

– لا تكون مدير ونحن لا نعلم.

– منذ أن عرفناك يا «هرّ» وأنت تزداد دمامةً وقبحًا.

– يا رجل حتى طولك لم يزدد ولو سنتمر واحد.

يضجّ المكان بالضحكِ ويتواصل الحشّ. تغاضيت عن كل ذلك لمعرفتي بأنّ هذا هو ديدن أبناء حارتي؛ السخرية، التعليقات اللاذعة والحش في الناس، وكرة القدم هي متنفسّهم.

مشيت أحدق في وجوه المارة متفحصًا سحناتهم التي تتشارك البؤس. وصلت أمام محل الخياطة فأخبرني الهندي أنه يحتاج لبعض الوقت. مشيت بخطوات متثاقلة نحو صبَّة الإسمنت التي تحتل مساحة صغيرة أمام المحل. وجلست فوقها معطيًا ظهري لواجهة المحل حتى جاءني صوت العامل يخبرني أنه أنهى تقصير اللباس. مدّ لي الكيس بخفة، مكررًا بصوت لا يخلو من الحذر أنه غير مسؤول عما أصبحت عليه البدلة والسروال بعد التعديلات. بدت كلماته وكأنها درع يتخفى خلفه، يدرأ عن نفسه أي ملامة قادمة. علمت أن هذا اللباس سيكون أضحوكة عندما أرتديه.

سألته عن أجرته، فأجابني أن المبلغ عشرة ريالات. شعرتُ براحة لأنّ المبلغ بحوزتي. دفعت له وخرجت أتأبّط ذلك الكيس وبالي منشغل بما سيكون عليه مظهري.

3

لم أجرؤ على تجريب اللباس بوجود ياسين، فرميت الكيس بين ملابسي المرمية أسفل الجزء المخصص لي من الدولاب المهلهل في الغرفة. في اليوم التالي، بعد خروج ياسين سحبت الزيّ وارتديت القميص الذي كان مجعّدًا وكُماه طويلان، ثم لبستُ السروال الذي تحول شكله من بنطالٍ أنيق إلى سروال يُشبه السراويل الباكستانية، كأنه معبأٌ بالهواء من الأعلى، وعريضٌ عند الركبتين، ثم يضيق تدريجيًا في الأسفل. صرتُ أدور في الغرفة مثل ذئب حبيس مدلّيًا رأسي أنظر في هذا السروال العجيب.

كانت هيئتي مضحكة جدًا، كأنني مستعد للخروج نحو جمهرةٍ من الأطفال بزيّ مهرج من أجلِ إضحاكهم، وإضحاك الناس. كنتُ مضحكًا لا ينقصني شيء من البشاعة الساخرة، لا في الخِلقةِ ولا في اللباسِ. كان بودّي أن أرمي هذا اللباس في أقربِ قُمامة، لكن كيف أفعل وليس في جيبي سوى خمسة ريالات، ومهدّد بالطرد من «العزبة» التي أسكنها. رحت أرتّب طويات كم القميص وأحاول شدّ السروال على خصري. في تلك اللحظة لم تكن تهمّني السخريات بقدر ما كان يهمني أن أجد مأوى آوي إليه كل ليلة، وثمن رغيف خبز ولو غمسته بالماء.

لم أفكر بالخروج قبل أن تميل الشمس إلى الغروب. أحاول تجنّب السخرية والغمز واللمز والضحكات التي قد أسمعها من كل الذين يعرفونني في الحي. أنتظر الغروب حتى أستطيع التسلل بين الأزقة والسيارات التي تتوقف بعشوائية في الشارع الذي يتوسط الحي، حيث ضربتُ موعدًا للقاء درويش.

حين تناهى إلى سمعي أذان المغرب، فتحتُ مزلاج باب «العُزبة»

والقلق يساورني. اعتمرتُ القُبعة محاولًا أن أغطي بها مُقدمة وجهي. وانطلقت مسرعًا في الأزقة حتى أشرفتُ على الشارع. التفتُّ يمنةً ويسرة علّي أجد سيارة درويش، لكنني لم أعثر عليه.

خفت أن أكون قد تأخرت عليه فذهب وتركني. انتابني شعورٌ بالقلق. كنت أقرفص بين سيارتين وأدور برأسي في كل الاتجاهات بحثًا عنه. أطلّ برأسي مثل جندي في خندق يخاف طلقة قنّاص. خمنتُ أنه لن يستطيع أن يراني وأنا في هذا الوضع.

حاولت أن أستجمع قواي وأخرج للعلن، لكن نفسي تصارعني خوفًا من أعين الناس ومن سخرية أبناء حارتي. أخيرًا رأيت درويش يوقف سيارته في منتصف مدخل الزقاق غير عابئ بإقفال الطريق، وهو ما جعلني أسرع قبل لفت الأنظار.

ركبت إلى جانبه صامتًا منكمشًا على نفسي، إلى أن تفوَّه هو ساخرًا:

– ما هذه «الخيشة» التي تلبسها.

قلت محاولًا تصنّع الابتسام:

– هذا الموجود.

سألني بصوتٍ أكثر جدية:

– هذا هو اللبس الذي أعطاك إياهُ عبده؟

– نعم.

قال مستغربًا:

– ولمَ لم تشترِ غيره بعد أن علمتَ أنّ مقاسه كبير عليك إلى هذا الحد؟!

فضّلت الصمت، فلم يكن من السهل أن أقول له ليس لديّ مال، وحاولت أن أهرب من سؤالهِ بطريقة أخرى:

– لا أعرف من أين أبتاع مثل هذه الملابس الخاصة بالأمن.

لاذ بالصمت غير مقتنع بما قلت.

حين توقف بسيارته أمام الشاليهات قال لي بهدوء:

- عليك أن تدبّر نفسك في العودة.

انعقد لساني ولم أنبس ببنت شفة، فلم أكن أحتاج إلى مثل هذا الخبر الذي زاد من همّي وقلقي، فكيف سأعود إلى البيت في وقتٍ لا بدّ سيكون متأخرًا في الليل. كيف سأجدُ وسيلة نقلٍ في ذلك الوقتُ؟ كيف؟ وحتى لو وجدت فأنا لا أملك المال!

وقفت للحظات أشيّعه بنظراتي حتى اختفت سيارته. ثمّ عبرت البوابة من فتحة صغيرة بالكاد استطعت أنا بجسدي الهزيل أن أدخل عبرها، وتوجّهت إلى تلك الغرفة الصغيرة التي كان الجزء العلوي منها كله نوافذ من زجاج، حتى يتسنى لمن بداخلها رؤية كل من يدخل ويخرج من هذه الشاليهات، أمّا السفلي فكان مصنوعًا من الألمنيوم الأبيض.

اتصلَ عُمر بعَبده من واحد من التلفونَين الموضوعَين أمامه لكي يخبره بقدومي. كان عمر من أولئك الأشخاص الذين لا يفتحون أيّ نافذة للكلام، بل يقيمون بينهم وبين الآخرين حواجز تبقيهم بعيدًا عن الخوض في تلك الأحاديث التي نقصد أن نجعلها جسرًا للزمالة أو الصداقة.

ما هي إلّا دقائق حتى سمعت صوت عبده الذي يشبه بَطبطة البط وهو يتكلم بحدة وبصوتٍ مرتفع عبر هاتفٍ نقّال لا سلكي يحمله بيده حين التقت عيناي بعينيه. كانت تبدو عليه ملامح التعب والإجهاد، والعرق يتفصّد على جبينه. لم تعجبه هيئتي ومظهري غير اللائق. أدركت ذلك من خلال عينيه وهو يتفحّصني وقد بدت الدهشة واضحة في نظراته.

قال لي مستغربًا وهو يشير بأصبعه إلى لباسي:

- ما هذا يا يوسف؟

قلت متلعثمًا:

- اللباس كان أكبر من مقاسي.

فقال مستنكرًا:

– وإن كان كبيرًا، هل تأتي بهذا الشكل؟!

شعرت بنوع من الخدر يجتاح جسمي كله. كان الخوف من طردي يجعل الدموع تنفر من عينيّ وتمنيت أن تنشقّ الأرض وتبتلعني. طلب مني أن أركب معه في سيارةٍ غريبة، صغيرة الحجم ومكشوفة، لها أربع عجلات وتحتوي على أربعة مقاعد ضيقة ومتقاربة، اثنان في الأمام واثنان في الخلف.

رحنا نتجول بهذه السيارة داخل الشاليهات وكانت عبارة عن فلل صغيرة، وأخرى كبيرة لكنها بتصميم متشابه تقريبًا. شعرتُ بأنني داخل حي راقٍ فيه شوارع من الأسفلت مخططة ومرسومة بعناية تتفرع في المكان بشكل هندسي رائع، ناهيك عن أشجار النخيل الموزّعة ببراعة فوق الأرصفة، وأعمدة الإنارة التي أضفت على المكان لمسةً ساحرة بإضاءتها الصفراء الخافتة. جمال المشهد هدّأ قليلًا من روعي. لم أتخيل وجود مكان بهذا الجمال في جدة.

تكلم عبده بصوتٍ مزعج وحادّ كاد أن يفجّر رأسي لأن المقعدين شبه متلاصقين، وأذني عند مستوى فمه تمامًا.

قال لي شارحًا مهماتي:

– هذه الشاليهات منها ما هو للإيجار، ومنها مُلكٌ لأصحابها وقد نؤجّرها إذا طلب منّا المالك ذلك.

لم أفهم شيئًا مما قصده، ولا ماذا يريد مني تحديدًا، فسألته:

– ماذا تعني بشاليهات للإيجار، وأخرى غير مملوكة.

قال وصوته يزداد حدة:

– الناس يأتون ويستأجرون هذه الشاليهات، بعضهم يستأجرونها ليوم واحد، وبعضهم ليومين، وهناك من يستأجرها لفترات أطول. والهدفُ هو التمتّع بالمكان، وما نقدّمه من خدمات. فالشاليهات كلها تطل على البحر، ونحن نقوم بتنظيف الشاطئ يوميًا ليبقى الرمل الناعم نظيفًا.

لم يدهشني كلامه على ما فيه من أمور لم أكن أعتقد بوجودها في جدة بقدر ما أدهشتني رؤية فتيات بلا حجاب أو عباية يقدن الدراجات ويتجوَّلن بحرّية تامة. كنت أشعر بمشاعر مختلفة بين الدهشة والرهبة من هذا المكان بينما كان عبده منهمكًا في شرحه. لكنني لم أجرؤ أن أقاطعهُ وأسأله عن تلك الفتيات وعمّا إذا كان سفورهنّ أمرًا عاديًا، أم مطلوب مني إيقافهن ومحاسبتهن. لكنني لاحظت أنه لم يُلقِ نظرةً باتجاههن، وكأن الأمر لا يعنيه أبدًا، بل استمرّ في كلامه عن الشاليهات ومرافقها العامة والخاصة، حتى توقفنا أمام بوابة كبيرة من الحديد فيها باب صغير يقف أمامه حارسان يرتديان لباسًا مختلفًا عمّا أرتديه. فقد كان زيًّا أسود اللونِ، وهما أيضًا من ذوي البشرة السوداء، طويلا القامة، مفتولا العضلات، هيئتهما مهيبة.

عندما نزلنا من تلك السيارة أدهشتني أكثر رؤية نساء ورجال يدخلون ويخرجون عبر هذا الباب الصغير، فقال لي من غير أن ينظر إليّ، وكأنه أدرك اندهاشي:

- دعنا ندخل كي أريك «المارينا».

تبعته وأنا أحدج منكبيه العريضين، وقدميه الصغيرتين، ومؤخرته التي ترتجُ على وقع خطواته السريعة على الأرض.

بعد أن تجاوزنا هذا الباب الصغير، ذُهلت مما رأيت. لأولِ مرةٍ في حياتي أرى مثل هذا المشهد الذي أخذ بتلابيب قلبي. كم كنتُ أتمنى أن لا أدخل هذا المكان وأنا بهذا الشكل المضحك.

توقفت فاغرًا فاهي، فجاءني صوت عبدالله الحاد مخترقًا أُذنيّ:

- امش، ماذا تفعل هناك!

أتيته مُسرعًا. كانت «المارينا» عبارة عن مجموعة مطاعم ومقاه فاخرة متلاصقة في منطقة وسط البحر على شكل نصف دائرة، وأمام كل مطعم أو مقهى مجموعة من الطاولات والكراسي مختلفة الأشكالِ

والألوان، وكل مطعم يختلف عن الآخر، وفي وسطها مسرحٌ مكشوف. كانت الأغاني تصدح من كل مكان، فهنا يصدح صوتُ أم كلثوم، وهناك صوت محمد عبده، وفي مكان ثالث يتناهى لي صوت موسيقى غربية... وهكذا! كل مكان له جوّهُ الخاص.

لكن المشهد الذي استمرّ يذهلني هو كثرة النساء اللاتي كُنّ يملأن المكان، يجلسن فوق الكراسي كأنهن ندف الثلج من بياضهن، وتبرّجهنّ الصارخ في وجوههن المكشوفة، وشعورهن تتحرك مع النسيم العذب الذي يزفّه البحر إلى ذلك المكان.

كان قلبي يخفق بسرعة كلما سمعتُ قهقهاتهن وهن يتمايلن على أنغام الموسيقى المنبعثة من كل مكان، وبأيدي معظمهنّ «خراطيم» النرجيلات يُعسّلنَ بأريحية تامة. أما الصدمة التي تجاوزت الدهشة فكانت رؤية رجال ونساء لا يمكن أن يكونوا عوائل، يجلسون على الطاولة نفسها. كان الوضع مخيفًا بالنسبة لي، ولكنه ممتع أيضًا.

ظللتُ أتبع عبدالله بعينين تتسعان دهشة وسط هذه الأجواء الصاخبة. وعلى الرغم من الدهشة التي تغمرني، والتي تُشبه تمامًا دهشة طفل يدخل لأول مرة مدينة للملاهي والألعاب، إلاّ أنني كنت أتمنى أن لاّ يكون عملي في هذا المكان، فأنا رجل لا يجيد التعامل مع النساء، وعندي عقدة متأصلة في أعماقي تجاههن وفي داخلي رهبة، أظنّها ستظلّ متشبثة بروحي ولن تفارقني أبدًا، من الحديث مع أيّ امرأة، أو حتى الوقوف أمامها. كلما رأيت امرأةً أتذكر دمامة وجهي، فينقبضُ قلبي وأتذكر كلمة سعاد التي لا تزال تطنّ في أذني: «معفّن»، فكيف حالي لو وقفت أمام هاته النسوة بجمالهنّ الباذخ.

خرجنا من «المارينا» من دون أن ينبس عبدالله بأي كلمة، بل كان مشغولًا بهاتفه النقال اللاسلكي، وبتفقد المكان والتأكد من وجود حراس الأمن في أماكنهم وأن كل شيء يسير على ما يرام.

أدخلني مكتبه الذي كان عبارة عن حجرة صغيرة من الألمنيوم الأبيض، ترتفع عن الأرض درجتين، لها باب ونافذة واحدة، وفيها مكيّف ومكتب معدني صغير عليه ثلاثة تلفونات، وأوراق متناثرة، وعلبة أقلام وباكيت دخان فوقها ولاعة صفراء اللون، وخلف المكتب كرسي دوار له عجلات صغيرة.

قال لي بعد أن قذف بنفسه على ذلك الكرسي، وأنا واقفٌ أمامه:

- هذه جولة سريعة على المكان، وأنا تعمدت أن تكون عندك فكرة عن المكان مع أن عملك على البوابة الخارجية مع عمر.

انفرجت أساريري وغمرني ارتياح سرعان ما تراجع لأنه غيّر طريقة كلامه فجأة وراح يتحدث بنوع من الترهيب والتهديد. فقال:

- كل المشاكل التي تكون في داخل الشاليهات، سببها الرئيسي يأتي من البوابة الخارجية! لذلك فليكن واضحًا أنّ المسؤولية تقع عليكما أولًا، وأنتما أول من سيحاسب على كل مشكلة تحصل هنا بالداخل.

فقلت له بصوتٍ خافت:

- هل يمكن أن تشرح لي، فأنا لم أفهم حتى الآن ما المطلوب مني بالضبط؟

أعاد ظهره إلى الوراء حتى سمعت صوت اطيط ظهر الكرسي وقال:

- سأشرح لك بالتفصيل، ولكن انتبه لكلامي جيدًا.

أمسك بالقلم المرمي أمامه وراح يقلبه عبثًا بين أصابعه وهو يقول:

- مسؤوليتك الأولى هي ألّا تسمح للشباب من الذكور بالدخول لوحدهم من غير عوائل، إلاّ إذا كانوا مدعوّين من قبل مستأجري شاليهات بالداخل.

- وكيف أعرف ذلك؟

- من خلال الاتصال على الفيلا نفسها والتأكد من أصحابها، إن كان هذا الشخص مدعوًا من جانبهم. هذا الأمر الأول، أما بالنسبة للأمر الثاني، فممنوع منعًا باتًا أن تُدخل أيّ أحد من أصدقائك أو معارفك من غير إذن مني، أو من غير تصريح.

قلت له وملامح الحزم والجدّ على وجهي:

- بالتأكيد سأنفذ ما طلبته.

- واسأل عمر عن أي شيء يُشكل عليك، وهو سيساعدك.

- حاضر.

انشغل عبدهُ بالاتصالات وظللتُ واقفًا لا أدري ماذا أفعل. تنحنحتُ فالتفتَ نحوي وكأنه انتبه لوجودي، فقال:

- ماذا تنتظر، لماذا لا تذهب؟

قلت مترددًا:

- إلى أين؟

قال ساخرًا:

- إلى بيتِ أمك!

ثم ضحك بصوت عالٍ وأضاف:

- إلى أين؟ إلى البوابة، هيّا اذهب جريًا.

ضحكت إذ علمت أنه يضحك من توتري وقلقي اللذين جعلاني أبدو غبيًا أمامه. وخرجت أجري حتى وصلت إلى البوابة وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة.

4

مضى اليوم الأول وكان أحسن مما توقعت، حتى اللحظة التي كنت أخشى قدومها مرّت بسلام، وهي لحظة انتهاء دوامي وخروجي من ذلك المكان المقطوع عن الناس في وقتٍ غطّت فيه المدينة بأكملها في نوم عميق.

خرجت والسكون يلف المكان، لا ترى ولا تسمع أي صوتٍ لسيارة عابرة. كان الشارع مخيفًا رغم الإضاءة البرتقالية الخافتة التي تشعُّ من أعمدة الإنارة وأنا أفكر كيف يمكنني العودة الآن إلى البيت؟ فإذا عمر يزيح هذه الغُمّة عن قلبي ويتوقف بجانبي بسيارته الكريسيدا البيضاء ويسألني مستغربًا:

- هل تتوقع أن تجد أحدًا يقلّك الآن؟!

- لا أدري.

ثم أضاف وكأنه قد تورط بي:

- أين تسكن؟

- في حي غليل.

قال من دون إطالة:

- اركب.

كان عمر لا يزال يتحاشى الحديث معي. طيلة الساعات التي قضيتها معه في تلك الغرفة لم يكترث بوجودي، وظلّ مطبقًا فمه عن الكلام. بدا لي وكأنه لا يريد توطيد أي علاقة في مكانِ عمله، ولا يتكلم إلا حينما أسأله عن شيء في العمل.

شدّ انتباهي اعتناؤه بهندامه، ورائحة العطر الهادئة التي تخترق أنفي كلما اقتربت منه، وجسمه الرياضي المتناسق مع طول قامته. كانت ملامحه جميله بالرغم من السُمرة الطاغية على بشرته، إلّا أنني رأيته أنيقًا في كل شيء.

عندما توقفنا بمحاذاة حي غليل، سألته على استحياء:
- أين تسكن يا عمر؟
- لست بعيدًا عنك.
سألته مرةً أخرى:
- أين بالضبط؟
- في النزلة.
حين فتحت باب السيارة قال لي:
- كيف ستأتي غدًا؟
كنت في حيرة بماذا أجيبه، فقلت:
- سيدبّرها ربّك.
فقال:
- هل تعرف البريد السعودي في النزلة؟
- نعم.
- انتظرني غدًا هناك عند الساعة الخامسة مساءً.
كان يتحدث معي بملامح جامدة لا تشي بأي شيء يُدخل تساؤلات في نفسي. فشكرته من أعماق قلبي ثم ودّعته.

كان العمل في وسط الأسبوع مريحًا أحيانًا، ومملًا في بعض الأوقات، مقارنةً بالصخب الذي يحدث يومَيْ الخميس والجمعة، إذ يبلغ الازدحام ذروته جراء الكم الهائل من السيارات التي تقف طابورًا أمام البوابة الخارجية تنتظر دورها في الدخول، ويكون علينا أن نقوم بتفتيشها واستلام التصاريح من أصحابها حتى نأذن للسيارة بالدخول بمن فيها.

أحيانًا تصادفنا بعض المشكلات التي اعتدت عليها، مثل محاولات بعض الشباب الدخول عنوةً إلى الشاليهات من غير تصريح أو دعوة من

قِبل المستأجرين في الداخل. عندها نتصل بعبدالله فيرسل لنا حراس الأمن وهؤلاء معظمهم من ذوي البنية الضخمة مفتولي العضلات، مهمتهم السيطرة على الوضع وإبعاد المتطفّلين واستخدام القوة إذا اقتضى الأمر.

أمضيتُ ما يقارب الثلاثة أسابيع، عرفت خلالها الكثير عن أسرار تلك المهنة، إلاّ أنّ عُمر كان لا يزال يحتفظ بصمته، على الرغم من أننا صرنا نذهب ونعود معًا في سيارة واحدة. لم يكن تصرّفه مريحًا، فهو لا يعبّر عن مشاعره، وإذا سألته عن أمر يردّ بجوابٍ مقتضب.

طريقة تعامله هذه لا تقتصر عليَّ وحدي، فهو يحاول دائمًا أن يتفادى الجميع، ويتحاشى الحديث معهم. أشعر وكأنه تعرض لصدمة قوية، أو خيبة أمل جعلته يفقد الثقة في الناس، وهذا ما جعلني أجد صعوبة في التعامل معه.

بعد انقضاء الشهر الأول ببضعة أيام، تلقى عمر اتصالًا لم يدم سوى ثوان قليلة، وبعد أن أغلق سماعة الهاتف أمامه، قال لي: «عَبدُه يبغاك في مكتبه».

خرجت مهرولًا عابرًا صفّ الأشجار الصغيرة التي تُزين أرصفة الشاليهات، متخذًا أقصر الطرق المؤدية إلى مكتب عبده.

وقفت قبالته وأنفاسي متلاحقة، ثم حاولت ترتيب مظهري فيما هو ينظر بوجههِ في ملفٍّ يقلبه بأصابع يده اليمنى، مسندًا كوع ذراع يده اليسرى على حافة المكتب وبين أصابعه سيجارة امتدّ رمادها، وكأنه شارد الذهن عنها. ألقيت السلام عليه فطلب مني الجلوس فوق أحد الكرسيين أمام المكتب. انحنى قليلًا وفتح درجًا في مكتبه وأخرج منه ألفًا وثلاثمائة ريال، ودفع بذلك الملف الذي كان يتفحَّصه نحوي وقال لي:

- وقّع أمام اسمك.

ثم نظر في عينيَّ وأضاف:

- هذا راتبك يا يوسف، ولا تنسَ أن تُعشّينا.
قال ذلك وضحك.
ابتهجت وشعرت أن الأرض لا تسعني من شدة الفرح، وقلت:
- أبشر. أنت فقط حدد اليوم.
بدت على وجههِ ابتسامة هادئة وقال:
- أمزح معك فقط. انتبه على فلوسك.
عدت مسرعًا تنتابني فرحة عارمة. تمنيت أن أجري في أرجاء المكان، أن أضحك بصوتٍ عالٍ، أن أصرخ، أن أغنّي. تمنيت لو أن أحدًا يشاركني هذه الفرحة. تذكرت إسماعيل وأطلقت آهةَ شوق وحنين إليه، فمنذ أن حصل على عمّار لم أره ولو حتى صدفة.
في ذلك اليوم، حين توقف عمر بسيارته عند طرف الشارع المؤدي إلى مدخل حارتي، جاءني صوته هادئًا وواثقًا من غير خجلٍ أو تردد، وهو يحدق في وجهي بعينين باردتين:
- يا ليت تعطيني مائتي ريال.
انقبض قلبي، وتشتت فكري وارتبكتُ من طلبهِ هذا، فلماذا يطلب مني المال وهو لا بدّ قبض راتبه مثلي؟ كيف أشرح له بأنّني في أمسِّ الحاجة إلى كل ريال من هذا الراتب، وأنني لا أستطيع مساعدته. التزمتُ الصمت أفكر في عذرٍ، أو كذبة بيضاء تُنقذني من هذا المأزق، لكنه أزاح عني عناء التفكير حين قال لي مبررًا طلبه:
- حق المواصلات. فأنت تعلم أن المسافة طويلة، والسيارة تحتاج إلى وقود، وأنا لا أقدر على تحمل ذلك وحدي!
بحلقتُ ببلاهةٍ في وجههِ، غير مصدّق ما يطلبه مني، حاولت أن أقرأ ملامحه علّي أجد شيئًا يوحي بأنه يمزح، لكن وجهه ظلّ غارقًا في الصمت الذي يجيده ويعبّر عن جدّيته في الطلب. فأخرجت المائتي ريال وناولتها له بينما غصّة في صدري تختنق بالصمت. عادت لي كلمات «المجعرم»: «الحياة قائمة على المنفعة والمصلحة فقط».

حين فتحتُ باب العُزبة كان الفجر يشقّ بكارة الليل، ووجدتُ ياسين قد صحا من نومهِ وعلى وجههِ فرحةً تطوف على ملامحه. رأيته بسحنةٍ لم أعتد عليها، وقد تلاشت تلك الغُمّة التي تسكن وجههُ. وما زاد الأمر حيرة هو ذلك الاستقبال الحار، والكلمات المفعمة بالود والحميميةِ التي استقبلني بها:

- هلا بالغالي! عملك الجديد هذا حرمني من الجلوس معك.

أجبته بنبرة ودودة:

- هلا فيك. العمل دوامه صعب ووقته مزعج.

- المهم إنّك مبسوط.

- الحمدلله.

أخرجت من جيبي الإيجار الشهري، فرفضه ودفع يدي ببطء والابتسامة تعلو شفتيه، والدهشة تغمرني متسائلًا عمّا أصابه. غير أنه اكتفى بالقول:

- عن قريب سوف أنقل لك خبرًا سارًا... أنت بس ادعُ لي.

فقلت غير مستوعب ماذا يحدث:

- الله يوفقك.

حاولت التفكير في ما حدث للتّو، وما قد يكون وراء هذه السعادة العارمة التي بدت على ياسين، لكنّ رأسي قد تخدّر بالنعاس ولا يستطيع التفكير، وغرقت في النوم.

5

مع توالي الأيام، أثار فضولي شيء غريب مريب كنت ألاحظه في تعامل عمر مع بعض الزبائن!

في بداية الأمر كانت شكوكًا ومع مرور الأيام تأكدت منها. مرة بعد مرّة كنت أرى عمر يدخل في نقاش مع بعض الشباب الذين يقفون بسياراتهم أمام البوابة ولا يملكون تصريحًا أو دعوة، ثم يسمح لهم بالدخول بعد أن يأخذ منهم مبلغًا من المال!

بعد صراع مرير مع نفسي الضعيفة تجرّأت وقررت مفاتحته بالأمر. فقلت له:

- رأيتك يا عمر تأخذ مبالغ من بعض الشباب المخالفين للنظام وتسمح لهم بالمرور.

حدّق في وجهي بعينين ماكرتين، ولأول مرة أرى ابتسامةً تلوح على وجهه، وقال بكل صراحة:

- لقمة العيش يا صديقي.

قلت مندهشًا:

- وهل يعلم عبده بذلك.

أدار وجهه عني وقال:

- بالطبع لا يعلم. والأفضل أن يبقى الأمر سرًا بيني وبينك!

فاجأتني الثقة التي يتكلم بها والمبطّنة بنصيحة تحتمل التهديد، فقرّرت عدم التردّد في اكتشاف ما يحصل، فسألته:

- ألا يسبب هذا أي مشكلة في الداخل؟ ألا يدقّقون في التصاريح؟

ردّ باقتضاب:

- أيام الازدحام لا يفعلون ذلك.

أثار هذا الموقف تساؤلات كثيرة في نفسي، هل أخبر عبده بما

يحصل؟ وماذا ستكون النتيجة، خاصة وأنّ هذا قد يُدخلني في مشاكل وأنّ عمر أقدم مني وأعرَف، عدا عن كونه حاجة ضرورية لي بسبب سيارته. هل أترك الأمر ولا أتدخّل؟ هذه بلاهة، فأنا أتحمّل المسؤولية كوني أعرف وأتغاضى! دارت أسئلة كثيرة في ذهني إلى أن قرّرت أنه ليس في الأمر سرقة، فلو شاركته نحن نكسب والشاليهات تكسب مزيدًا من الزبائن. وهي فرصة لي لكي أدَّخر شيئًا من المال.

عدت أتابع أسئلتي لعمر:

- هل أنت متأكد من أن عبدالله لا يعلم بالأمر.

- بالطبع لا يعلم، وإلّا لطردني.

كلمة «طردني» ارتطمت بصدري وكادت تدفعني إلى التراجع. التفتُّ إلى عمر أبحث في ملامحه عن طمأنينة تسري إلى روحي القلقة. كان يحدّق في عينيّ بعمق، كأنه يحاول أن يلتقط ما يختبئ خلف اضطرابي، أو يقرأ أفكاري قبل أن أنطق بها.

لأول مرة أشاهد عمر يجاهد نفسه في الابتسام لي، والالتفات بوجهه كاملًا حين أتحدث معه. عرفت أنه مستعد أن يلبس قناعًا آخر للخروج من هذه الورطة بأقل الخسائر، ولو كلفه ذلك تغيير شخصيته بالكامل. هذا ما أحسسته وأنا أتفحص ملامح وجهه المتلونة.

قرّرت أن أشاركه، فهي مشاركة تحتاج لشجاعة إيقاف مشاعر الخوف، وبدء العد العكسي لمواجهة كل ما حملته نفسي من الضعف. لا بدّ من التجرّؤ على نفسي والتغلب على ما يصطرع في داخلي من صراع بين الضعف والرغبات وبين الإنهزام والإقدام الذي يشتد في مثل هذه المنعطفات المهمة في الحياة.

انتهى هذا الحوار الأول بيننا بأن صرت شريكًا لعمر، بل تفوّقت عليه في قراءة وجوه الشباب لتقدير المبلغ الذي يمكنني أن أجعلهم يدفعونه. ومع أن المرحلة الأولى لم تكن بهذه البساطة إلّا أن نظراتهم المتواطئة

معي في عقد مثل هذه المصلحة المشتركة ساعدني على طرد لعنة الخوف التي لطالما لازمتني.

كانت الشاليهات مرتعًا خصبًا لتفريغ كل الرغبات، فعدا ليالي الطرب والرقص، كانت الأهم الفرصة المتاحة للرغبات الجنسية المكبوتة، نساء وليالٍ حمراء تحاك في السرّ داخل هذه الفلل المحاطة بأسوار عالية.

كنّا نفرّق بين من يريد فقط الدخول إلى «المارينا» ليغرق في النرجيلة ومحاولة التعرّف إلى الفتيات، فالأجواء بالداخل محمومة، تغلي فوق نار الشهوة المسعورة، وبين السيارة التي فيها شاب وفتاة بهيئة تثير الشك في الرابط بينهما.

حتى أصحاب الشاليهات، أو المستأجرون، كانوا يحتاجون منّا تغطية مخالفات تتعلّق بإدخال فتيات، أو أحيانًا عدد من الشباب والفتيات يأتون إلى الشاليه نفسه.

كل العاملين يدركون الغاية من هذه التجمعات، ويعلمون ماذا يحدث هنا؟ ولكنهم يسيّرون الأمور بطريقة نظامية حازمة، وكل من يخالف يجد أمامه الأمن الذي يتصرّف بصورة صارمة، ويردع كل شخص يحاول أن يفتعل المشاكل سواء في المارينا، أو في داخل الشاليهات.

عمر، الذي أسعده أنْ أنخرط معه في مثل هذا الأمر، أزعجه أن أتفوق عليه في «لقمة العيش» بهذه السرعة، خاصة وهو يراني أدسُّ في جيبي مبالغ أكبر من التي يحصل عليها.

جاءني ذات يوم وسألني بوجه ممتقع بالحنق:

- أنت تحصل على أكثر مما أحصل عليه، وأنا الذي فتحت الطريق!

تصلب وجهه مثل قطعة حديد وهو يكلّمني، ويداه تتحركان كأن بهما رعاشًا، بينما يهزّ قدمه اليمنى وكأنه يعزف على آلة الباتري.

أحسست بأن في داخله بركانًا من الغضب قد ينفجر في أي لحظة، لكنني وطّنت نفسي على أسوأ الاحتمالات، خاصةً إذا اتخذ قرارًا بألّا ينقلني في سيارته. ولكنّني صرت أعرف أنه شخص لا يغلق بابًا يدرّ عليه المال.

دخلنا في جدال انتهى باتفاق لصالحه، إذ وافقت على اقتراحه تقسيم أيام إجازة الأسبوع بيني وبينه، على أن يكون يوم الأربعاء لي، ويوم الخميس له، وأن نتقاسم غلة يوم الجمعة من خلال توزيع ساعات الدوام فيما بيننا.

لم أهتم لمَيَلان الكفّة لصالحه في القسمة. سأعوّض ذلك بنهش الذين أرى في عيونهم سعار الشهوة فلا يهمهم الثمن الذي يدفعونه للحصول على المتعة.

أحسستُ بأنّني ولدت من جديد، وبأن الحياة في جعبتها متسع لأمثالي. كنت أشعر بنشوة لم أعرفها، وسعادة تحيطني من كل جانب، ففي نهاية كل أسبوع أخرج بحصيلة لا تقل عن ألف ريال. كان المال يتكدس في ذلك الصندوق الصغير الذي اشتريته بعد أن تراكمت الأوراق النقدية، وقمت بشراء زي رسمي جديد يحسّن مظهري بعد أن سألت عبدالله عن المكان الذي تباع فيه مثل تلك البدل الخاصة بالأمن.

الغريب أنني ازددت شحًا في الإنفاق وأكثر شراهة في الحصول على المال، وبدأت أخطط لحياة جديدة. ياسين كان سعيدًا بهذا التحول في مجرى حياتي، وأحيانًا يلحّ عليَّ أن أجلس بصحبته لأطول وقتٍ ممكن، وصار يعبّر عن مشاعره بلا خجل، بل صار يظهر حرصًا عليَّ لم أره من أحدٍ من قبل.

من خلال إصراره عليَّ للتمسّك بعملي وعدم القيام بحماقات، وتجنّب المشاكل، شعرت بأنه يشك في مصدر هذه الأموال، أو في هذا التحول السريع في شخصيتي، وفي حالة السرور التي أعيشها خلال هذه الفترة.

ما كان لشيءٍ أن يغيّر مساري! ولكنّني استمعت لنصائحه بشيء من الثقة والهدوء، وطمأنته:

- أكيد يا ياسين، سوف أكون حريصًا على عملي.

6

الحياة تزهر أحيانًا، ولا تظل قاحلة إلى الأبد.

قد يطول شحّها نعم، لكنها في يوم ستُهطل الفرح بغزارة، وتدرّ السعادة حتى تمتلئ رئتيك بهذه النشوة التي تحلق بك بعيدًا إلى أماكن لم تتخيل يومًا أنك ستصل إليها.

هكذا تغيرت قناعتي بعد أن تذوقت طعم الفرح بعد طول مرارة الحزن. أعيش فترة وجدت فيها نفسي الضائعة، أدركت معنى أن تكون إنسانًا يعيش بكرامة من دون الحاجة إلى أحد، أو من دون الإحساس بالخوف.

شعرتُ أن المال يمنحني المكانة التي أصبو إليها، كما يمنحني تلك الثقة التي تجعلني أواجه الآخرين وأنا ثابتٌ على قدميَّ. المال جعلني أُعيد النظر في أمور كثيرة وأذكى في داخلي إحساس بالقوة والقدرة على مجابهة الناس.

يا لهذا المال اللعين الذي قام بترميم إنسانيتي المتصدعة. هو نفسه، المال الذي يصفونه بأنه قذر جعلني أهتم بنفسي، وبجسدي، وهندامي. هو الذي غيرني حتى بدوت أنيقًا، أبتاع ولأول مرة في حياتي عطرًا يفوح من جسدي. المال جعلني ألتفت نحو ذاتي، أنظر إليها أمام المرآة ولا أكرهها، بل أرسم ابتسامة رضى.

أنا هنا لا أدّعي بأنني تحولت إلى رجل ثري، ولكن ما أملكه كان كفيلًا بأن يقلب موازين حياتي. تلك الدراهم التي أتحصَّل عليها تفي بالغرض بالنسبة لشخص مثلي كان يحلم بأن يأكل لقمة طيبة، ويلبس هندامًا نظيفًا.

لم أكن أرغب بأكثر من أن أعيش بقية عمري بلا ضعفٍ ولا خوف.

أما النساء! فقد كنت أرى نماذج ونماذج منهنّ كل يوم، لكن لم أكن لأفكّر في إدخال امرأة في حياتي، فالطعنة كانت قاسية... إلى أن جاء ذلك اليوم!

في ليلة مكتظة بزحام السيارات أمام البوابة. أخرجت امرأة رأسها من نافذة زجاج السيارة الخلفي وقالت لي: «كيفك يا حلو».

خفق قلبي وبشدة، شعرت بقبضة مؤلمة ترتطم بصدري، موقف زلزل كياني وبعثرني من جديد. خليط من المشاعر الجارفة غمرتني طوال تلك الليلة. في البداية اختلط عليَّ الأمر ولم أفهم ما تعنيه تمامًا! هل كانت تسخر وتقصد عكس ما قالت، أم إنها تقصد ما تقول. لكنني لم ألحظ في لهجتها تلك السخرية التي تنخر في مشاعري حين أضافت:

- أنا أول مرة أشوفك هنا.

قلت في ذهول وبلادة وأنا أتأمل وجهها الدائري والخصلة المنزلقة عمدًا من أعلى «طرحة» رأسها.

- أهلًا وسهلًا.

قالت بضحكة وتغنّج:

- ما اسمك؟

- يوسف.

- وأنا عبير. ممكن تسمح للسيارة تدخل؟

كنت أتحرّك وأنا أشعر بتنمّل في جسدي. وبينما تعبر سيارتها التي كان يقودها سائق من شرق آسيا، قالت:

- سوف تراني كثيرًا!

وبقي صوت ضحكتها هي وصديقاتها يرن في أذني مثل موسيقى عذبة تغلغلت في روحي.

عدت إلى غرفة الحراسة بعد أن استلم عمر زمام الأمور في الخارج. هويت فوق الكرسي وذهني ظلّ معلقًا بكلمات عبير القليلة. أتذكر

تفاصيل ذلك اللقاء مع أنه مرّ مثل لمح البصر، ملامح وجهها الممتلئ بالأصباغ، حركة شفتيها المكتنزتين، عبارتها التي ذابت في قلبي مثل السكر، جرأتها التي صدمتني، كلماتها التي نبتت في أعماقي وكأنها تقول سأزهر يومًا ما في قلبك. «كيفك يا حلو... سوف تراني كثيرًا»، هذه الأمنية التي علقتها فوق قلبي مثل طوق من الياسمين ثم مضت.

كل هذه المشاعر حاصرتني طوال تلك الليلة حتى قررت أن أذهب إلى داخل الشاليهات للبحث عنها عندما تسنح لي الفرصة. قرّرت ذلك عندما بدأ يهدأ هدير السيارات، ويخفّ الازدحام نوعًا ما بُعيدَ منتصف الليل.

لم أستطع الانتظار حتى تتحقق عبارتها «سوف تراني كثيرًا». استأذنت من عمر الذي توقف عن مناكفتي بعد أن اكتشفت سرّه. وبات من المعتاد أن يغطي أحدنا الآخر فيحلّ محلّه من دون التطرق للأسباب والدوافع.

أطلقت ساقيَّ للريح متجهًا إلى الـ«المارينا» متوقّعًا أن أجدها هناك في أحد المقاهي وقد كشفت عن شعرها واضعة قدمًا فوق الأخرى، بيدها خرطوم المعسَّل وتردّد الأغاني التي تسمعها. هكذا كنت أتخيّلها وأنا أغذّ الخطى بسرعة قصوى. لم أكن أنتظر أكثر من أن أراها مرة أخرى، أن أعبر بجانبها، أن تبتسم لي.

حين ولجت من تلك البوابة المؤدية للمارينا توقفت للحظات ألتقط فيها أنفاسي وأعيد ترتيب نفسي، أحضّر بعض الكلمات التي لربما سأقولها، ثم انطلقت نحو المقاهي بخطى واثقة.

المكان كان صاخبًا جدًا، وأبخرة المعسل شكلت سحابة رمادية هائلة غطت المكان. رحت أقلب نظري بحدة وتركيز، أغرز بصري في كل الوجوه محتفظًا بمسافة كافية تبقيني بعيدًا نوعًا ما. عبرت المارينا مرتين ولم أعثر عليها، ثم أعدت الكرة، ثم صرت أروح وأجيء حتى أهدرت وقتًا طويلًا من غير أن أحظى برؤيتها.

حين عدت خائبًا ومنهكًا تفاجأت بوجود عبدالله جالسًا داخل غرفة

الأمن، وعمر لا يزال واقفًا في الخارج منشغلًا بتفتيش السيارات وأخذ التصاريح من الزوار، فأسرعت خائفًا حتى صرت بمحاذاة باب الغرفة، وسألت عمر:

- ما الذي جاء به إلى هنا؟!

أجابني من غير أن يتلفت نحوي:

- لا أدري.

حين دلفت إلى الغرفة، لاحظت وكأن حيةً ترقص بين عينيه. كان ينتظرني. بدأت أشك في سبب وجوده هنا، ففي العادة قد يمر الأسبوع من غير أن نراه، وأحيانًا يأتي مرة في الأسبوع، لكن أن يجلس في الداخل ممتلئًا بكل هذا الغضب، فهذا أمر مريب.

قال لي عبدالله في هيئة محقق:

- أين كنت؟

- في الداخل.

- وماذا تصنع هناك؟

- أتعشى.

قال ساخرًا:

- ساعة كاملة من أجل العشاء.

ارتبكت ولم أجد مبرّرًا، فقلت بعد برهة من الصمت:

- لم أنتبه للوقت.

نهض وأنا أتأمل بطنه الذي امتدّ أمامي وقال:

- يجب ألّا يتكرر هذا الأمر مرة أخرى، وإلا سأتخذ بحقّك إجراءً لا يسرّك.

ثمّ مضى وتركني في الغرفة وأنا أشعر ببرودة تسري في وجهي وكأن الدم قد تلاشى منه. كنت أراقبه بصمت، أتابع حركاته وهو يتحدث مع عمر بكلمات لم ألتقطها، حتى استقلّ العربة الصغيرة، وانطلق بها بعيدًا، تاركًا خلفه صمتًا أثقل صدري أكثر مما توقعت.

telegram @
yasmeenbook

لا أدري إن كان عمر مَنْ أخبره بغيابي، أم إنه جاء صدفة واكتشف أمري. بطبيعة الحال لم يكن من المفيد أن أسأل عمر إذا كان هو مَنْ أخبره، لأنني بهذا أضعه في دائرة الاتهام والتخوين، ولن يعترف حتى لو كان هو مَن أخبره.

تلاشت الغمّة مع مرور الساعات، وعادت صورة عبير مرة أخرى، عادت بوجهها الخمري وعينيها الواسعتين لتطرق عقلي وتحتل تفكيري طوال تلك الليلة. وعلى الرغم من خيبتي بسبب عدم العثور عليها، إلا أن كلماتها كانت تربّت على خوفي. بعض الكلمات إذا جاءت مغلفة بالأمل تخفف من حدة وتيرة الانتظار، وتذوب في الروح مثل بلسم يشفي ارتعاشاتها.

7

كان صوت أذان الفجر يجوب سماء حي غُليل حين كنت واقفًا أمام باب العزبة. فتحت الباب وإذا بياسين أمامي بهيئة مختلفة تمامًا، ووجه غريب. رأيته قد حلق كل شعرة فيه، وسرّح شعره بطريقة أنيقة، وارتدى ملابس جديدة. وزاد من دهشتي وأثار قلقي رؤية حقائب السفر التي كانت أمام الباب وكأنه يهمّ بالرحيل. سألته والخوف يعرّش في قلبي:

- ما الذي يحدث؟!

أجابني والفرحة تغمر كل ملامحه:

- وأخيرًا يا يوسف!

- ماذا تقصد؟!

- الهجرة يا ابن خالتي.

خفق قلبي بشدة، لم أصدق ما يقوله. فقلت غير مستوعب ما يجري حولي:

- أنت تكذب!

ضحك وقال مؤكّدًا:

- والله لا أكذب عليك، الآن سأرحل.

قلت مذهولًا:

- إلى أين سترحل؟

- إلى هولندا. إنها اللحظة التي كنت أنتظرها طوال حياتي، اللحظة التي كرّست من أجلها عمري ووقتي ومالي، وها هي تأتي بعد كل هذه السنين من التعب والصبر.

قلت له بخوف وقلق عليه:

- وكيف ستعيش هناك؟

ردّ بكل ثقة:

- لا تقلق، لقد أعددت كل شيء وفق الخطة التي رسمتها منذ أن فكرت بالهجرة.

احتضنني بقوّة وهو يمسّد على ظهري بكفَّيه ويطلب مني الدعاء له، ثم طلب مني أن أساعده في حمل الحقائب في ساعة ما زالت المدينة غارقة في النوم.

كنت أشعر بالكآبة وأنا أحمل معه الحقائب ونعبر الزقاق الضيق في تلك العتمة الموحشة، حتى خرجنا إلى الشارع. طلب مني الانتظار بجانب الحقائب كي يجد سيارة أجرة، فاستغربت من ذلك وقلت له:

- أين سيارتك؟

- بعتها يا صديقي.

قبل أن يودّعني للمرة الأخيرة وضع يده على كتفي محدقًا بجدية في عيني وقال:

- الآن صارت «العزبة» لك وحدك وأنت مسؤول عن كل شيء.

أخبرني كيف أسدد الإيجار وأدفع فاتورة الهاتف، وأعطاني رقم صاحب «العزبة»، وتمنى لي حياة جميلة وركب سيارة التاكسي في صباح مسكون بالوحشة.

هكذا غادر ياسين من دون سابق إنذار، تاركًا في روحي فراغًا كبيرًا. ياسين الذي عاش في عالمٍ له وحده رحل أيضًا من دون أن يشعر به أحد. هكذا هم البسطاء الذين لمْ تترك لهم الحياة سوى الحلم بحياة ينتهي فيها التعب المتواصل.

ياسين الذي لو مات في عزبته لما علمَ أحد بموته لأنه عاش وحيدًا من غير أن يخالط الناس، اختار الهجرة بدلًا من الموت وحيدًا في هذا الحي البائس، وفي هذه «العُزبة» القذرة المحشورة داخل بيوته المتهالكة.

رحت أقلّب بصري في أرجاء تلك الغرفة الصغيرة التي احتضنت كل

أيامه ولياليه بساعاتها ودقائقها، لم يترك أثرًا خلفه سوى ذلك الهاتف المركون فوق رفّ التلفزيون، والكثير من أشرطة الأفلام الأجنبية. ترك الشيئين اللذين كانا يساعدانه على تزجية الوقت في وحدته.

بقيت أفكّر كيف ستكون حياتي في هذه الغرفة من دون ياسين حتى غفوت متعبًا بملابس العمل.

في اليوم التالي، وأنا في الطريق برفقة عمر متجهين إلى العمل، كنت أفكر في ياسين وأشعر بأهمية وجوده إذ أقارن بينه وبين عمر. هناك أناس نعيش معهم ولا نلتفت إليهم، لكن بقاءهم معنا يشعرنا بنوع من الطمأنينة والسلام، وحين يرحلون فجأة يتغير وجه الحياة، وتلفّنا غمامة حزنٍ يبلل أرواحنا، حتى أننا لا نفهم سبب هذا الحزن الذي يحاصرنا بشكل غريب.

ياسين كان شخصًا طيبًا، وبالرغم مما كان يجري بيني وبينه إلا أن اختلافنا دائمًا كان سببه الفقر، الحاجة اللعينة للمال، أما غير ذلك فقد كان صبورًا معي، حليمًا في تعامله، ودودًا في حديثه، لم أشعر يومًا بأنه يريد أن يتخلص مني كرهًا بي. لقد كان يمارس الضغط النفسي عليَّ حتى يشحذ همّتي فلا أبقى عالةً على أحد. كل ذلك أدركته مؤخرًا مع الأسف.

لقد أخذني العمل منه، ومن الجلوس معه، كنت ألمح الشوق في عينيه وهو يعاتبني على هذا الجفاء. أشعر بالندم الآن، لقد غادر فجأة وفي صدري بحرٌ من الكلام كنت أدَّخره ليوم من الأيام، وها أنا الآن أغرق في نفسي المكبوتة بالحب، الفرح، الحزن والدموع التي ستموت في داخلي بعد رحيله.

لكن الغريب أنني كلما وصلت إلى الشاليهات تغيب كل الأفكار من رأسي وتحضر صورتها. تتردد في ذهني كلماتها «كيفك يا حلو... سوف تراني كثيرًا»، فأحرص على ألّتغيب البوابة عن ناظري حتى ولو كان دور عمر.

بنفس طريقتها الآسرة، بجرأتها وغنجها وضحكتها، كأنها تقول لي ها أنذا عند وعدي، أطلت برأسها من النافذة الخلفية لسيارة مختلفة عن سيارة الأمس، وكانت في أوج زينتها، وقالت:

- أهلين يا حلو، كيف حالك يا يوسف.

فقلت مرتبكًا:

- أنا بخير يا عبير.

قالت ضاحكة:

- جميل أنك لا زلت تذكر اسمي.

ابتسمتُ ببلاهة، ولم أعرف بماذا أجيبها. فسألتني سؤالًا جعلني حائرًا:

- أين كنت في الصباح.

أجبتها بدهشة:

- عن أي صباح تتحدثين؟!

قالت وهي تحاول أن تختصر عباراتها حتى لا تثير الشك بوقوفي معها:

- أمس خرجت عند الساعة السابعة صباحًا من هنا، وبحثت عنك ولم أجدك.

- كنت في البيت.

سألتني:

- متى ينتهي دوامك؟

- الساعة الخامسة فجرًا، قلت.

أطلقَت ضحكةً ومضت تاركةً خلفها ألف سؤال، ومساحةً ممتدةً من الحيرة. كنت أدور حول نفسي وأنا أتساءل ما الذي يحدث؟ هل أنا في حلم أم علم؟ هل هذه الفتاة التي أراها أمامي موجودة في الواقع أم إنها مجرد خيال؟

أنا الرجل الذي استسلم لفكرة أن لا نصيب له مع النساء، مقيدًا بدمامة وجهه وقصر قامته وفقْر يده. أنا الذي عجز عن مخاطبة امرأة منذ تلك المغامرة مع سعاد، المغامرة التي تركت في أعماقي جرحًا لا يلتئم، حين كنت مراهقًا لا يعرف كيف يصوغ كلماته. أنا الرجل الذي يعترف في أعماق قلبه أنه يجهل تمامًا لغة هذه الكائنات الرقيقة، وأنه مهما حاول يظل غريبًا عن عوالمهن... ثم ها هي عبير، المغموسة بهذا الجمال والغنج، تأتي لتعيدني مرة أخرى للنظر في كينونتي كرجل لا يمكنه فطريًا أن يتغاضى عن الميل نحو هذا الجنس اللطيف، أن ينجذب نحوه، جاءت لتحيي في داخلي رغبات كنت أهرب منها، لكنها ظلت تعيش في أطياف روحي.

ما أجمل أن تكون لديك امرأة تهتم بك كرجل، تسأل عنك، تشعرك برجولتك، تحيطك بحنانها، تطوّقك بحبها، تجعلك تتذوق طعم الحب، ترتشف بصحبتها كأس الغرام! امرأة تملأ قلبك، وتؤثث ذاكرتك، تعلّمك الاشتياق، تُطلق على لسانك كلمات الحب، تخلع من أجلك قميص اللهفة، وتعانق رجولتك.

هل تُراني أبالغ في تصوّرات لا سبيل لتحقّقها! ومع مَنْ؟ مع امرأةٍ لديها من الجمال ما يكفي لتكسر به رقاب الرجال، ثم تتودّد لشخص مثلي. هل تراني أدخل في مغامرةٍ سيكون ألمها أقوى بكثير من الألَم الذي تركته سعاد؟

لكن ماذا أفعل؟ كيف لي أن أوقف هذا السيل الجارف من المشاعر التي تجتاحني؟ القلب يتغلب على العقل، والمشاعر تأخذ زمام الأمور، وها أنا أمام سحر عبير، لا أملك سوى الانصياع لهذه القوة التي تشدني إليها. ما العمل سوى أن أغامر، وأخوض هذه المحاولة.

8

بعد أن تعرفت إلى عبير، تحولت صباحاتي إلى جنّة. صار لها طعم آخر، طعم بنكهة الحب. صارت مليئة بالحياة التي أراها تضجّ فرحًا بضحكاتها وبالآمال والأحلام.

آه ما أجمل الصباحات! فمنذ أن طلبت منّي رقم هاتفي شعرت أن الوهم يتحوّل إلى واقع. طلبت مني رقم الهاتف في أحد المساءات، وفي الصباح اتصلت بي. كانت المفاجأة أكبر من كل تمنياتي. ومنذ ذلك اليوم صرت أقضي معها جل ساعات الصباح بالمكالمات الهاتفية. وبالرغم من قلة النوم، والتعب، كانت متعتي بالحديث معها تفوق أيّ شيء.

في مكالمتنا الأولى، قالت لي:

- أرجو ألّا تأخذ عني فكرة سيئة بسبب جرأتي.

- لا بالعكس، ولا خطر ببالي.

أطلقت ضحكةً وقالت:

- تريد أن تقنعني أنه لم يخطر في بالك كيف كنت جريئة معك؟

- أبدًا.

عادت تضحك، وقالت:

- مش حصدّقك.

كنت حذرًا جدًا في إجاباتي، بل كذبت خشية أن أتفوه بكلمة تغضبها، فبقيت صامتًا.

قالت:

- على كل حال أريدك أن تعرف أن ما بيننا مجرّد تعارف، وبعدها نرى كيف تسير الأمور بيننا..

كنت أجهل الحديث مع النساء، فكيف الأمر مع امرأة تقول ما تشاء بلا خجل أو تردد. ثمّ انطلقت ضحكتها، وقالت:

- إنت ساكت ليه، كلمني عن نفسك.

ماذا أقول عن هذه النفس التي كانت يابسة فأحيتها هذه المرأة. كيف يمكنني أن أعبّر عن تلك الخلجات التي تربط لساني وتجعل قلبي ينتفض كأنه يدفعني لقول أيّ شيء.

فقلت بصوتٍ مرتجف:

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

- أي شيء يتعلّق بك.

يتعلق بي! وهل من شيء يتعلق بي يستحق أن أقدّم نفسي به؟ قلت:

- أنا اسمي يوسف عبد الحق. ثم صمتّ.

فقالت بنبرةٍ مليئة بالغنج والدلال:

- هذا كل شيء عنك؟ اسمك يوسف عبد الحق، فقط؟

- لا طبعًا، لكنّني لا أعرف أن أتكلم عن نفسي.

- طيب أنا راح أسألك وإنت تجيب.

- حسنًا.

- هل أنت متزوج؟

- لا.

- أين تسكن؟

- في حي غليل.

عادت ضحكتها، وقالت:

- لست بعيدًا عني!

- أين تسكنين؟

- في النزلة اليمانية، مع أهلي. وأنت هل تسكن مع أهلك؟

- لا. أسكن لوحدي!

- كيف وحدك؟

لم أعرف ماذا أقول! وأمام صمتي قالت:

- خلاص.. ما في داعي تجاوب، لعل الأيام تكشف ما تخبئه.

وضحكت. وبقيتُ صامتًا.

تمنيت أن يتوقف هذا الحوار، ليس لأنني تعبت منه، بل لأن رأسي كان يمور بأفكار وأحلام... لكنها عادت:

- ها! ما تبغى تعرف عني شيء؟

- بالطبع أريد.

وبدأت تتحدث فورًا:

- أنا عبير وعمري واحد وثلاثين سنة، مطلقة وأم لطفل هو جنّتي الآن، وأسكن مع أمي وأخواتي. عشت حياة صعبة قد لا تتخيلها ولكنني ألملم نفسي لأتأقلم مع وضعي والظروف المحيطة بي. هذا أنا باختصار.

كنت في صدمة وهي تحدثني، إذ لم يخطر لي على بال أن تكون في هذا العمر ولا تزال بهذا الجمال وتلك الملامح الطفولية، دهشت أيضًا كيف لامرأة عاشت معاناة الانفصال، ومضطرة لإعالة طفل، أن تصدح ضحكتها كل الوقت.

المختصر الذي قدّمته جعلني أنفتح في الحديث عن نفسي، ورحت أحكي لها بعضًا من حكايات حياتي. تحدثنا طويلًا وكانت الفرحة لا تسعني، على الرغم من شدة التعب، ورغبتي في النوم، إلّا أنّ روحي كانت ترقص على موسيقى ضحكاتها.

الأيام التي كانت تزحف على جسدي ببطء شديد، كئيبة ومملة، تحولت إلى أوقاتٍ من اللهفة والشوق فلا أشعر بمرورها.

مع تكرار المكالمات الهاتفية بيننا، صارت كلماتها تنفض عني غبار الألم. تبدل الحال وتغيرت أيامي مثل ثعبان ينسلخ عن جلده القديم، تنفست أوكسجين الحب في حياة كنت أراها موبوءة ومميتة. لقد علمتني الفرح والضحك من أعماق قلبي بعد أن أدركت أنني لم أعرف هذا الإحساس يومًا.

فترة طويلة قضيتها مع عبير ما زلت أتذكر كل تفاصيل كلامها معي.

لقد تعاطفت معها حين أخبرتني عن زواجها الذي لم تخرج منه بغنيمة سوى ابنها الوحيد عبد العزيز أو «عزوزي» كما تحب أن تناديه تدلّلًا.

كان كلامها يطل على فراغ روحي ويملأه بالحكايات. شعرت بأن الذي يسمع ضحكاتها يتبادر إلى ذهنه أنها مقبلة على الحياة بكل جنون، بينما هي في حقيقة الأمر غارقة في الأوجاع تحيط نفسها بأسرار يصعب التكهن بها، أو حتى سبر أغوارها. ربما مع الأيام قد أصل إلى أقصى نقطة في أعماقها وأكتشف ذلك بنفسي.

كانت عبير قد عبرت للتوّ، وأثر ضحكتها الذي تركته في جوارحي يبلّل قلبي بارتعاشات تسري فرحًا في جسدي عندما سمعت صوته:

- يا «هرّ».

«يا ربّي، ما هذا!»، انخلع وغاض الفرح، وغلّف الخوف جسمي كلّه.

كان درويش «المجعرم» يقف بسيارته أمام بوابة الدخول، وإلى جانبه تجلس حياة ابنة العم أحمد، صاحب الدكان. لم يخطر على بالي أن أراها هنا وبرفقة درويش قادمةً في منتصف الليل.

جاءت سافرةً ولم تبالِ حين رأتني، بل نظرت في عينيَّ نظرة احتقار جعلتني أستصغر نفسي إذ لا أستطيع أن أردّ لها تشويه سمعتي مع والدها فأخبره بما فعلته، وما تفعله.

بأسلوب جاف، طلب مني درويش أن أفتح له البوابة. التفتّ نحو عمر فوجدته منكفئًا بوجهه على أوراق أمامه، ففتحت له البوابة. لم يلقِ التحية ولو على سبيل المجاملة، وأكمل طريقه.

تصرّف درويش ببجاحة لأنه يعي تمامًا بأنه السبب في حصولي على هذا العمل، وهو يعلم مسبقًا بأنّني سأسمح له بالدخول حتى وإن كنت مكرَهًا، كيف لا... وهو من علمني أن **لكل شيء ثمن!! الآن يا درويش** أدركت ما يدفعك لتوفير هذا النوع من الأعمال لي، وربما لغيري ممن توظفهم لتضمن مزيدًا من التسلّط لتحقق رغباتك.

لقد غبت طويلًا عن الحي، وما عدت أعرف ما يحدث فيه. ربما تمادت حياة وكسرت كل القيود وهربت مع درويش! إنه احتمال وارد لمن يعرف سيرتها منذ أن كنت أعمل في بقالة أبيها. وها أنا للمرة الثانية أشعر بمسؤولية كوني أعلم ولا أخبر العم أحمد، ذلك الرجل الطيّب.

كثيرًا ما سمحتُ بالدخول لرجال ونساء ليس لديهم تصريح، مقابل المال، متسلحًا بحسٍّ يُمكّنني من التمييز بين من لا يشكّل خطرًا ومن قد يُربك الأمور. أما درويش! فقد كان الخطر مجسدًا أمامي.

شيء وحيد كان يطمئنني ويقلقني في الوقت نفسه: درويش وظفني هنا عن طريق عبدالله! فلماذا لم يطلب منه تصريحًا؟

9

كان على عبدالله أو «عبده» أن يكون صارمًا في عمله، فهو قضى في هذا المكان ما يقارب العشر سنوات تعامل فيها مع أصناف سيئة من البشر.. فمثل هذه الأماكن تستلزم الكثير لحمايتها من الفضوليين، وتوفير الأمن وإخضاع الداخلين إليها والمقيمين فيها للشروط على نحوٍ صارم. فالشاليهات مليئة بالملذات التي تستهوي الرجال والنساء، فهي مكان لتفريغ الرغبات المكبوتة.

وكان عبدالله المرجع الوحيد لطلب إجازة فقد كنت منهَكًا بعد أن مضى على عملي شهران من السهر طيلة الليل. والإرهاق تسلّل إلى عظامي. فقررت الذهاب إليه طالبًا السماح لي بإجازة لمدة أربعة أيام من السبت حتى الأربعاء. لكنه رفض على نحوٍ قاطع. وعندما سألت عمر عن موضوع الإجازات ضحك وقال لي:

– الجميع هنا يعرفون أنه عمل مجزٍ. دخل لا يمكن الحصول عليه في مكان آخر، لذلك يخضع الجميع لقرارات عبدالله.

لكن عمر الذي يعرف القوانين جيدًا يعرف كيف يتحايل عليها. ولأن له مصلحة في غيابي أبلغني أنه سيتدبّر لي إجازة. هكذا، وبالاتفاق بيننا، اتصل بعد عدة أيام بعبدالله وأبلغه أنني انهرت وسقطت أرضًا؛ عندئذ سمح لي بيومي إجازة فقط.

أكثر ما كنت أحتاجه هو النوم، لذا قررت استغلال الإجازة لأنام أطول وقت ممكن، فلم أتصل بعبير وأخبرها حتى لا تطلب مني إدخالها. بل سحبت سلك الهاتف واستسلمت للنوم. لكن المتاعب قد لا تسمح لك بالهرب، بل تصرّ على مرافقتك حتى تغرقك في دوّامتها.

استيقظت على صوت طرقٍ شديد يشقّ سكون المكان، فارتجفت من شدته، ونهضت مترنحًا، يثقلني التعب والخوف معًا. مَنْ هذا الذي يطرق بقوّة حتى أيقظني بهذه الطريقة الفجّة وماذا يريد؟ فأنا منذ شهرين لا أرى أحدًا ولا يُطرق بابي.

مشيت بخطى واهنة، وبعينين شبه مغمضتين، وبرأس مثقلٍ بالنوم ولا أعرف الوقت. وحين اقتربت من الباب، قلت بصوت مبحوح:

- من هناك؟

- افتح الباب... أنا إسماعيل.

إسماعيل!! ما الذي جاء به بعد كل هذا الغياب الطويل.

فتحت الباب لأكتشف أن الوقت ليلًا، وإسماعيل أمامي بشاربه الكثّ في حالة مزرية، معتمرًا قبعةً باكستانية صغيرة، ومرتديًا ثوبًا سودانيًا. وفيما أتأمل وجهه الغائب في عتمة الزقاق، لمحت شخصًا آخر يقف خلفه. لم أتأكد من ملامحه، حتى سمعت إسماعيل يقول: «خش يا عمّار».

احتضنني بقوة فاخترقت أنفي رائحة الشراب، لقد كان في حالة سُكر فظيعة. لم أستغرب ذلك، فالشراب متوفر بكثرة في حيّنا، وفي الأحياء المدفونة في الهوامش جنوب المدينة.

تأكدت بعد أن سمحت لهما بالدخول، أنهما في حالة سُكر. حتى عمّار، ذلك الغلام الجميل، لم يتبقّ من ملامحه البهية إلا القليل، فقد اسودّ شاربه، وتيبس وجهه، حتى بدا كخرقة بالية.

كل شيء في هذا الحي يختنق، لا أحد يستطيع أن يتجاوز رغباته، كأنّ الاحتفاء بالحياة لا يكون إلّا بسلوك طريق الموت، وفي تلك الطريق كل شيء يفقد جماله إلى أن تتهشّم أرواحنا ويصبح الموت أرحم من العيش.

سألني إسماعيل وهو يمدّ ساقيه:

- أين اختفيت؟

- في العمل.

فقال بلسان ثقيل:

– لقد جاءني خبر هجرة ياسين، من خلال أبناء الحارة، فجئت عدة مرات أطرق بابك ولا أجدك.

– أعمل في وظيفة شاقة ولوقت طويل.

طوى ساقيه وحدّق بي:

– يا شيخ، الله يلعن الدنيا ويلعن الفلوس اللي تخليك تنسى أصحابك.

– يا إسماعيل، من دون الفلوس ما كنت وجدتني في هذا البيت. عملي أخذ مني كل شيء، وليس فقط الحي والأصدقاء.

تكلم إسماعيل بلسانٍ ثقيل:

– كلنا نعمل يا «هرّ» ومع ذلك لم نتنكر لأصحابنا، ولا حتى لأبناء حارتنا.

أحسست بأن شرح ظروف عملي له أمرٌ بلا فائدة، فتركت له أن يقول ما يشاء.

ظلّ يتكلم إلى أن بدأ يسند رأسه إلى الوراء، أما عمّار فلم يكن يهمه ما يدور بيني وبين إسماعيل، راح يشعل سيجارة تلو أخرى حتى انبطح على بطنه أمامنا وغط في نوم عميق، بينما إسماعيل لا يزال يهذي ويتكلم بأشياء غير مفهومة حتى نام هو الآخر مسندًا رأسه إلى الحائط.

من شدة التعب لم أكترث لوجودهما، ولا لطريقة نومهما. كل ما أردته أن أعود إلى النوم وأن أظل نائمًا لأطول فترة ممكنة، فتكوّمت في زاويتي وأكملت نومي في مشهد تراجيدي لنا نحن الثلاثة في تلك الغرفة الصغيرة. ثلاثة أرهقتهم الحياة، اجتمعوا عبثًا في ساعة متأخرة من الليل.

عندما فتحت عينيَّ لم أجد إسماعيل ولا عمّار. يبدو أن إسماعيل أخرج كل ما في جوفه ثم مضى. فبعد مرافقته لعمّار لم يعد إسماعيل كما كان، فقد راح يتدهور بدل أن يكون سعيدًا. آلمتني الحالة التي رأيت إسماعيل عليها وندمت على إهمالي له.

في الصباح أول ما قمت به هو إعادة سلك الهاتف والاتصال بعبير. وقبل أن أقول كلمة واحدة ارتفع صوتها:

- إنت فينك إنت.. قلقت عليك.. أنت بخير؟

أسعدني قلقها عليّ، فأجبتها:

- اعذريني، كنت مرهقًا فنمت.

- كل هذا الوقت؟!

- نعم.

- هل أنت مريض؟

- لا.. ولكنّني كنت مرهَقًا ومتعَبًا جدًا.

بدت لي نبرتها صادقة وهي تسألني إذا كنت مريضا. فتساءلت: هل تحبّني؟ هي لم تتلفّظ حتى الآن بكلمة «أحبك»، وأنا بدوري كنت خائفًا ومترددًا من نطق هذه الكلمة، مع أنني أحبها بالتأكيد، ولكن الخوف يمنعني من قولها.

في حياتي لم أتحدث مع امرأة، لم أستفق على صوت امرأة، لم أضحك بسبب كلمات امرأة، لذلك عندما جاءت عبير كان حضورها طاغيًا، حضور لم يستطع قلبي، الذي لم يذق طعم الحنان حتى جفّت مشاعره، أن يدقق في أسبابه، فهوى سريعًا في حبها.

سألتني:

- هل ستداوم اليوم؟

- لا.

- لكن أنا سأذهب إلى الشاليهات الليلة مع أخواتي، هل تستطيع أن تخبر عمر أن يمهّد لنا الطريق.

صمتّ عندما سمعتها تلفظ اسم عمر! «كيف تعرف عمر باسمه؟». وكأنّها أدركت ما يدور في ذهني، قالت:

- على فكرة أنا أعرف أغلب العاملين في الشاليهات بأسمائهم فقط، لقد أخبرتك أنني كثيرًا ما أذهب إلى هناك.

تبريرها زاد الأفكار والتساؤلات في رأسي. وبقيت على صمتي. فسألتني:

- هل ستكلم عمر؟

قلت لها:

- سأحاول.

- أخبرني بنتيجة محاولتك قبل المساء.

- حسنًا.

ثم أغلقت السماعة.

حاولت طرد تلك الشكوك بإقناع نفسي بإجابتها، فهي بالفعل تذهب إلى الشاليهات كثيرًا، حتى من قبل أن أعمل هناك. لكن بقي الشك يدور في رأسي.

كان الوقت عصرًا، وأجد نفسي في مأزق الآن، فلا أرغب في أن أُهين نفسي أمام عمر الذي قد يصدّني، ولا أملك وسيلة تواصل معه تعينني على تجاوز هذا الموقف. كنت تائهًا بين حيرتي وقلقي وخوفي من أن أفقد ثقتها بي.

شغلني الموضوع كثيرًا، وعندما لم أجد حلًا قررت قول الحقيقة. قررت أن أخبرها بطبيعة علاقتي بعمر حيث لا يمكنني أن أفرض عليه شيئًا. فالصديق الذي تخجل أن تكون أمامه بكل حماقاتك وسذاجتك وحريتك، ليس بصديق، ولن تستقيم العلاقة معه، فكيف إذا كان حبيبًا تحلم بأن تشاركه حياتك.

عندما أخبرتها بأنني لن أستطيع وشرحت لها علاقتي بعمر، لم تستغرب الأمر، وقالت:

- أنا أعرف عمر، وأعرف أنّ هذه طبيعته!

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- دائمًا كان يمنعنا من الدخول إلا بتصريح أو بمقابل مادي.

وعندما قلت لها إنني أفضّل أن أدفع لها ما قد يطلبه عمر منها، على أن أطلب منه، راحت تقول كلامًا لطيفًا ومتفهمًا:

- لا تهتم يا حبيبي... الأيام بيننا وما فاتنا اليوم نعوّضه غدًا، المهم عندي أن تتحسن صحتك وتعود إلى عملك.

حين مرّرت على لسانها كلمة حبيبي شعرت بنشوة فرح تغمرني وسألتها فورًا:

- هل تعنين ما قلتِه؟

- ماذا قلت؟!

- يا حبيبي.

- أنا دائمًا أفكر بك يا يوسف، وأشعر بخواء في اليوم الذي لا أكلمك فيه. أحس بأنني اعتدت عليك، وعلى صوتك وكلامك القليل الهادئ. أنا أشعر حقيقةً بأنني أحبك، ولا أخجل من قول ذلك.

- وأنا أحببتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها. أنتِ أجمل ما في حياتي، ولا أتخيل أبدًا أن أعيش من دونك.

- ها أنت أخيرًا بدأتَ تقول شيئًا جميلًا.

- هل تعلمين بأنك الشخص الوحيد الذي يسأل عني، ويهتم لأمري؟

- معقول؟

- لو تدرين بأنكِ الفرحة الأولى في حياتي.

- كم يسعدني أن أُفرحكَ.

هذه الكلمة «أحبك» جعلتني أفتح لها باب قلبي. وأخبرتها بقصتي منذ المعاناة التي عشتها في طفولتي إلى أن طردني عمي سالم من بيته، والسنوات العجاف التي سحقت روحي بعد ذلك. وعندما سمعت صوتها يتهدج بالبكاء، توقفت وسألتها:

- ما بكِ؟

- هذه المعاناة تذكّرني بمعاناتي، لكن معاناتك أشد.

كانت الكلمات تتهادى بيننا، مفعمة بعذوبة المشاعر، فتنبض في أعماقي فرحة تعجز عن الاختباء، وأحس بدفء جميل يجتاحني، يملأ حياتي بمشاعر لم أعرفها من قبل. بدا لي أنها الحلم الذي طالما راودني، وأنها إن أصبحت شريكتي في الحياة، ستغدو محور عالمي. كنت مستعدًا أن أبذل روحي وجهدي من أجل إسعادها...

***

في اليوم الثاني من الإجازة، وجدتُ نفسي أخيرًا أمتلك متسعًا للتجوال في الحي، لأراقب بصمت ما تبدّل فيه من ملامح وأرواح. أما الدافع الأقوى فكان البحث عن إسماعيل، ذلك الصديق الذي أثقلني الشعور بالذنب تجاهه. رأيت في ملامحه حزنًا تغافلت عنه، ولم أبادر حتى بالسؤال عن أحواله كما ينبغي. كيف أهملته من دون أن أمدَّ يدي إليه، وهو الذي طالما كان عونًا لي في أحلك لحظاتي؟

كنت أسترجع صورته في ذاكرتي منذ ليلة الأمس التي كان يخيم فيها الظلام على كل شيء؛ أردت أن أجلس معه وهو في كامل عقله حتى أسمع أخباره وأقف إلى جانبه، فقد تشاركنا الطفولة والمراهقة، وكان أكبر مني فيقف دائمًا معي ويساعدني. لا أرغب أن تنتهي حكايتي معه بهذه الطريقة الحزينة والسخيفة.

بحثت عنه في كل مكان يرتاده، حتى أنني ذهبت إلى مطعم إخوته وسألت عنه هناك، لكنني لم أخرج بأي نتيجة، وفي نهاية الأمر ذهبت إلى «المركاز»، سألت عنه فأجابوني بسخرية: إسماعيل! لم نعد نراه في الحارة، فدائمًا يكون بصحبة الواد حقه، وعلت قهقهاتهم.

مع ذلك جلست في «المركاز» لأعرف أكثر أخبار الحي. جلست لساعات أستمع، لكنّ الملل بدأ يصيبني. أحسست بأنّني أكبرهم بسنوات طويلة، ولم تعد تلك الأجواء تستهويني، فانسحبت بصمت دون أن يشعر بي أحد.

وأنا في طريقي إلى العزبة بخطوات مترنحة وعقل غارق في أفكار شتّى، مررت بجانب بقالة العم أحمد لأطمئن عليه، وكان في ذهني أن أجد طريقة أخبره فيها عمّا تفعله ابنته حياة. وجدته في محله، فتوجهت نحوه. سلّمت عليه فأجابني بابتسامة دافئة. سألني عن عملي وعن أحوالي وتمنّى لي التوفيق. لكن عندما هممت بالكلام عن ابنته وعادت صورة درويش إلى ذهني. تراجعت عن قول أيّ شيء، والدمعة تكاد تطفر من عينيّ، فكلما تذكرت طيبته وتواضعه، شعرت بالذنب والضعف في نفسي.

10

جاء درويش مرة أخرى وبرفقته حياة أيضًا!

اعتراني الذعر والقلق والألم عندما رأيت حياة مرةً أخرى بجانبه. لا يعنيني أمر درويش، إنما أتألم لذلك الرجل الطيب. ما هذه البجاحة؟ هل تجرّأ درويش وأمسك بيده الغليظة رقبة العم أحمد وهدده بأن لا ينطق بحرف، وأن يترك حياة تعيش كيفما تشاء! كل شيء وارد مع شخص مثل درويش.

سمحت لهما بالدخول من دون أن أنبس ببنت شفة. بصعوبة بالغة رسمت ابتسامة أجامل فيها درويش وهو يلقي عليَّ بعض النكات أثناء مروره بالسيارة.

تكرّرت الزيارات، وكلما جاءا كنت أرفع الحاجز من دون سؤال، فأنا أعرف أنني أدفع الثمن، بحسب قانون درويش، وربما أشاركه أيضًا جريمة اختطاف حياة، فأنا مثل الذي يسمح بتهريب الممنوعات، لكنه يطمئن نفسه بأنه لا يبيعها ولا يستهلكها.

اعتدت على هذا الوضع وبدأت أقنع نفسي أن الأمر لم يعد يعنيني. برّأت نفسي ورميت اللوم كله على حياة التي تستحق مثل هذه النهاية، فهي لا تشارك درويش مرغمة، بل كما أخبرني إسماعيل، هذا يحصل برغبة منها، وهي التي اختارت هذا الشخص المعتوه ليستبيح جمالها ويوغل في الحفر داخل جسدها.

غاب إسماعيل، وغاب ياسين، وغابت أيام المراهقة وكرة القدم و«الحش» مع أبناء الحارة... لم يعد يهمني في هذه الأيام سوى عبير. حبها جعلني أنانيًا، كأنها ألقت سحرها على قلبي، فنسيتُ كل شيء بوجودها. لا أرى غيرها، وحدها تصنع أحلامي بحياة أخرى خالية من شوائب الماضي. إنها الآن السبب الوحيد لشعوري بالفرح والرضى عن نفسي.

ليتك تعلمين يا عبير أنني وجدت نفسي حين وجدتك، بالرغم من قحط الحياة والمشاكل الكثيرة التي تبتلعني كل يوم. أفكر بك دائمًا، وبالمستقبل! حبك جلب لي فكرة الزواج التي كانت بعيدة كل البعد عن خيالي. لقد صرتُ مستعدًا لتحمّل أيّ شيء إذا كانت الغنيمة هي الظفر بك كزوجة.

ما أروع أن أتصور وجودك بجانبي في ذات المكان، حيث تتلاقى أفكارنا وتتقاطع أمنياتنا. أتخيل اللحظة التي ستمنحني الشجاعة لأصارحك بحلمي في الارتباط بك، رغم أنني أدرك أن الوقت لم يحن بعد. أعلم أن الوقت ما زال مبكرًا، وأنه علي أولًا أن أؤمن مستقبلي، وأن أبني حياةً تليق بك، حياةً أتمكن من خلالها أن أقدم لك كل ما تستحقين من حب وراحة وأمان.

سأمنّي نفسي ولن أدع هذه الفكرة تموت في داخلي، سأستمد قوت الصبر من حبك، «سيأتي ذلك اليوم، حتمًا سيأتي»، هذا ما كنت أقوله وأردده لنفسي.

كنت غارقًا في متعة هذه الأفكار عندما رنّ جرس الهاتف، وقبل أن تقول شيئًا بادرتها:

- عبير، أريد أن أراكِ على انفراد!

شهقت وضحكت، وقالت: - ياواد، إنت مستعجل كتير.

قلت لها:

- أريد أن أنظر في وجهكِ. أن ألمس يدك...

فقاطعتني قائلةً:

- أين سنلتقي.

- في أي مكان تحددينه أنتِ.

صمتت للحظات، ثم قالت:

- لديّ فكرة. سأراكَ في الشاليهات.

- وكيف ذلك؟
- أعطيك رقم الشاليه وتأتيني هناك.
- موافق.
- سوف أخبرك بذلك عندما أتدبّر الأمر.

يا لسعادتي برؤيتها على انفراد، ويا لسعادتي باهتمامها الذي ظهر جليًا في اقتراحها، لكن ما أقلقني جدًا أنها اقترحت اللقاء في شاليه! كنت أظن أنها تدخل لتجلس في المارينا مع أخواتها فقط! تفاجأت، لكن لم أجرؤ على مناقشتها في هذا الموضوع، فأنا أعرف أنها تعيش حياة أقل من العادية، ولا يمكنها أن تتحمل إيجار تلك الشاليهات التي يتجاوز أجر الليلة الواحدة فيها الألف ريال.

توالت الأيام بعد ذلك الوعد، وفي كل مرة أراها تقترب من البوابة أخرج لاستقبالها فتفتح نافذة السيارة وتبتسم لي. وعندما أسألها في مكالماتنا متى سأراها، تؤكد بأنها عند وعدها! وتتعلّل بأنّها كانت مع عائلتها:

- كما رأيت، عائلتي كانت معي، لكن سأتدبّر يومًا أكون فيه وحدي.

كنت ألاحظ أنها في كل مرة تأتي بصحبة نساء لا أعرف عنهن شيئًا سوى ضحكاتهن التي تخترق أذني.

استمر الوعد معلقًا على هذه التبريرات، وكلما عاتبتها، تكرر لي بأن الوقت لم يحن بعد.

لم أكن ألحّ عليها حين تعتذر مني بلطف، فما يعنيني هو سلامتها أولًا، وعدم الضغط عليها حتى لا تتوتّر أو تظنّ بي ظنَّ سوء. كل ما يشتهيه قلبي هو الوقوف أمامها، الجلوس بجانبها، ملامسة كفها، الاقتراب منها وأن أقول لها «أحبك» وعينيّ تسرحان في عينيها. كنت بحاجة ماسة لاحتضانها بقوة الحرمان الذي عشته طوال حياتي، لأشعرها بحرارة الحب الذي يجري في عروقي.

في كل مرة أتحدث معها أمام البوابة، أشعر أن نظرات عمر تخفي شيئًا، شيء يكتمه ويتردّد في أن يطلعني عليه، أسمعه يتأفف، تتغير تعابير وجهه ويعبّر عن تبرّمه. لست أدري هل هي الغيرة! أم إنني خالفت النظام وهو يريد أن يحذرني؟ أكثر من مرّة فكرت أن أفاتحه بموضوع عبير ونحن نقطع الطريق معًا من أو إلى العمل لكنني لم أجرؤ يومًا؛ فمرافقته هي مصلحة متبادلة وليست صداقة حقيقية.

أخيرًا قررت مفاتحتها هي، فقلت لها معاتبًا عبر الهاتف:

- أنت تتهرَّبين مني!

- لا أبدًا، أنت ترى أنّ وضعي لا يسمح لي. أحتاج أن أكون وحدي.

- ومتى سيسمح وضعك؟

- سيحصل عن قريب... أرجوك أن تقدّر ظروفي.

مضى أكثر من أسبوع صرت أقطع فيه مكالماتنا بداعي التعب، ولا أقترب من سيارتها عندما تأتي، إلى أن جاءت الليلة المنتظرة. وأنا أفتح البوابة للسماح لسيارتها بالعبور، أومأت لي أن أقترب وقالت لي بشكل سريع: «الساعة الواحدة في شاليه رقم 13». أربع ساعات كانت تفصلنا عن الموعد. أمضيتها على أحرّ من الجمر وأنا أعدّها بالدقائق.

كنت أعرف أنني سأغامر بوظيفتي فيما لو طال غيابي عن مكان عملي، خاصةً وأنّ عبدالله كان قد أنذرني، ولكن الشوق الذي يتأجج في قلبي كان أقوى من صوت العقل والمنطق، والرغبة التي تعتلج في داخلي كانت أقوى مني.

الوقت يمضي ببطء شديد، يشبه زحف الساعات وأنت برفقة مريض. لم يعد يهمني أي شيء، لا عملي، ولا عبدالله، ولا نظرات عمر، ولا البخشيش الذي سأخسره... ما كان يهمني حينها هو أن أراها على انفراد.

عند الساعة الواحدة أطلقت ساقيّ للريح بعد أن أخبرت عمر بأنني أريد أن آكل شيئًا؛ «حسنًا، لكن لا تتأخر» قالها بوجهه الجامد كعادته،

ونظرته التي توحي بأنه يعرف سبب جوعي غير المعتاد في هذا الوقت. حين اقتربت من الشاليه رقم 13 رأيت الباب مواربًا ونافذة الدور الثاني المطلة على الشارع مضاءة. مشيت بخفة وهدوء حتى صرت ملاصقًا للباب، دفعته بحذر شديد لعلّي أرى شيئًا، فتناهى إلى سمعي صوت موسيقى صاخبة، وقهقهات نساء ورجال.

تشجعت قليلًا وأدخلت رأسي الصغير فوجدت المكان مظلمًا إلا من ضوءٍ خافت. ترددت وعدت إلى الوراء حتى توقفت على الرصيف إلى جانب شجرة حتى أختبئ إن صادف مرور أحد، ظللت واقفًا منقّلًا نظري بين النافذة والباب حتى رأيتها تنظر عبر النافذة، فأشرت لها بيدي وأنا ألتفت يمينًا ويسارًا مثل لص، فابتسمت لي وأشارت بيدها أن أنتظر.

دقائق وإذا بالباب ينفتح وهي تنادي باسمي. قطعت الشارع على رؤوس أصابع قدميَّ فأمسكَت بيدي وأدخلتني ثم سحبتني في ممر كالدهليز على يمين المدخل.

توقفت أمامي بكل زينتها، بوجهها الحنطي وعينيها السوداوين الواسعتين وشعرها الملفلف البني تتخلله خصلات ذهبية. جذبتني شفتاها المكتنزتان المصبوغتان بالروج الأحمر، كانت شهية مثل فاكهة وأنا غارق في استباحة جسدها ببصري. جسدها نصف العاري وهي ترتدي شورت جينز يُظهر كامل فخذيها ويشدّ على مؤخرتها. ومن صدرها ينفر نهداها العارمان، يتحركان بحريّة تحت تيشرت رقيقة كاشفة.

ملأت أنفي رائحة عطرها، تمنيت لو أعفّر وجهي بين نهديها وأحتضنها بشدة، لكنّني تجمدت في مكاني وانعقد لساني وتلاحقت أنفاسي بسرعة، ليس خوفًا إنما رغبة في ضمّها أو تقبيلها.

كانت أطول مني، وحين دنوت ابتعدت هي خطوة إلى الوراء. واكتفت بمسك يدي، كإشارة واضحة منها للهروب من أي ملامسة أعمق. كسرَت الصمت الذي يؤجج العاطفة فيما بيننا وقالت:

- كيفك حبيبي.

تكلمَت بهمس وهي تتلفّت يمينًا صوب المدخل. فقلت:

- مشتاق لكِ حبيبتي.

فقالت:

- لا يمكنك أن تطيل البقاء. أنا نفّذت وعدي. عليك أن تذهب الآن، أخشى أن يرانا أحد!

أصبت بخيبة، وانهار جسدي المتحفز لاحتوائها، وبانت على وجهي ملامح الصدمة، وقلت:

- ألن نجلس سويًا؟!

أمسكت يديَّ الاثنتين وشدّت عليهما وقالت:

- لقد جاء إلى الشاليه ضيوف لم نكن نتوقّعهم. في المرة القادمة نلتقي في ظروف أحسن.

بقيت صامتًا وفي عينيَّ ذهول واضح. حين لاحظت كل هذا الإحباط، قبلتني على خدي ثم طلبت مني الخروج بسرعة، واتجهت باتجاه آخر.

هكذا انتهى اللقاء. لقطة سريعة مثل فلاش كاميرا أنتج صورة باهتة. عدت أمشي بخطى ثقيلة، أعيد التفاصيل الباهتة لمشهد لقاء حلمت به كثيرًا ورسمت له في مخيلتي مشاهد وأحداث عن حضن دافئ، وقبلة حارّة بقدر حرارة الشوق، عن كلمات في الحب لم تُقل، عن وعود تجعل الجسد يتقلب في نعيم الحب، عن... وعن... ولكن ذلك كله لم يحدث.

11

تكررت اللقاءات بيننا على فترات متباعدة. دائمًا لقاءات سريعة حذرة، تمرّ لحظاتها بخوفٍ شديد. لقاءات لا أنال منها إلا التعب النفسي، فأعود في كل مرة خائبًا منكسرًا وحزينًا. كل ما يحدث بيننا كلمات بات تأثيرها باهتًا، وقبلةٌ سريعة تزيد ما أختزنه من الشوق واللهفة.

لقد وضعتني في حالة من الحيرة والقلق الشديدَين، فهي حين تكلمني عبر الهاتف تكون امرأة أخرى، تحترف لغة الحب والعشق، وعلى لسانها تجري عبارات الجنس بلا خجل. وعندما ألتقي بها وجهًا لوجه تصبح امرأة أخرى، مترددة، لا أسمع منها شيئًا من الكلام الذي أسمعه عبر الهاتف. تبدي حياء كأنها لا تجرؤ على منحي ولو قبلة واحدة، وإن اقتربت مني تكون حذرة جدًا ويظهر الخوف في عينيها.

لم أعد أحتمل الرغبة المستعرة في داخلي، والمشاعر التي تغلي في عروقي في كل مرة أقترب منها، فقررت أن أعرض عليها الزواج.

في مكالمةٍ تكرّرت فيها كلمات الحب حدّ الوله، عرضت عليها الزواج والخوف يغمر قلبي. خشيت أن تقودني هذه الخطوة إلى الوحدة مرة أخرى. ولكنّني تشبثت بكلمة «أحبك» التي تقولها لي صباح مساء، فهي الكلمة التي تمنح عيشي القوة، الكلمة التي تمنحني السعادة، وتغسل درن الأحزان، الكلمة التي تجعل قلبي مليئًا بالحياة وتبقيه طفلًا لا يشيخ.

هي تحبني وأنا راهنت على ذلك.

استقبلَت الخبر بصمتٍ طال، كأنّ لسانها قد جفّ، أو أن الكلمات ماتت في فمها. بقيت صامتًا أنتظر جوابها، تجتاحني الهواجس. طال الصمت إلى أن نطقت بكلمتين: «دعني أفكر»، ثمّ أنهت المكالمة بعبارة «سأفكر وأردّ عليك» وغابت.

غابت وتركتني في قلق وخوف زادهما قطع التواصل بيننا لمدة أسبوع. شعرت بأنها النهاية، لم أكن أتصوَّر أن غيابها سوف يغتالني بهذه الصورة المخيفة. كنت أفكر بها طوال الوقت، صوتها يرنّ في أُذني، وصورتها لا تفارق خيالي، هي معي في كل خطواتي. لم أعد أستطيع النوم، أتقلب دائمًا متعَبًا، مرهَقًا ولا أنام. أكره أيّ ضجّة خوفًا من أن يرنّ الهاتف ولا أسمعه. لكن لا فائدة.

كرهت نفسي بسبب ما فعلته. ليتني لم أعرض عليها الزواج. هل تخطيت حدودي ونسيت من أنا؟ أحيانًا كنت أبكي لفقدها، فأنا من دون عبير لا شيء، لا شيء على الإطلاق!

لم أتخيل أن تكون لعنة الحب بهذه الصورة، ولا أن يتحول الإنسان الذي يرزح تحت وطأة الغياب إلى كائن يجد صعوبة بالغة في التنفس، ولا أن يصبح الوقت ثقيلًا يكره عيشه.

كل شيء أصبح باهتًا في نظري، صار معتمًا، فقدتُ نفسي، روحي تهيم في فضاءات لا نهاية لها من الوجع، أحسستُ لوهلة أن الحياة هي عبير، فيها تجتمع كل معاني الفرح بالنسبة لي.

كلما هممت برفع الهاتف لأتصل بها، أجد يدي ترتجف قبل أن أضع السماعة مجددًا. كأنّ هاجسًا يمنعني من الإقدام، وكأنّني أخشى أن تواجهني كلمة الرفض فتعيدني إلى ذاك الألم، إلى ذكرى سعاد التي تركت في قلبي جرحًا لا يندمل.

بعد غياب استمرّ لأسبوعين من العذاب، خاصة وأنها كانت تأتي إلى الشاليهات لكنها لا تقول شيئًا يخصنا، رنّ الهاتف فقمت من فراشي مثل ملدوغ. رفعت سماعة الهاتف وإذا بصوتِها يأتي مثل رُقية أو بلسم. قالت عبارات كان فيها شفاء لروحي. دار بيننا حديث طويل مليء بالعتب والشوق إلى أن قالت لي:

– اسمع يا يوسف، الزواج أمر كبير وخطير، وأنا موافقة إذا استطعت أن توفر على الأقل ثلاثة أشياء.

بلهفةٍ أجبت فورًا:

- هيا اطلبي؟

- أولًا بيتًا في حي النزلة، لأنني أريد أن أكون قريبة من أمي، ثانيًا أن تمتلك سيارة، وثالثًا أن تغيّر عملك.

- ولماذا أغيّر عملي؟

- لأن الراتب لن يكفي.

من دون تفكير ولا نقاش قبلت بشروطها. خفت أن أفقدها مرة أخرى، أريدها أن تبقى معي مهما كلفني ذلك، سأبذل كل ما في وسعي، وسأعمل على توفير ما طلبته مني.

انتهت المكالمة وبدأتْ مرحلة أسائل فيها نفسي: كيف سأحقق ما وعدتها به؟ من أين أبدأ؟ محال أن أترك عملي في هذه الفترة، ففكرت بالبيت كأولِ خطوة.

عيش الحياة على وتيرة واحدة، في روتين ممل لا يتغير أبدًا، هو موتٌ بطيء. فكرة الزواج بعبير هي أولى مراحل التغيير في حياتي، فهي تحثني على أن أنسلخ من جلدي القديم، لأتحول إلى إنسان آخر، إنسان يعيش. «لا بد أن أتحمل مسؤولية قراري وأقبل التحدي، فلا مستحيل في الحب، ولأنّني أحبها سأفعل كل شيء حتى أحصل عليها»، هكذا حدّثت نفسي.

على الفور قرّرت البدء بتلبية ما طلبته عبير. فتحت الصندوق الذي كنت أجمع فيه المال، أخذت منه مبلغًا وضعته في جيبي وبدأت رحلة البحث عن منزل.

عثرت على شقة فى مبنى يتكون من طابقين، الطابق الأول مستأجَر من عائلة سودانية. الشقة تتكون من غرفتين صغيرتين وصالة وحمام واحد، ومطبخ صغير.

لم أدقّق في شيء. المهم أن يكون لنا بيت أنا وعبير يجمعنا معًا.

استندت على ما أخبرني به صاحب المكتب العقاري. دفعت له مقدَّمًا لستة أشهر وأخذت المفتاح والعنوان من دون أن أذهب لتسلّم البيت، كنت أريد أن أدخله بصحبة عبير لتراه معي ونرسم معًا احتياجاتنا وأين نضع كل قطعة من الأثاث.

حين أخبرت عبير بأنني قد انتهيت من أمرِ البيت، جاءني صوتها مخنوقًا بالقلق والدهشة، وبنبرةٍ مرتجفة: «بهذه السرعة! وكيف أمكنك ذلك؟ وأين مكان البيت؟».

– إنه في النزلة اليمانية حيث طلبتِ. سأحفر الصخر بأناملي كي تكوني معي، لن أدخل البيت إلّا معكِ، ولن أنام فيه إلّا وأنت بجانبي تشاركينني السرير نفسه. لن يهدأ لي بال ولن أرتاح حتى أحقق كل أمنياتك، لأن أمنيتي الوحيدة هي العيش معكِ يا عبير، حياتي لا معنى لها من دونك، غير ذلك لا أتصور بأنّني قد أحتمل العيش في هذه الحياة.

بدت خائفة أكثر ممّا هي سعيدة. لاحظت ذلك في نبرةِ صوتها، في ردةِ فعلها، في حديثها الجاف الذي خلا من تلك الضحكات، وكلمات الحب.

قدّرت أن السبب ربما هو الخوف، الخوف من أن لا تتحقق هذه السعادة. هذا ما قلته لنفسي. كنت أقنع نفسي بأن خوفها الذي يظهر في مكالماتنا ناتج عن خوفها من عدم قدرتي على تحقيق ما طلبت، ولا بدّ لي من طمأنتها بأقصى سرعة.

الخطوة التالية كانت السيارة. على الرغم من الإنهاك الذي يصيبني بعد انتهاء عملي، قررت عدم النوم والذهاب للبحث عن السيارة. وبعد جولة أولى خفت أن أتحول إلى مضغة سائغة بين أسنان «الشريطية» الذين يتحلقون حول الزبون مثل الضباع الجائعة، يمتدحون له السيارة وسعرها، ولا يهمهم في أي فخٍّ يقع. فاتجهت إلى درويش، فهو الوحيد الذي بإمكانه مساعدتي، على الرغم من كرهي الشديد له. وحده ممن أعرف يمكن أن يساعدني، وفي كل حال «لكل شيء ثمن»!

أخبرني درويش أن السيارة المستعملة النظيفة قد تكلفني ثمانية آلاف ريال، وأنه سيستخدم علاقاته في البحث عن مثل هذه السيارة وبهذا السعر، فوافقت سريعًا، إذ كنت مندفعًا وحريصًا على إنهاء كل شيء في أقصر وقتٍ ممكن.

كنت أعدّ ما تبقى لي من مال. كان المبلغ ستة آلاف. من أين سأحصل على المبلغ المتبقي؟ عليَّ أن أخبر درويش أنّ حدود إمكاناتي ستة آلاف. لكنني تراجعت، لأنّني فكرتُ في سيارةٍ تليق بعبير وتعجبها.

قرّرت أن أتأخر في شراء السيارة حتى أجمع المال الكافي. وهكذا رحت أنهش المزيد من الزبائن الذين يأتون إلى الشاليهات. رفعت سعر الدخول. صرت أكاد لا أرفض دخول أحد... المهم أن يدفع. تحولت إلى إنسانٍ شره يستغل كل لحظة تدرُّ عليه المال. وبعد أن كنت أنتقي الشباب الذين أسمح لهم بالدخول مقابل المال من خلال سيارتهم الفارهة وأشكالهم التي توحي بالثراء والنعمة، بتُّ أهمس لكل شاب يحاول الدخول للشاليهات بتلك المقايضة.

كنتُ ألهث خلف الزمن، أسابقه بشغفٍ كي أصل إلى عبير في أقرب لحظةٍ ممكنة. في الحب لا يوجد مستحيل، فلا شيء يعجزني عن تلبية رغباتها. أستطيع أن أقدم لها حياة لم تجرؤ على الحلم بها، وتلك هي سعادتي، ذاك هو حظي وكل ما لم أكن أظنه متاحًا لي في يوم من الأيام.

لا شيء يوقف اندفاعي، لكن تقلقني نظرات عمر المحمّلة بالكثير من التحذير، وصمته الذي يسوطني بما هو أقسى من نظراته، إذ يمتد هذا الصمت حتى في ذهابنا وعودتنا إلى العمل!

12

في مقابل اندفاعي لتلبية مطالبها، أرى عبير تتغير على نحو غريب في تعاملها معي. الغموض يكتنفها، روحها المرحة غابت، كلمات الحب صارت نادرة، عبارات الجنس تلاشت نهائيًا. تحقيق مطالبها جاء عكس ما كنت أرجوه، وحين أسألها عن ذلك، تُجيبني «لا شيء يا يوسف، ولكنّني غير مصدقة ما يحدث بيني وبينك».

أتوقّع أنها تخشى أن تخوض تجربة الزواج مرة أخرى، أن تُكسَر بيد رجل آخر، فالمرأة إذا طُلقت مرتين ستحلّ عليها اللعنة من مجتمع لا يغفر مثل هذا الذنب العظيم! أخترع لها المبرّرات لأخفف حيرتي الّتي تزداد كل يوم.

كما في كل ليلة، كنت منهمكًا في تفتيش السيارات، منشغلًا في عقد المقايضات مع الشباب الذين لا يملكون تصريحًا للدخول، خرج لي وجهُ درويش «المجعرم» وبجانبه حياة. ألقى التحية بصوتهِ الأجش المخيف، فسمحت له بالدخول كعادتي دون أن أنبس بحرفٍ واحد، فليذهبا إلى الجحيم هو وتلك العا...، وقبل أن أكمل شتيمتي جاءني وجه العم أحمد.

في منتصف الليل، حدث أمرٌ غريب من النادر وقوعه. خفق قلبي حين سمعت عمر يقول: «أكيد في مصيبة بالداخل» حين رأينا سيارة أمن خاصة بسلاح الحدود، وسيارة أخرى خاصة بالشرطة، عند البوابة. كنت أنظر إلى وجه عمر بهلع وخوف لعلَّ لديه خبرًا عمّا يحدث.

لحظات ورنّ صوت التلفون الصغير في جوف الكابينة التي تضمّني أنا وعمر، وحين رفع السماعة بتحفّز وخوف، سمعتُ عبدالله يصرخ: «أرسل لي يوسف فورًا». وحين أغلق السمّاعة قال:

- اذهب إلى عبدالله ضروري.

ازدادت ضربات قلبي هلعًا وقلت:

- لماذا، ماذا فعلت؟!

أجابني ببرود:

- لا أعلم، اذهب بسرعة.

حين اقتربت من مكتبِ عبدالله كان واقفًا يتحدث مع رجل الأمنِ. وهالني منظر «المجرمِ» وحياة في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة. أدركت حينها أنني شريكٌ في هذه الجريمة التي لا أعلم عنها شيئًا.

خلال تلك اللحظات المليئة بالقلق والخوف، جاءت سيارة إسعاف وتوقفت أمام المكتب، مما جعل الأمر يبدو فظيعًا ومخيفًا، علمت أنّ هناك خطبًا جللًا، كارثة قد حلّت. اشتغل طنين سيارة الشرطة التي انطلقت وفيها درويش وحياة إلى مصيرٍ مجهول.

لا زلتُ متسمرًا في مكاني، أراقبَ المشهد بعينين مفزوعتين: رجل مصاب، ملقى على سرير طبي، ودماءٌ ملأت ثيابه، وامرأة إلى جانبه تصرخ بحرقة ولا تكف عن النحيب. في الجهة الأخرى، عاد عبدالله إلى مكتبه مشغولًا بمحادثة رجل الأمن من خفر السواحل، وتوقيع بعض الأوراق وسط جوٍّ من القلق يملأ المكان.

بعد أن خلت الغرفة من الضوضاء، أشار لي بإيماءة صامتة أن أدخل، فخطوتُ ببطء، والقلق يعصر قلبي. كان كل شيء حولي غريبًا، كأنما الزمان قد توقف، وما من شيء سوى خوفٍ يتصاعد في صدري. وقفتُ أمامه مشدوه العينين، أواجه نظراته الغاضبة وكأنها تتسلل إلى أعماقي. كان وجهه محمّلًا بأعباء ما لا أفقه، وعيناه يتطاير منهما الشرر، وكأنما يحملان غضبًا عميقًا لا يرحم. تناول سيجارته عن الطاولة وأشعلها بتلك الحركة الميكانيكية التي بدت كأنها جزء من طقوسه اليومية. استنشق منها نفسًا عميقًا، ثم نفثه في الهواء بقوة، كأنما يطرد به كل ما يثقل صدره، وقال:

- أنت، كيف تسمح لدرويش بأن يدخل من غير تصريح؟

تلعثم لساني، وجفّ حلقي من شدة الخوف. شعرت بأنّني سوف ألحق بدرويش وحياة، فبقيت صامتًا.

فأكمل بصوتٍ حاد:

- تكلم!

- لا أدري، ظننت أنه صديقك، فهو جاء بي للعمل هنا، فسمحت له بالدخول.

قال في سخرية:

- يعرفني أو ما يعرفني، لقد أخبرتك منذ البدء أن لا تسمح لأحد بالدخول كائنًا من كان إلا بتصريح.

لم يكن لديّ ما أقوله، ففضّلت الصمت.

وأردف:

- ومعه أيضًا فتاة لا هي زوجته ولا حتى من بقية أهله.

فسألت بصوتٍ متحشرج:

- ما الذي حدث؟

قال وهو يدخن سيجارته بشراهة:

- درويش هذا، كان يعربد في إحدى الشاليهات مع هذه القحـ... من غير إيجار أو حتى تصريح.

كأنّ صاعقة هوت على رأسي، لم أكن أتخيل بأن درويش حين يأتي إلى هنا يستحل شاليه، كنت أتوقع بأنه لا يتجاوز حدود المارينا، لكن أن يأخذ شاليه كامل هذا ما لم أكن أعلم به.

قلت مبرّئًا نفسي:

- صحيح أنا سمحت له بالدخول، لكن موضوع الشاليه أمر لا أعلم عنه شيئًا، لا بد أن شخصًا ما قد سمح له بذلك.

- من تقصد؟

- لا أعلم، ولكن من المؤكد أن أحد العاملين هنا بالداخل أمَّن له ذلك الشاليه.

غضب من رعونة كلامي وقال:

- درويش ابن الكلب، كان في الشاليه في حالة سكر، وحين جاء المستأجر الحقيقي، رفض الخروج وتهجّم عليه وطعنه بسكين على مرأى من زوجته، والحمدلله أن الطعنات جاءت في ساعده وبطنه.

كاد قلبي ينخلع من الخوف وأنا أسمع دويّ ما يقوله عبدالله عن هذه الجريمة، واختنقت من شدة الرهبة ولم أنبس ببنت شفة.

أضاف باستغراب:

- ثمّ يا سيد يوسف منذ فترة تتكاثر الشكاوى بسبب كثرة الشباب وتجمهرهم أمام الباب المؤدي إلى المارينا. إضافة إلى شكاوى من حراس الأمن بسبب كثرة الوجوه الغريبة! هل يعقل أن كل هؤلاء الشباب يملكون تصاريح؟!

أجبت وكأنّني لا أعلم بشيء:

- لا أدري.

- إمّا أنت أو عمر، واحد منكما هو المسؤول عن هذه الفوضى.

حاولت أن أنفذ بجلدي:

- يمكن عمر يدخلهم، بالنسبة لي أنا لم أُدخل أحدًا من دون تصريح.

ابتسم بخبث ومكر وقال:

- يعني عمر يتهمك، وأنت تتهمه. عمر أعرفه من زمان، رجل في حاله، ولا يمكن أن يتجاوز النظام ويقوم بمثل هذه الفوضى.

قال وهو يزحف بكرسيه إلى الوراء حتى بان بطنه المتكور مثل ظهر سلحفاة:

- تعال آخر الشهر وخذ راتبك، ومن هذه الليلة لا عاد تورّيني وجهك.

أردت أن أدافع عن نفسي، أن أحرر رقبتي من حبل المشنقة، لأن

طردي يعني خسارة عبير والعودة إلى البؤس والتشرّد. أردت أن أبكي، أن أتوسل إليه، أن أعترض وأعِدهُ بالالتزام، لكن كل ذلك لم يحدث. غمرني الخوف، وأحسستُ بالخنوع مرةً أخرى وبأنني مسلوب الإرادة. أعرف هذا الشعور جيدًا. يتملكني دائمًا حين أصل إلى مفترق طرق، حين أقف عند منعطفات العتمة. أختار الهروب دائمًا متسربلًا بضعفي. ها أنا مرّة أخرى أهرب نحو المجهول.

telegram @
yasmeenbook

13

ما يؤرقني الآن هو كيف أخبر عبير؟

أخشى عاقبة ذلك. أخشى أن تسوء الأمور وتضيق حياتي التي لم تعد تتسع لشيء مُبهم يُقال له «الفرح»، لأنّ من هم على شاكلتي يتزعزع إيمانهم بوجوده. أحببتُ نفسي من أجلِ عبير، هي صوت المطر الذي يُشعرني بجمال الحياة، هي الوردة التي نبتت بين تشققات قلبي، هي الغيمة التي ظللتني من هجير اليأس، واليد التي امتدت نحوي، والوجه الذي تبسّم لي حين عافني الزمن.

خفت أن يختفي وجه عبير فتظلم الدنيا في عينيّ. تمنّيت لو أنني لم أطلب الزواج منها، ربما لو أنها حبيبتي فقط لتجاوزنا معًا هذه المحنة، لكنها الآن تنظر إليّ كزوج عليه أن يفي بمتطلبات الزواج، وهذا يثقل كاهلي ويتعبني. قررت أن أخفي عنها ما حدث إلى أن أعثر على عملٍ آخر، وأترك للأيام ما يخفيه قدَري. الطريق مظلم والنور يتلاشى في الأفق، وعليَّ أن أبحث عن مخرج سريع من هذه الورطة.

عندما سألتني عبير عن سبب تغيّبي عن العمل، غلبني الكذب، وأخبرتها أنني مريض وأحتاج بضعة أيام للراحة. هكذا صرت أختلق المبررات، وأحرص على الحفاظ على تواصلنا كما لو أن شيئًا لم يتغير. هي تلحّ على معرفة موعد عودتي، لكنني لا أمتلك الشجاعة لأخبرها الحقيقة. حتى جاء يوم الخميس؛ وهو اليوم الذي عادةً ترتّب فيه ذهابها معي، حيث تبلغني مسبقًا عن وقت وصولها لتجنب الزحمة، خاصّة وأنّه دور عمر على البوابة. فكان عليّ دائمًا التدخل لترتيب دخولها مع أخواتها، كما كانت تقول.

اتصلَت صباح الخميس وكانت لطيفة ومحبّة ومثيرة في كلماتها. قالت:

- حبيبي، أنت تعلم أنني أحرص على الذهاب إلى الشاليهات مع أخَواتي كلّ خميس، وعمر سيزعجني في حال غيابك.

كنت قد حضّرت جوابًا أملت أنه سيرضيها، فقلت:

- حبيبتي، أنا تغيّبت عن العمل بداعي المرض، لكن الحقيقة أنني كنت أبحث عن عمل آخر كما طلبتِ مني.

سألتني بنبرة عجب:

- هل تتكلم بجد؟

- نعم. وقد وجدت عملًا جيدًا وتركت العمل في الشاليهات.

قالت بنبرةٍ كان الغضب المكتوم واضحًا فيها:

- كان يجب أن تخبرني بتركك العمل، فقد وضعتني في موقفٍ محرجٍ مع أخواتي. وإذا لم ترجع إلى العمل في الشاليهات لا تتصل بي.

وأقفلت الخط.

منذ ذلك الخميس توقفت عن الاتصال بي، أما أنا فقد زاد تعلقي بها. بقيت تملأ الفراغ في حياتي، هي التي فجّرت في نفسي ينابيع الحب، وكشفت الظلمة عن حياتي. كنت غريقًا وكانت طوق نجاتي. هي الأنثى التي أيقظت بداخلي رجولتي وعلمتني كيف تكون المرأة هي الحياة، الفرح، الأحلام والمستقبل! المستقبل، كلمة لم أعرفها ولم أفكر فيها قبل عبير.

مخيفٌ جدًا أن يصبح مصيرك مرتبطًا بشخص واحد، وأن تصبح سعادتك معلقة على حافة وجوده وكأن الكون يدور حوله. لأن فقدان هذا الشخص يكون مثل الزلزال الذي يهز أعماقك، ويتركك في فراغٍ لا حدود له.

في الفراغ الذي أعيشه بعد ترك العمل، كلما غابت عبير يحضر درويش «المجعرم». يغيب طوق النجاة، ويحضر الوحش أو الشيطان أو...

14

طلبتني الشرطة للتحقيق معي، ورويت لهم كل قصّتي مع درويش منذ أن أجبرني على العمل في بقالة العم أحمد، إلى العمل في الكبائن. فحتى عندما تسبب لي بكل هذا الأذى لم أتخلص منه، بل تعرّضت للإهانة والضرب والاعتقال في أسوأ الظروف لأن المحقق لم يصدّق في البداية حكايتي وظنّ أنني واحد من شبكته. وكان عليَّ أن أتحمل كل أشكال الإهانات قبل أن يتأكدوا أنني لست سوى ضحية لهذا المجرم، ولست شريكًا في أيّ من أعماله القذرة التي راحت تتكشّف وتجرّ معها شركاء كثُر له.

أخيرًا أُطلق سراحي، وزُجَّ بدرويش في السجن ودعوت الله أن يطول بقاؤه هناك. إنه لعنة حلّت في الأرض، يتسلّط على الضعفاء الطيبين الذين يقاتلون من أجل البقاء ولو على هامش الحياة.

ذاع خبر سجن حياة ابنة العم أحمد. كانت الفضيحة مدوية وانتشرت مثل هشيم في النار. العم أحمد تنكّر لها في البداية ورفض أن يتسلمها بعد أن أفرج عنها، وقال: «الشوارع أولى بها، إن رأيتها سأجزّ رأس تلك العاهرة، إنّها ليست ابنتي». تبرّأ منها أمام كبار الحارة وعُقلائهم الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق أن يجعلوه يعدل عن رأيه.

العم بكري، وهو أحد أصدقائه المقرَّبين جدًا وأحد أصدقاء تلك الجلسة المعتادة فوق الدكة أمام الدكان، قرر أن يتسلّم حياة من مركز الشرطة بعد أن طال مكوثها هناك، حتى قيلَ إن أفراد الشرطة الذين كانوا يسمعون صراخها تستغيث في كل ليلة وتطلب الخروج، تعاطفوا معها وكلّموا العم أحمد حتى وافق على أن يتصرّف العم بكري.

أواها العم بكري في بيته، وحثّ عائلته على معاملتها برحمة ولطف لأنها مجرد ضحية. بعد شهرين، شعر العم أحمد بالإحراج من صديقه، وهو يعلم بفقره وحالته، فقرر أن يُعيد ابنته حياة إلى البيت.

انطلقت إشاعات أخرى بأنّ العم أحمد قام بحرقِ جلدها حتى تشوَّه جسدها، وحلق شعر رأسها بأكمله، وحاول أن يقطع لسانها. كل ذلك كان تكهنات وأقاويل، ولكن ما ثبتت صحته هو أن العم أحمد قام بوضع سلاسل غليظة حول قدمي حياة، وقال لها: «ستموتين هنا في مكانك ولن تخرجي أبدًا ما حييت، وسأذيقك العذاب والهم والحزن، مثلما كسرتِ ظهري وطأطأت رأسي، وأذقتني الهَمَّ والغَمّ في حياتي».

سيغيب ذكر درويش «المجعرم» ويُنسى، وسيظلّ ما فعلته حياة لزمنٍ طويل. ولن تموت حكايتها لأنّ المرأة تتحمّل من قساوة المجتمع ما لا يتحمّله الرجل. ستبقى قصة حياة تُروى على كل لسان، وكل رواية عنها تختلف عن الأخرى، ولكن مهما اختلفوا في سرد روايتها ستبقى الفضيحة واللعنة تلاحقها حتى تموت، أو تهاجر بعيدًا عن هذا الحي الموبوء بالخراب والمخاوف.

خرجتُ من الاعتقال وعُدت للتيهِ وتمشيط الشوارع والأزقة من جديد. أوّل ما فكّرتُ فيه هو البحث عن إسماعيل الذي ابتلعته الأيام واختفى أثره. ذلك الصديق الذي يجمعني به تاريخ ممتد من الذكريات، الصديق الذي أحبني كما أنا وتآلفت معه روحي. اشتقت للحديث إليه، للجلوسِ معه، لصحبتهِ ومرافقته في سيارته الدباب الصغيرة ونحن نخترقُ كل أحياء الجنوب، ونقضي الليالي معًا غير مكترثين بأحزانِ الماضي ولا حتى بمخاوف الغد.

كان الوقتُ شتاءً، ومدينة جدة يصفعها البرد لفترة وجيزة، لكنها تبدو فاتنة في تلك الأيام. جدة في فصل الشتاء لا يقرُّ لها قرار، مدينة لعوب حتى في مناخها، فقد يهجم البرد فجأة فتضطر إلى ارتداء الملابس الشتوية، ثمّ ينقلب المناخ إلى الحرّ دونما إنذار. لكنها فترة بديعةٌ تحرّض الناس على التحرش بجمال المدينة فيخرجون في شوارعها ومقاهيها ومطاعمها ومحلاتها أكثر من المعتاد.

بحثت عن إسماعيل في كل مكان، مسحتُ الحي مرةً بعد مرة، سألت عنه في «المركاز» والدكاك، وبحثت في الأماكن التي كانت تجمعنا معًا. سألت عنه إخوته في المطعم وأجابوني بغضب بأنهم لا يعلمون شيئًا عن هذا «الداشر» كما قالوا. هل انشقت الأرض وابتلعته؟ هل ابتلعه بحر جدة، أو مات في عُزبة قذرة محشورة وسط بيوت مشبوهة، أو ربما في خرابة بعيدة عن أعين الناس؟! لا أدري... لا أدري.

لقد أصابني الصداع من شدة التفكير في اختفاء إسماعيل، أسئلة بكماء استحوذت على عقلي: أين هو؟ أين اختفى؟ هل سافر؟ هل قُبض عليه متلبسًا بجريمة؟! هل مات؟ ما جعلني أستبعد موته أنّ عمّار امّحى أثرهُ هو الآخر، وهذا يعني أنّهما معًا في مكانٍ ما؛ ولكن أين؟

يبدو أن عمّار قد جرّهُ إلى طريقٍ مظلم، والقلب إذا عَشق ينساق دائمًا للمحبوبِ. صرتُ أعرف هذا. إسماعيل ترعرع في الحارة على حُبِ ذلك الغُلام، يحلمُ بوصالهِ واتخاذهِ خليلًا مدى العمر، لا شكّ في أنّ عمّار له تأثيرٌ قويّ على إسماعيل، وهو مَنْ اختطفه وهرب به بعيدًا. أعرف أنه قد يفعل المستحيل من أجلِ عمار، ولو كلفه ذلك أن يتخلى عن كل شيء.

في كل يوم أغذّ خطايَ في أحياء الجنوب، متنقلًا بين حاراتها وأزقتها، في النزلة والقريات والسبيل والهنداوية. البرد يصفع وجهي ويخترق جسدي النحيل، بالرغم من الكوت الرخيص الذي أحتمي بداخله. أعرف كل الأماكن والحارات التي تستهوي إسماعيل. أبحث ولا أجده.

لم أكن أُبالي بطول المسافات التي أقطعها مشيًا على الأقدام، فقد اعتدتُ ذلك، حتى لُقّبت بـ«الهرّ» لكثرة المشي والتجول في الحارة معظم الوقت في تلك الفترة التي أعقبت خروجي من بيت عمي سالم.

انهمكت في هذا المارثون الطويل، حتى اقتنعت أنني أرهقتُ نفسي دون جدوى. لا أثر لإسماعيول ولا بدّ وأنّ ركضه خلف هذا الفتى أبعده عن حياته السابقة وعن أخوته وعن الحي...

عندما هدأت عاد موضوع البحث عن الوظيفة يطاردني من جديد. إنّها المعضلة الكبيرة، والعقبة اللعينة التي تعترضني دائمًا في منعطفات حياتي. أشعرُ بأنّني حالةٌ معقدة، كأنّني في زنزانة ضيقة مثل علبة الكبريت، هذا الهيكل الذي أنا عليه وفقدان أيّة مؤهلات يُشعرانني بالعجز عن فعل أي شيء.

عليَّ أن أجد عملًا في أسرع وقت لأحفظ إمكانية موافقة عبير على الزواج مني، فهي غاضبة الآن لأنني لا أساعدها في الدخول إلى الشاليهات، لكن عندما أجد عملًا، وبعد أن وجدت البيت، سأشتري السيارة وعندها أكون قد حققت شروطها.

15

لم تعد عبير تردّ على اتصالاتي، لكنني لم أتوقف عن المحاولة كل يوم في وقت مكالمتنا المعتاد، إلى أن ردّت ذات صباح على اتصالي. كلمتني بصوتٍ يُخفي وراءهُ غضبًا كبيرًا، لاحظت ذلك من صمتها الثقيل وأنفاسها المسموعة. بعد أن تبادلنا بعض كلمات السلام المبتذلة الخالية من الحرارة سألتني:

- هل عدت إلى العمل؟!

بقيت صامتًا. فقالت بغصّة:

- لماذا لم تخبرني أنهم فصلوك من العمل؟! لماذا كذبت؟ وما زلت تستمر في هذه الكذبة، أخبرني الحقيقة؟

- الحقيقة أنني خائف من أن أفقدك.

- يعني فصلوك من العمل؟

- نعم. ولكن لأسباب لا علاقة لي بها، وسوف أخبرك القصة.

- لا تخبرني شيئًا لقد صدمتني بكذبك.

وأغلقَت الهاتف.

أغلقَت الهاتف في وجهي وتركت مطرقة الحيرة تدقّ رأسي بقوة. كيف أنهت الحوار من دون أن تسمح لي بإخبارها بالحقيقة؟ لم تمنحني فرصةً للبوح، للشكوى من الوجع الذي سببه لي درويش؟ أسئلة تتدافع في عقلي بلا أجوبة تلجم عنانها.

عاودت الاتصال بها أكثر من مرة، أردت أن أخبرها بأنني سأكلم عمر، وأنني سألبّي كل ما تطلبه مني... ولكنّها تجاهلت كل اتصالاتي.

بقيت أختلق لها الأعذار، فالحب لا يُهزم بسبب تفاهاتٍ كهذه! نعم هي تفاصيل تثير الغضب، إلا أنها تؤجّج الشوق، وتضع السُكَّر فوق كلمات العتاب، فتذوب مرارة الألم في حلاوة الحب.

كنت أبرّر لها عنادها بأنها تريد أن تعلمني فضيلة الصدق، فلا ألجأ إلى الكذب مرة أخرى. لكنها تمادت وطال غيابها، وأنا كالمسجون متكوِّم حول نفسي في تلك العزبة وبيدي الهاتف، أتصل بها كلّ صباح، ثمّ في أوقات متفرّقة، ولا تجيب.

قررت أخيرًا أن أذهب إلى عمر وأسأل إن كانت تأتي إلى الشاليهات فأطمئنّ أنها بخير. لم أعد أبالي بشيء، سأذهب حتى لو كلفني ذلك نظرات الاحتقار التي قد يرشقني بها عمر، أو كلمات التجريح والسخرية التي قد تخرج من لسانه المربوط في حلقه.

حين توقفت بسيارة الأجرة أمام «الشاليهات» رأيت رأسه من بعيد داخل تلك الكابينة الصغيرة وكأنه زبيبة سوداء. مشيت بخطى مرتعشة، ونبض قلبي يزداد مع كل خطوة أخطوها نحوه. توقفت أمام الباب بينما هو ينظر نحوي بغرابة محاولًا أن يرسم ابتسامة. تبادلنا السلام وكلمات السؤال عن الأحوال. كنت أجد صعوبة بالغة في إخراج الكلمات، إلى أن قلت:

- أريد أن أسألك يا عمر؟

التفت نحوي بكليته باهتمام لم أعتد عليه من قبل وانتظر سؤالي:

- أنت تعرف تلك المرأة التي كنت أكلمها هنا عند البوابة، من المؤكد أنك لاحظت هذا الأمر.

- تقصد عبير!

جحظت عيناي من شدة الدهشة والصدمة وقلت:

- كيف عرفت اسمها؟!

بدت على وجههِ ابتسامة ساخرة وقال:

- لست وحدي الذي يعرف اسمها، الكل هنا تقريبًا يعرفها.

لم أصدق ما أسمعه من عمر، وأحسست بهزة كبيرة في جسمي، ورعشة في أطراف أصابعي، فقلت مستغربًا:

- ما فهمت كلامك؟

عاد إلى الوراء فاردًا صدره وقال:

- لا تكون ضحكت عليك وأخذت منك مالًا.

صُعقت مما يقول وهمست بصوت مرتجف:

- لا... لا... ولكن...

قاطعني وهو يحدق في وجهي وفي عينيه تساؤلات كثيرة ثم قال:

- أخبرني ما الأمر يا يوسف.

قلت بتردد وخجل:

- هل أخبرتها بموضوع فصلي من العمل.

تنهد قليلًا وقال:

- أنت تعرفني يا يوسف، أنا لا أتحدث مع الزبائن في أمور خاصة، وهي تعرف ذلك أيضًا. عبير تعرف معظم العاملين هنا: حراس الأمن والموظفين، وهي تأتي بوجودك أو غيابك، وهذا كافٍ لتعرفه.

في كل مرة كان عمر يصفعني بكلامه، لكنّني لم أعد أحتمل هذا الهراء. فقلت مدافعًا عنها:

- مستحيل أن تكون تعرف معظم العاملين، فهي لا تتحدث إلا معي فقط.

لأولِ مرة أشاهد عمر يضحك. وقال:

- لعبير هذه التي تتحدث عنها تاريخ طويل في هذه الشاليهات من قبل أن تعمل أنت هنا.

ثم تابع: - ما الّذي تريد أن تصل إليه؟ هات من الآخر.

وعندما أخبرته أنني أحبها وهي تبادلني نفس المشاعر وسأرتبط بها قريبًا، وضع يده على كتفي وحدّق في وجهي، وقال:

- يا يوسف احمد ربك أنك خرجت من دون فضيحة، واحمد ربك أنها تركتك، هذه امرأة شرمـ.... وقحـ.... وبنت ليل.

ثم أضاف معاتبًا:

- والله كنت أعتقد أنك على علم بوضعها، وأنك تجاريها حتى تصل إلى ما تريده أنت منها، وأنت تعرف ما أقصد؟ هذه المرأة تمتهن البغاء، ومعظم الليالي تقضي سهراتها هنا، وتنام في هذه الشاليهات مع مَنْ يدفع، وتحاول أن تكسب كل مَن يعمل هنا، وأنت تقول لي إنك تريد أن تتزوجها! من المفترض أن تخرَّ ساجدًا لأنها خرجت من حياتك.

شعرت بأنّ حمّى تسري في جسدي بسبب ما سمعت. مذهولًا بكل هذه التفاصيل، كان يقطع قلبي بشفرة حادة وهو يتكلم ببرود تام عن امرأة تعني لي الحياة.

خرجت من عنده أشعر بدوار حتى أكاد أقع في الأرض. دمّرني بكلماتهِ وسحقني تمامًا كما يسحق عقب سيجارة تحت حذائه. العالم ينهار من حولي، وكل شيء تحول إلى خراب، قدماي لم تعودا تحملانني، ورأسي يدور كأنه فقد توازنه. أمشي بقلبٍ مخلوع، وبقايا إنسان مكسور يتخبّط في فراغ مظلم ومخيف.

عدت إلى العزبة وأنا في صراع مرير بين الشك واليقين حول ما قاله عمر عن عبير.

الفصل السادس

نعيش بين احتمالات لا تنتهي
كريشة عالقة في عاصفة لا وجهة لها

1

غادرني ياسين ليلاحق حلمه البعيد، وترك خلفه فراغًا لم أدرك اتساعه إلا عندما أصبحت وحدتي واضحة كسماء بلا نجوم. وغادرني إسماعيل إلى طريق مظلم لا أرى له إلا نهايات موحشة، تاركًا في حياتي فراغًا أعمق، كأنني فقدت حصني الأخير الذي كان يحميني من قسوة العالم. والآن، تأتي الضربة الأقسى لتزلزلني، لتهدم ما تبقى من أحلامي وشغفي بالحياة. لكن لا، لا أستطيع أن أصدق أن عبير يمكن أن تكون بهذه الصورة البشعة التي رسمها عمر. لا يمكن لتلك الابتسامة التي سكنت أيامي أن تكون قناعًا يخفي مصلحة باردة، ولا يمكنني أن أكون أعمى إلى هذا الحد، غير مدرك أن كل ما كان بيننا ليس إلا سرابًا!

يا الله! هل تصدُق معادلة درويش في الحب أيضًا؟ وتتسلل إلى علاقات البشر كافة حيث تتلاشى الموازين أمام طغيان المصالح، أم إنها معادلة تنطبق فقط على الدميم والفقير؟

كلا، لا يمكن أن تختزل العلاقات الإنسانية بقاعدة المصلحة فقط! أين الصداقة التي تُنسج خيوطها من الثقة؟ أين الحب الذي يُزهر في قلوب لا تعرف الحسابات؟ هل يمكن أن أكون ساذجًا إلى هذا الحد لأصدّق أن كل كلماتها، كل مشاعرها، كانت مجرّد أكاذيب؟ لا، لا بد أن وراء تصرّفها ظلًا من آلام دفينة، جراحًا لم تلتئم بعد. ولو أنها فقط تعرف... لو تدرك أنني مستعد لأن أحتوي كل هذا، أن أكون لها سندًا في ضعفها، وقلبًا يفهم ما عجز العالم عن فهمه.

اتصلت بها فأجابتني امرأة، وعندما سألتها عن عبير قالت «النمرة غلط». مع ذلك لم تتوقف محاولاتي، وفي كل مرةٍ أغلق السماعة حين أسمع صوتًا آخر غير صوت عبير. كنت أتصل كثيرًا علّها في يوم ترفع هي السماعة ولكنّها لم تفعل.

كلام عمر عنها كان مثل السمّ الزعاف الذي انتشر في جسمي، حتى صرت كلما استحضرت صورتها أتخيّلها عاهرةٍ تتقلب عاريةً بين أحضان الرجال وتُبيح جسدها لكل غريب من أجلِ المال، فأُبعد الصورة. صور مخيفة ومؤلمة تمزقني حين أفكر فيها، فأطرد تلك الأخيلة الماجنة من رأسي وألعن عمر ودرويش، وأحاول جاهدًا أن أعيدها إلى صورتها النقية التي في بالي.

لا شيء يثبت صحة ما قاله عمر، فهو شخصٌ حقود، وكريه، ولا يُطيقني، ثم يأتي فجأة ويتحول إلى ذلك الرجل النبيل الناصح الذي يهتم لأمري. إنه يعيش في وهم، غارقًا في كبريائه المزعوم، مختالًا بمظهرِهِ وقامته المفتولة بالعضلات، حتى نسي أنه حارس أمن في شاليه، فقير ومعدم مثلي، ويعيش في بيئة تُشبه بيئتي، في حارة وسط الظلام لا تشرق عليها شمس الحياة.

دائمًا أكون الضحية! هل لأنني الحلقة الأضعف في كل محطات حياتي؟ أن تكون ضعيفًا فهذا يعني أنك المتهم الأول في كل جريمة تُرتكب، أن تكون ضعيفًا فهذا يعني أنك حاوية فارغة يملأها الآخرون بقاذوراتهم من الحقد والكذب والخداع، حتى تختنق وتموت مثل جيفة نتنة.

تركت الحياة وانعزلت داخل تلك العزبة، أُمنّي النفس بأن ترفع عبير السماعة في لحظةٍ ما. أيام لا أكاد أحصيها تمضي وأنا أتمغّط كالقطط في تلك الغرفة، عاريًا تمامًا، لا يحركني إلا حبسة البول وصأصأة الفئران التي تلوذ بالعزبة فرارًا من القطط المتربصة بها في ذلك الزقاق النتن.

أزداد هزالًا. أمرر أناملي على أضلاعي الناتئة، أمسّد على شعري المجعد الذي أهملته حتى أصبح مثل عُشّ اللقلق، أجوب ببصري في هذه الغرفة الضيقة وكأنها عالمي الوحيد، لا سماء هذه الأيام، لا مدينة، لا حياة، متكئًا على وحدتي وغارقًا في عبير.

بكيت كثيرًا على نفسي، على حظيّ. شعرت وأنا على هذه الحال بأنّني

أحترق. لا دخان في الأجواء ولا رائحة، ولكنّني أتحول إلى رماد. المفارقة العجيبة أنه كلما ذهبت أفكاري نحو تبرير تصرفات عبير يهدأ عقلي، وتسكن جوارحي، ويطمئن قلبي. أحسّ وكأنها تنتمي إليّ وأنّ الوضع سيتغيّر حين تدرك أنني أنتظرها وأنني الوحيد الذي يسعدها لأنني أرى فيها سعادتي.

حين يكون التعبير عن المشاعر غير ممكن؛ فإن الدموع تبوح بها. وأنا أختنق بمشاعري وأبكي كثيرًا. لم أتخيل أبدًا أنني سأصل إلى هذه المرحلة من التعلّق. صعقة الحب الأول تفوق القدرة على الاحتمال. عبير هي الحب الأول، الصعقة الأولى التي تترك أثرًا لا يُمحى.

ما الحب؟! لم أكن أعرف شيئًا عنه، ولم يحصل في حياتي أنّ أحدًا قال لي «أحبك» سوى عبير، فكيف أستطيع تخليص نفسي منها؟ إنها تنمو في داخلي، تجري مع الدم في عروقي، تعيش في قلبي، تنام في ذاكرتي وتستيقظ على أشواقي.

أعلم أنه من الحماقة أن نُبارك ونحب من يكسرنا، ولكنّها الرغبة الملعونة في ذلك. في النهاية نحن نحب رغبتنا وليس موضوع الرغبة. يُمكن للإنسان أن يتقبّل أن يكون أبلهًا أو مجنونًا على أن يتقبّل الخديعة في الحب. إنه الجنون الذي يجعلك تستلذّ هذا العذاب لتصبح إنسانًا رقيقًا قد تذرف عيناك الدموع عند أول ترنيمة تخرج من وترِ الكمان.

يغمرني إحساس بأنّ عبير ستعود، قلبي يقول لي ذلك، وقلبُ العاشق لا يخطئُ أبدًا، وما يُتعبني هو الانتظار. الانتظار الذي يجعلني أشتعل مثل شمعة تحرق نفسها ببطء شديد ثم تنطفئ. لم يعد يعنيني سوى هذا الهاتف الصغير النائم في حضني، أراقبه كما تراقب الأم رضيعها. وحين يغلبني الشوق أتصل بها، فإن سمعت صوتًا غير صوتها أغلقت سماعة الهاتف. كنت على هذا الحال طوال أيامي، إنه ضرب من المرض أو الجنون أعلم ذلك، وأنا مريضٌ بحبها أو مجنون.

تمرّ الأيام وأنا على هذا النزق الذي لا ينتهي من الاتصالات المتكررة،

إلى أن جاءني صوتها العذب الدافئ، الصوت الذي اشتقت إليه كثيرًا، صوتها الذي جعل يدي ترتعش وأنفاسي تتلاحق بعد أن فقدت الأمل في أن أكلمها مرة أخرى. هي التي اتصلت! فبادرتها:

- والله ماني مصدّق!

- هلا يوسف... كيف حالك.

- الآن أنا بخير. أنتِ كيف حالك. اشتقت لك.

وقبل أن أعاتبها جاء صوتها هادئًا وحادًا:

- أنا بدأت أخاف منك.

- لماذا؟!

- هذا الإزعاج، والاتصالات التي لا تنتهي، أثارَت الشك عند أهلي.

- كنت أريد أن تجيبي على اتصال واحد فقط كي أرتاح.

- المهم أنا اتصلت كي أقول لك، أرجوك لا تتصل بي مرةً أخرى، واللي يكذب مرة، سيكذب مليون مرة.

قلت بعد برهة من الصمت:

- أنا أحبك، وأعتذر عن خطأي، ولم أكن أقصد.

- الله يخليك لا عاد تتكلم في الموضوع.

- والزواج، والبيت اللي استأجرته، كل هذا ما يهمك؟

- الزواج أنا كنت مترددة فيه، وخايفة، ولما كذبت عليّ، محوت فكرة الزواج من راسي، ماني ناقصة جرح ثاني، وزواج فاشل آخر.

- كل هذا عشان ما قلت لك إنهم فصلوني من العمل؟

ردّت بصوت أكثر حدة:

- الله يخليك خليني في حالي وطلّعني من حياتك.

شعرت بخيبة جعلتني أتعرّق كأنني في حمّى، فقلت:

- هكذا وبكل سهولة؟ حاضر سأنفّذ ما تريدينه، ولكن أبغى أتأكد من شيء سمعته.

- ما هو؟

أخبرتها بكل كلام عمر عنها... فأجابتني ببرود:

- وأنت صدّقته.

- في بداية الأمر ما صدَّقته، ولكن لما تركتني مع كل هذا الغضب لأنني لم أعد على البوابة، شكّيت في الأمر.

- شكيت في ماذا؟ في أنه كلامه صح. مادام شكيت إنو كلامه الوسخ فيني صحيح، فالله يلعنك ويلعنه وفارق.

وخبطت الهاتف بصوتٍ مسموع منهيةً المكالمة!

2

وددتُ لو قطعتُ لساني ولم أخبرها بما قاله عمر، هذا اللسان كثيرًا ما يورثنا الندم. ندمت على حماقتي، فأنا أعرف نفسي، لا أُجيد الحديث مع الأنثى. أنا ابن الأزقّة والشوارع، كيف لمثلي أن يكون مُرهف الحس، رقيقًا، بارعًا في تصفيف الكلمات التي تشتهيها المرأة. فعلى الرغم من هذا الحب الكبير الذي أكنه لها، وهذه المشاعر التي تفيض بها نفسي، إلاّ أنني شحيحُ في البوح، فتظلّ مشاعري محبوسة في قلبي تنتظر لغة الحب لتفكّ أسرها، وهذا ما فشلتُ فيه.

كرهتُ الحب، واللحظة التي تلبّسني فيها، الحب الذي يُنسيك نفسك ويجعلك معتقلًا في زنزانة شخصٍ آخر. قد يجّرك معه إلى عتمتهِ ولو بدافع الحب.

كرهت الحب. حتى إسماعيل ما عاد يهمني. اخترت أن أموت ببطء في هذا الجُحر. إنه مكان بائسٌ يليق بتاريخي الحافلِ بالبؤس، لكن قَدَري يرفض مثل هذه النهاية السخيفة، هناك نور خافتَ أراهُ يضيء ويخبو. شعرت بذلك حين أخبرني السوداني المسؤول عن استلام إيجار العزبة بأنه يجب عليَّ المغادرة في أقرب وقت ممكن، فلقد تأخرت ثلاثة أشهر في سداد الإيجار.

مع أنني كنت أملك مبلغ الإيجار، تذكرت البيت الذي استأجرته في النزلة ودفعت لاستئجاره مبلغًا كان يكفيني لأعيش مدة طويلة، وبدأتُ أُلملم أغراضي وملابسي وأحشرها في حقيبة رياضية لا أملك غيرها، وأدخلت في جيبي ما تبقى معي من مال، وانطلقت نحو النزلة مشيًا على الأقدام. كان ذلك بعد الفجر مباشرة في يوم لم أكن أعرف ما هو.

وأنا أغلق باب العزبة للمرّة الأخيرة، وقعَ نظري على الهاتف. أدركت

أنني أغادر عبير إلى الأبد، إذ سأفقد الوسيلة الوحيدة التي كانت تبقيني على تواصل معها. ربما كان ذلك الهاتف الأخضر المربَّع ذو الأزرار السوداء هو الشيء الوحيد الذي سأشتاق إليه في العزبة.

سرت بحذرٍ شديد في ذلك الزقاق الطويل، في فجرٍ لم يولد صباحهُ بعد، لا أسمع شيئًا سوى طقطقة زنوبتي. خرجت من فم الزقاق وتبدت لي الحارة بوجهها الكالح، التفتّ يمينًا ويسارًا، فلم أرَ سوى العجائز الأفريقيات يحمن حول حاويات القمامة، يفتشن بداخلها، ويستخرجن علب المشروبات الغازية الفارغة، وكل عجوز بجانبها عربة مكدّسة بالكراتين. هكذا اعتدت عليهن منذ أن كنت طفلًا في هذا الحي.

مشيت من تحتِ كوبري الميناء متجهًا نحو حي القريات. اخترقت حاراتهِ وعلى كتفي حقيبتي العلاقية. انبلج الصباح وأنا في النزلة، أسمع نعيق الغربان يختلط بزقزقة العصافير. شرعت أبواب المحلات تُفتح تدريجيًا وأوّلها محلات الفول والتميس. لم يتغير شيء بالنسبة لي، أحياء الجنوب متشابهة تنام جميعها على فراشٍ واحد وتصحو في التوقيت نفسه.

عبرت الشارع الضيق المؤدي إلى العمارة التي استأجرت فيها. واجِهتها متآكلة عاث بها الزمن. صعدت إلى الطابق الثاني، وبينما كنتُ أُدرج المفتاح لكي أفتح باب الشقة، باغتني صوتٌ جهوري جاء من خلفي وهو يقول:

- السلام عليكم.

كان رجلًا مربوعًا في نهاية عقده الخامس على ما يبدو، سُمرته داكنة، يرتدي ثوب نوم، وعلى رأسه طاقية مخرَّمه. لا يزال محتفظًا بقوته وصحته، إذ رأيت ذلك في زندَيه الممتلئين وعرض ساعديه وضخامة كفّه، فأجبته وقد أصابتني رعدة خفيفة حين سمعت صوته:

- وعليكم السلام.

كان يحدق في وجهي بدهشة واضحة، وكأنما يرى شيئًا لم يتوقعه. بؤبؤا عينيه كانا يتنقلان بين تفاصيل وجهي، من شعري حتى أطراف قدميّ، وكأنه يحاول أن يقرأ بين سطور جسدي ما عجزت الكلمات عن قوله. وبعد لحظة من الصمت، نطق سؤاله، مندهشًا:

- أنت صاحب الشقة؟

- بل أنا المستأجر.

لا بد أن مظهري أثار الشكوك في نفسهِ، فقد كان العرقُ يتفصَّد فوق جبيني، وشعري منكوش مثل رأسِ مكنسة، ورائحة جسدي تفوح من أثرِ المشي المتواصل.

سألني مرة أخرى ولكن بنبرة محقّق:

- هل عائلتك معك؟

أجبته بتودد وصوتٍ هادئ:

- عن قريب إن شاء الله.

قال لي:

- أنا جارك في الشقة المقابلة، واسمي جميل.

ابتسمت له وقلت:

- تشرفنا يا أخ جميل، أنا يوسف.

بدا عليه التبرّم، لكنه مضى إلى حالِ سبيله. كان القلق باديًا على وجههِ، وكأنه يسأل نفسه: من هذا الجار الغريب الذي يأتي في مثل هذا الوقت من الصباح، حاملًا معه حقيبة رياضية، وليس برفقته أحد.

«هذه العمارة خاصة بالعائلات، إنها للمتزوجين»، هذا ما كان قد أخبرني به صاحب المكتب العقاري، ولهذا سألني جميل عن أهلي. لا يهم الآن ماذا سيحدث، المهم بالنسبة لي أن أرتاح، ولو في هذه الشقة الخالية من كل شيء. مجرد بلاط أبيض تتوسطه بقع سوداء متفرقة، وليس فيها سوى مراوح معلقة بالسقف، وفتحات مكيفاتها مغطاة بالكرتون.

مخيف البيت الذي يخلو من الأثاث، إنه يتحول إلى مغارة. صمتٌ ووجوم يلفان المكان، لو نبستُ بكلمة لتردَّد صداها في أرجاء الشقة. إنها عارية تمامًا من كل شيء، لا كنبات، لا فُرش، لا وسائد ولا ستائر... بلاط باهت يمتد بياضه في أنحاء الشقة. شعرت للحظة وأنا مستلقٍ على ظهري فوق هذا البلاط الأملس أنني أسمع جريان الدم في عروقي، وصوت نبضات قلبي يدق مثل تكتكة الساعة على الحائط، كأنني ممدَّدٌ في قبري!

لم أكن أخرج إلّا حين تجبرني معدتي من شدة الجوع، فأخرج متلفّعًا بالليل، أتسلّل مثل لصّ حتى لا يراني جاري جميل. أبتاع أي شيء، أي شيء لا يهمّني ثمنه، وأشتري كثيرًا من عُلب الماء حتى أشعر أحيانًا بالغثيان من كثرة شربه.

لا أنام كثيرًا، خاصةً في النهار، فالحرُّ الشديد يكتم أنفاسي حين تنفثُ الشمس لهيبها عبر فتحات ونوافذ الشقة، فأختنق لقلة الهواء وأنزع ملابسي تاركا خطوط قطرات العرق تنساب على جسدي من كل مكان. لا أدري ماذا أفعل؟ عقلي مشلول تمامًا، عاجزٌ عن التفكير بغيرها. لا أستطيع أن أجتث عبير من ذهني. عبير التي شعرتُ بالأمان في عينيها، وأزاحت عن قلبي بشاعة هذا العالم، تحولت إلى لعنة، إلى شيء يشبه الموت، إلى شبح لا يفارقني، إنّها تأكلني كل يوم، مثلما يأكل الدود الخشب.

3

بين فينة وأخرى كنت أسمع قرعًا على الباب، أقف متصلبًا في وسط الصالة، لا يستر عورتي سوى سروال أبيض قصير، والعرق يغسل جسدي بالكامل، لا أسمع شيئًا سوى أزيز المروحة المعلقة فوق رأسي. أحاول بكل ما أستطيع أن لا أُصدر أيّ صوت حتى يذهب من كان يطرق الباب دون أن يشعر بوجود أحد في الشقة.

ذات مرةٍ سمعت وشوشة خلف الباب، اقتربت منه وأرخيت أذني، فإذا بصوتٍ جاري جميل يتحدث مع شخص آخر: «الرجّال جوا أنا متأكد». ثم يبتعد الصوت قليلًا وأنا ملصق خدّي الأيمن بالباب، أحاول سماع أي شيء. كان صوت جميل واضحًا بعض الشيء، حين قال: «الرجّال سكران أو مريض»، ثم يضيع حديثهما في همهمةٍ لا أفهمها إلى أن يقترب جميل ويقول: «يمكن الرجّال ميت بالداخل»!

الخوف يلاحقني في كل مكان، أعلم أن الخوف لا يسبّب الموت، ولكنه يمنعك من الحياة. أشعر أحيانًا بأنني أكاد أكون مرغمًا على كل شيء بدافع الخوف، إنه بمثابة التهديد بالنسبة لي، وكأنّ الحياة تركت هذا العالم كله يعيش بسلام إلاّ أنا جاءت لتملأني بالخوف.

فكرت أن أهرب حين تسنح لي الفرصة، ولكن إلى أين؟ «إلى أين؟» هذه تبدو مثل سورٍ يرتفع شاهقًا أمام عيني. إلى أين؟ لا جواب.

هكذا قررت البقاء في الشقة لأنّني عجزت عن الإجابة عن ذلك السؤال الذي يُشبه طريقًا طويلًا يخترق عقلي ويمتد بلا نهاية في أعماقي، فمكان ضيّقٌ يسعني، أرحم بكثير من أن تهوي بي الريح في وادٍ سحيق لا أعرف قراره.

تكرر قرع الباب في فترات متباعدة حتى اعتدت على ذلك، لم أكن

أخرج إلاّ لحاجة. انقطعت عن الدنيا وعن الناس، هناك شيء ثقيل يجثم على صدري، إحساسٌ غريب ومخيف يحرِّضني على كُره الحياة. صرت أتجاهل طرقات الباب، وصوت جاري جميل ينادي باسمي. دائمًا أتجاهله وأفتعل الصمت حتى يتركني في حالي.

مع مرور الأيام أصبح الوضع أكثر تعقيدًا، وازداد صعوبة، لقد تحولت إلى سجين! جعلني هذا الجار البغيض مثل لصٍ هارب من العدالة، أو ربما فأر تجارب محبوس داخل قفص. لقد تم عزلي عن الحياة تمامًا.

كنت أملك المال حين قررت أن أنتقل إلى هذه الشقة، متخيلًا أنني سأجد فيها ملاذًا يحميني من ضياع قد يبتلعني في الشوارع. كنت أظن أن هذه الجدران ستمنحني فسحة من الراحة، مكانًا يتيح لي الانعزال عن العالم، وربما لحظة تغيير في مزاجي، أو حتى نافذة صغيرة أطل من خلالها على الحياة مجددًا. لكن أن أُحاصر بهذه الطريقة البائسة، وأن يُغلق الباب أمامي بهذه السخافة، فهذا ما لم يكن في حسباني، ولم أكن لأحتمله بأي حال.

مررت بصاحب العقار حتى أناقش معه ما حدث، وما يجري معي من هذا الجار الذي يتسلط عليَّ في كل وقت. حين اقتربت من مكتبه الصغير الذي يقبع تحت عمارة كبيرة تتوسط هذا الحي البائس، تفاجأت بوجود رجل سعودي من هيئته ولبسه. رجل حنطي البشرة، دقيق الوجه، حاد النظرة، له شارب كثّ مرسوم بدقة وعناية. لم أجد السوداني الذي سلّمني مفتاح الشقة.

حين دخلت إلى المكتب اخترقت أنفي رائحة الدخان التي كانت تعبق في داخله. كان يتأملني بدهشة وغرابة، فسلمت عليه وما إن بدأت في الحديث عن مشكلتي، قال لي مفزوعًا:

- أنت يوسف؟

قلت مستغربًا:

- نعم.

ثم أعاد صيغة السؤال ليتأكد من إجابتي:
- أنت يوسف المستأجر في عمارة العم جميل.
خفق قلبي وازداد قلقي حين سمعت أن جميل هو مالك العمارة.
قلت في ذهول:
- وهل العمارة للعم جميل.
- نعم. والحمدلله إن الله جابك. الرجّال سيذهب اليوم إلى الشرطة.
الشرطة؟ كاد أن ينخلع قلبي، وقلت في خوف شديد:
- ولماذا يذهب إلى الشرطة؟ ماذا فعلت؟
- لم تفعل شيئًا، ولكن الرجّال يظن أنك ميت، وثانيًا قال بأنك عزوبي، وحاول لأكثر من مرة أن يفتح باب الشقة ليتأكد ولكنّني نهيته عن ذلك حتى نتروّى في الأمر.
- وما المطلوب مني الآن؟
قال وكأنه يريد أن يزيح همًا عن قلبه:
- أنا بعطيك تعويضًا عمّا دفعته من مال على أن تخرج من الشقة في أقرب وقتٍ ممكن.
- لكنّني لا أريد الخروج.
قال بنبرة حادة:
- إذًا لا تسكن في الشقة لوحدك، إما أن تأتي بأهلك، أو تتركها فارغة.
كنت أنظر إليه مندهشًا، فأضاف:
- وبيني وبينك صاحب العمارة يقول إنه لا يريدك في شقته.
- ألم يخبرك عن السبب؟
قال وهو يحاول أن ينمّق عباراته:
- يقول إن شكلك يبعث على الريبة والشك.
زادت دهشتي! فحاول أن يلطّف كلامه:
- إذا تبغى نصيحتي، خذ التعويض واطلع، ولا تأتي الشرطة وتخرجك بالقوة وحينها تذهب من دون تعويض.

قبلت عرضه على مضض، فأخرج من محفظته 500 ريال وقال:
- توكل على الله.
قلت مندهشًا:
- بس 500 ريال.
أجاب بأسلوب فيه شيء من التهكم والسخرية:
- إذا ما هي عاجبتك ردّها، أو خلّي الشرطة تحلّ الموضوع.
أعلم أن الحياة طُبعت على المصاعب، وأنّها مليئةٌ بالحفر والطرق الوعرة، لكن لم أكن أعلم يومًا بأنني سأصبح فيها كسجين ينتظر القدر، حياتي أشبه ما تكون بنُزُل عليّ أن بقى فيه بلا حراك إلى أن تنزلق قدمي يومًا في الهاوية.
ما يحدث معي أشبه ما يكون بمؤامرة كونية تلتفّ على محاولتي العيش.

4

طالما أنّ هذا المجتمع ينفيني، يهمّشني، يحتقرني... لأنني دميمٌ وفقير، سأبعد من رأسي فكرة العيش فيه. سأتخلص من فكرة أن تكون لي مكانة فيه. سأحمي نفسي من مزيد من الصدمات التي تُشعرني بالضعف والعجز. سأتحوّل بملء إرادتي إلى العيش كمتشرّد، فالمتشرّد يلقى معاملة أفضل من الضعيف.

قرّرت أن أذهب إلى الحد الأقصى. أن أتجوَّل عبثًا في الشوارع وأنا أعلم أنّني سأكون بلا مأوى حين يحلّ الليل. لأولِ مرةٍ في حياتي أكون في مواجهة الخوف من الليلة الأولى التي سأنام فيها في الشارع، في مكانٍ ما، في زاوية ما، في زقاق ما، لا أدري تحديدًا، فأنا أسيرُ تائهًا أفكر في مجيء هذه اللحظة التاريخية من عمري.

كُل ما أريده أن أعيش في الفضاء الحُرّ الذي يمتد أمامي بلا نهاية كي لا أحلم، ولا أحاول التماس الرحمة من غير الله، واللطف في ما سيأتي من الأقدار، كي أستعيد رباطة جأشي، وأمضي قُدمًا، فربما أجد على الدرب نورًا.

بينما أنا أمشي خارجًا من أطراف حي النزلة، متجهًا من غير أي سبب إلى الشارع الذي يقع فيه مبنى التلفزيون، تجلّى سوق الخيمة منبطحًا كأنه سلحفاة. ارتأيت أن أقضي فيه ما تبقّى من ساعات الليل.

لقد تعبت من المشي، ومن هذه الحقيبة المعلقة على كتفي. كان لا بد أن أرتاح وأبلّل تشقّقات شفتيّ بشيء بارد، عبرت ساحة السوق المخصَّصة لمواقف السيارات. السوق شعبي وعلى الطراز القديم لكنّه يعدّ من الأسواق الجديدة في جنوب جدة. حين كنت أمشي ببطْء أمام مداخل السوق، اخترقت أنفي رائحة البطاطس المقلية والبليلة، فاقتربت

من تلك العربات المصنوعة من الخشب، والّتي تسير على إطارات خاصة بالدراجات تم توليفها بشكل متقن كي تتحرك بسهولة.

دنوت من أقربِ عربة لي كانت تحمل في جوفها قِدرَين من النحاس، أحدهما لغلي البطاطس والآخر للبليلة، وعلى حواف العربة قوارير صغيرة مليئة بأصناف البهارات، وفيها أنبوبة زجاجية متوسطة الحجم، مملوءة بالثلج والليمون والماء، وقطرات الندى تنزل كخيوط على واجهة الأنبوبة مما جعلني أزمّ شفتيَّ من شدة العطش.

جلست فوق أحد المقاعد المنتشرة بين أروقة السوق، وبجانبي وضعت الصحن البلاستيكي الممتلئ بالبطاطس، حاملًا بيدي كيس عصير الليمون، أتأمل الناس ولا أفكر بشيء. وقع الأقدام، همهمة الناس، صراخ الباعة ووجوه العابرين من رجال ونساء وأطفال وعُمال، أخذتني من عالمي المسكون بالوحشة والظلام، إلى حيّزٍ استطعت من خلاله أن أهرب ولو قليلًا من نفسي، وأرى الحياة مرة أخرى بشكلها الطبيعي.

لفت انتباهي قط أسود مختبئ خلف برميل أسطواني الشكل مصنوع من المعدن. كان أمامي مباشرة، يرمقني بعينيه المفتوحتين وأذناه تتحركان أفقيًا وكأنه متحفّز لشيء ما. الغريب أنّ هذا القط يصوّب نظره نحوي، غير مبالٍ بأقدام الناس التي تعبر أمامه، كأنه يدقّق في طريقة تعامله معي. تبادلنا النظرات في صمتٍ غريب، شعرت بأنه يشبهني كثيرًا، وتذكرت بأنني يوسف «الهرّ» أنتمي لسلالة هذا القط المجهول. كأنه يعرفني، أحسست بذلك من نظراته، كم أردت لو أتحدث معه وأسأله إن كان وحيدًا مثلي، وهل يركله الناس بأقدامهم؟ وهل يتركونه يتمطط بسلام؟. تخطر لي هذه الأسئلة والقط الأسود لا يزال يحدقّ في وجهي، حتى وقعت على رأسه الصغير علبة ماء فارغة، قذفه بها أحد الأطفال ففرّ هاربًا واختفى في لمحة بصر. أمّا أنا فقد بقيت متجمدًا في مكاني، أفكر كيف أجد مكانًا أستطيع أن أنام فيه.

المبلغ الذي في يدي يكفي لأن أستأجر غرفة ضيقة ومهملة لفترة من الزمن، مأوى مؤقت يحميني من المجهول لفترة قصيرة. لكن تلك الفكرة لم تشغل ذهني. لا أريد العودة إلى ذلك المجتمع الذي يعاملني كدمية سوداء، حيث لا مكان لي إلا في زوايا الذل. لقد اخترت طوعًا هذا الطريق، طريق التشرّد، حيث يمكنني أن أظلّ غريبًا عن كل شيء، على أن أعود إلى حياة تحاصرني وتقتل كل ما تبقى مني.

شرع أصحاب المحلات في إغلاق متاجرهم، فخرجت من الجهة الأخرى للسوق، أسير بخطوات وئيدة من شدة التعب. رائحتي لا تُطاق، فالعرق تخلل جسدي حتى بين أصابع قدميّ. رأيت في الباحة الخلفية للسوق مسجدًا كبيرًا من طابقين، وبجانبه مبنى صغير خاص بدورات المياه، حيث توجد صنابير خارجية، اتجهت نحوها ورحت أغسل رأسي المجعد بالماء، وأفرك رقبتي بقوة، وأدخلت ساقيّ تحت الصنبور، وددت لو أتجرد من ملابسي تمامًا، وأغسل جسدي كله.

حين انتهيت تلفتّ حولي فرأيت ذلك السلم الحديدي المؤدي إلى الطابق الثاني من المسجد. اتجهت إليه وصعدتُ درجاته، أدرت مقبض الباب فوجدته مغلقًا، كانت هناك مساحة صغيرة على شكل مربع ما بين الباب وحدود السلم مفروشة بسجّادةٍ حمراء بهتَ لونها. رميت حقيبتي ووضعت رأسي فوقها، أرحت جسدي بالكامل، حاولت أن أنام فلم أستطع، ثمة خوف في داخلي، كنت مرعوبًا جدًا مع أن المكان بدا ساكنًا إلاّ من هدير سيارات تعبر ذلك الشارع الصغير بين فترة وأخرى.

لكنني استسلمت للنوم وقد هدّني التعب، إلى أن استيقظت فزعًا على صوت أذان الفجر. نهضت بتثاقل شديد وظهري يؤلمني. كان الألم ناتجٌ عن الحقيبة التي أحملها معي ووضعتها تحتي، لذا فكرت بأن أتخلص منها ومن ملابسي كي أرتاح من عبء حملها.

وقفت في باحةٍ صغيرةٍ على شكل مثلث حيث كانت الجدران تعكس

ضيق المكان. ارتديت من الحقيبة أحسن ما عندي من ملابس ورميت الحقيبة في أقرب قمامة. أحسست بالراحة وتوجهت إلى دورات المياه أقضي حاجتي وأغسل وجهي. ثمّ رحتُ أدور في السوق طوال اليوم.

في المساء عدتُ إلى تلك الباحة، راق لي المكان هناك، كنت قريبًا من الناس رغم القلق والخوف الذي ينتابني بين فينة وأخرى، وقريبًا من المحلات، وقريبًا من المسجد، وهو ما غمرني بالطمأنينة.

أقصى درجات الألم أن تستفيق ذات يوم لتكتشف أنك فقدت كل شيء، أن تجد نفسك في مكان لم تكن تتصور أن تصل إليه، مكان غريب موحش، يملؤه الخوف والفراغ. أن تغرق في حلم ساحر، ثم تنهض على كابوس قبيح يحيطك من كل جانب. أن تكتشف بمرارة شديدة، أنك ضائع ووحيد في معركة الحياة وأن لا أحد يشاركك معركتك. أن تشعر بثقل الظلم على قلبك، وأنت عاجز عن الدفاع عن نفسك، وكأن العالم بأسره قد تآمر ضدك.

5

يومًا بعد يوم يصبح وجهي مألوفًا لدى الباعة، وأصحاب المحلات والبوفيهات في ذلك السوق. مع أنّ نظراتهم المنقوعة في الشفقة تمزّقني، وتعاطفهم الرقيق والموجع كحدِ السيف يوحي لي بأنني أصبحت محطة عبور إلى الجنة حين أرى بعضهم يدسُّ في يدي ريالًا، أو يقدّمون لي بقايا طعامهم إذ يرونني منزويًا في مكان ما. إلّا أنني بدأت أشعر بالمقابل أنّ في هذا بعض من روح إنسانية لطالما افتقدتها.

حين أصعد ذلك السلم بعد أن ينتصف الليل، ينتابني الخوف والقلق. شعور يتملكني في كل ليلة يصعّب عليَّ النوم على الرغم من الإنهاك. أتمدد بحذرٍ وأطل برأسي، وأنا منبطح على بطني، بين فرجات قوائم السلم على تلك الساحة، وألتفت يمينًا ويسارًا خشية أن يداهمني لص يطمع بي، أو عربيد يمارس بطشه في العتمة، أو سكّير فقد وعيه، وعند كل حركة أسمعها يرتعد جسمي، وتزداد ضربات قلبي، فأرفع رأسي وأنظر في تحفّز شديد، فإذا لم أر شيئًا، أعود للنوم بجهد كبير.

مع الوقت توطدت علاقتي بحراسِ الأمن في ذلك السوق، صاروا يهتمون بي ويقدّمون لي أحيانًا كأس شاي في أواخر الليالي. سألتهم ما إذا كانوا في حاجة إلى حارس أمن آخر؛ رأيت الدهشة في عيونهم! إنهم جماعة تتمتّع بسلطة القوة، مع أنهم يعيشون خارجها لأنهم يمارسونها في وقتٍ لا يوجد فيه أحد! فكيف لمثلي بمظهره الوضيع أن ينتمي لهم؟ رأيت البسمة على وجوهم. كان لسان حالهم يقول: «لقد فقد صوابه هذا المعتوه»! وكانت البسمة كافية لأن أفهم.

«كافتيريا جلال» الواقعة في زاوية ذلك المثلث كانت ملاذي في معظم الأوقات. كنت أتخذ من تلك المساحة المبلّطة أمام الكافتيريا متكأً لي،

ويبدو أن العم جلال الممتلئ الوجه بالطيبة قد رأف بحالي وصار يرسل لي مع أحد عماله تارةً فطيرة بالبيض، وتارة فطيرة بالجبنة الصفراء مع كأس شاي عدني. لم أرفض كرمه مع أنني أملك المال. لا أبرح مكاني كثيرًا، كنت أستحم، وأغسل رأسي ووجهي، وأقضي حاجتي في دورات مياه المسجد، وعندما يغلق السوق أبوابه أصعد السلم وأتقلب حتى يغلبني النعاس.

لم يعد الذعر والخوف في أعين معظم الناس الذين يقتربون مني عن غير قصد يزعجني بعد الآن. أراهم يتجنبونني بحذر، يبتعدون وكأنهم يرون شيئًا غريبًا لا يفهمونه. وفي بعض الأحيان ألاحظ الأطفال يختبئون وراء أمهاتهم كلما مروا من أمامي، وكأنني مخلوق غريب يثير الرعب فيهم. احترت في أمرهم، ففي الوقت الذي كنت أبذل فيه كل ما أملك من جهد لأكسب احترامهم، كانوا يهينونني ويسحقونني بلا رحمة. أما الآن، بعد أن غادرت مجتمعهم وقوانينهم التي لطالما حكمت عليّ، بعدما حطمت نفسي ودفعتها إلى الزوايا المظلمة، أصبحت مصدرًا لخوفهم!

توثقت علاقتي بالمسجد، فلا أفوّت فرضًا من الصلوات. كنت أحرص على ذلك حتى أنعم بذلك التكييف البارد الذي أنعمُ به داخل المسجد. حين يُرفع الأذان أكون أول من يدخل المسجد، فأتجه نحو الزاوية في آخر الصفوف، أمدد ساقيّ من شدة التعب، وأغفو أحيانًا. أكرر هذا الفعل بين الأذان والإقامة، وبعد أن تنتهي الصلاة لا أخرج إلاّ حين يجبرني على الخروج مؤذن المسجد البنغالي عندما يراني نائمًا في تلك الزاوية، أو متكئًا على إحدى السواري.

ذات يوم، وبعد صلاة المغرب تحديدًا، ذُهلت حين وقف فوق رأسي شابٌ جميل المُحيّا له وجه طفوليّ بدا مألوفًا رغم كثافة لحيته. ابتسم لي وسألني وفي عينيه حيرة وشك:

- أنت يوسف؟

نظرت إليه بخوف فما عدت أريد أحدًا يعرف اسمي. كنت أحاول جاهدًا أن أستذكر ملامح وجهه، لكنني لم أكن متأكدًا، فأجبته باقتضاب شديد:

- نعم.

جلس إلى جانبي، وقرّب وجهه من وجهي حتى كادت ساقه تلتصق بساقي. كانت هيئتة جميلة وهو يرتدي ذلك الثوب الأبيض الناصع والشماغ الأحمر، وكأنه من طلبة العلم، أو من طلاب حلقات التحفيظ. ابتسم بمودّة ومدّ يده وصافحني بحرارة ولم يكترث لمظهري المخيف، ولا حتى لرائحتي الكريهة، وقال متعجّبًا:

- ما عرفتني؟!

قلت وأنا في حيرة من أمري:

- شكلك مش غريب عليّ.

وضع يده على كتفي وقال:

- أنا عمّار.

وما إن لفظ اسمه حتى تبادر إلى ذهني إسماعيل. جحظت عيناي من شدة الدهشة، وابتسمت له. نعم ابتسمت بعد أن مات الفرح في داخلي، وبادرتُ بلهفة:

- أين إسماعيل؟!

لم يجب عن سؤالي! بل تبدّلت قسمات وجهه وزاغت عيناه، وعاد لأسئلته:

- أنت، ماذا تفعل هنا؟ هل تعمل في هذا السوق؟

لم أنبس ببنت شفة، وحدقت في وجهه ساهمًا لا أدري ماذا أقول؟

ثم أعدت سؤالي:

- أين إسماعيل أجبني، فأنا أبحث عنه منذ مدة؟

تنهد قليلًا ثم قال:

- أعرف أنك أكثر مَنْ يهتمّ لأمره. هل أنت متفرّغ الآن؟

ضحكت في داخلي وأنا أجيب عن سؤاله:

- نعم متفرّغ.

- أسألك لأنّني سوف أخبرك القصة كلها.

قلت له فورًا:

- لا تهمّني القصة، أخبرني الآن عن مكان إسماعيل.

كنت أحمل بغضًا لعمّار، مع يقيني بأنه ضحية، ولكن كنت أحب إسماعيل منذ الطفولة، وهو صديقي الوحيد.

من نبرة كلامي شعر بما في دخيلتي، فقال:

- أعرف أنك لا تطيقني، لكن اعلم أنني لست سوى ضحية، وأنني أحببت إسماعيل...

قاطعته:

- ماذا عنه أين هو؟

نظر في عينيَّ وهو يقول بصوتٍ متقطع:

- كنت أظن أنك على علم بما حصل له، وحين سألتني الآن استغربت. سوف أسرد لك القصة حتى تتفهّم لماذا رجعتُ أنا إلى الله، ولماذا قَضَى إسماعيل عندما اختار طريقًا لا رجعة فيه.

لم أستوعب ما قاله، شعرت بوخزة حادة في قلبي، وغصة في حلقي، وقلت غير مصدق ما قاله:

- هل تقصد أنّ إسماعيل مات؟!

نزلت دمعةً من عينيه، فقلت بصوتٍ مرتفع:

- كيف ذلك؟ ماذا حدث؟

اكتفى بعبارةٍ واحدة:

- جرعة زائدة.

كانت أسئلتي تتسارع وأشعر بضيقٍ في صدري:

- أين ومتى حصل ذلك؟

- إسماعيل توفي بجرعة زائدة بعد أن خرجنا من عندك بعدة أيام، وقد وجدوه ميتًا في حي الكرنتينه.

أقفلت فمي بيدي وأنا أنظر نحوه ببلاهة. لم أستطع أن أبكي أو حتى أذرف دمعة واحدة، لكنّ نبضات قلبي تسارعت، وصار جسمي يتعرّق ويرتجف. وضعتُ يديّ على وجهي وأغمضت عينيّ وطأطأتُ رأسي.

ربّت عامر على كتفي وقال:

- ادعُ له بالرحمة.

ثم مضى.

كانت ليلة كئيبة، حزينة، بكيت فيها كثيرًا. عشتها بكل تفاصيل الوجع في ذلك الركن المظلم في أعلى السلّم. مؤلم جدًا أن تشتاق لأحد وأنت تعلم أنّك لن تراه أبدًا في هذه الدنيا، ولن يعوّض مكانه أحد. كنت أتذوق مرارة الألم وأنا أعيد في مخيلتي كل ذكرياتنا الجميلة، والتي ما زالت تؤلمني وتشعرني بالوحدة بعد أن فقدت الأمل نهائيًا برؤية وجه إسماعيل مرة أخرى.

حزنتُ كثيرًا؛ حزنًا عميقًا يتسلل إلى روحي، ولعل جزءًا كبيرًا منه كان حزنًا على نفسي. اختار إسماعيل أن يغادر، تاركًا وراءه هذه الحياة بكل ما فيها، قرر أن يسلك طريق الراحة والسكينة بدلًا من مواجهة الألم كل يوم، ليضع حدًا للمعاناة التي أرهقته. أما أنا فلا أملك القوة التي تجعلني أرتاح من هذا العذاب المستمر، فأبقى أسيرًا للذل والشفقة، وأقنع نفسي بأنني أستحق هذا المصير، وأرضى بما لا أطيق.

أشعر بألم يعتصر قلبي. لم أشيّعه ولم أمشِ في جنازته وأقبّل جبينه، أو أتحسس بيديّ كفنه الأبيض، أو حتى أقول له وداعًا، رحل وترك لي العذاب.

على مدار شهرين قضيتُهما في التشرّد، كنت أبحث عن الهروب من ماضيّ المثقل، أبحث عن فضاءٍ لا يلاحقني فيه شيء من تلك القيود التي وضعتها الحياة حولي. فضاء حيث لا يهمّني رأي أولئك الذين يسعون

وراء المال أو القوّة أو المكانة. فضاء يشعر فيه القط المتشرد والكلب الضال والحمام الذي يلتقط الفتات من بين يديّ، أنهم أصدقائي في عالم لا يعترف بالقواعد التي يقيمها البشر. بين هذه المخلوقات، كنت أجدّ حبًّا حقيقيًّا لا مُزيَّف، يأتي صافيًا يلامس روحي كنسمة، فينسيني بشاعة أولئك الذين يختلفون عن درويش بأمرٍ واحدٍ فقط؛ هو القناع الذي يغطون به وجوههم وكلماتهم ومشاعرهم.

صورة إسماعيل لا تفارق خيالي، كأنها تلاحقني في كل لحظة. أحاول أن أستسلم للنوم كل ليلة، لكن النوم يهرب مني كما يهرب الضوء من الظلام. في تلك الليالي الطويلة التي لا أجد فيها راحة، أستعيض عن النوم بما أستطيع أن أقتنصه من هبات نهارية في المسجد. حتى أصبحت أغمض عيني لفترات قصيرة، في زوايا السوق المزدحمة، حيث أستند إلى حافة الحياة في تلك الغفوات العابرة. كان حب إسماعيل يحيي فيّ اضطرابًا عميقًا، ذلك الاضطراب الذي ينخر روحي ويمنعني من رؤية البشر ككتلة واحدة، فلا أستطيع جمعهم في سلة واحدة، مهما حاولت.

إلى أن جاء ذلك اليوم، حين وقع نظري على طفل لا يتجاوز عمره الخمس سنوات، يذرف دموعه بمرارة، وجهه ملطخ ببقايا الطعام وقميصه مبقّع. أنفه يقطر. شعرت بشيء من الفزع في قلبه، وخمنت أنه ضائع في هذا السوق. اقتربت منه، وحاولت أن أسأله عن والديه، لكنه ظل يبكي بصوت عالٍ، وكأن وجهه يعبّر عن خوف ليس فقط من الضياع، بل من شكلي الذي ربما أثار فيه الخوف أيضًا. حاولت حمله والذهاب به إلى صنابير المياه الخارجية للمسجد، ربما أتمكن من غسل وجهه وتهدئته. لكن في تلك اللحظة، وبينما رفعت الطفل بين يديّ، جاءني صوت رجل غاضب يهزّ المكان: «ما وجدت غير الأطفال لتتحرش بهم؟!» حاولت الدفاع عن نفسي، لكن قبل أن أتمكن من قول شيء، ضربني بهراوة كانت في يده. كانت تلك الصورة الأخيرة في ذاكرتي قبل أن يغمى عليّ.

الفصل السابع

الجنون هو الفصل الأخير في كتاب العقل.

1

لا يمكن للضعيف والخائف أن يكون حرًا، ومَنْ لا يمتلك إرادة حرةً بذاته، سوف يُقاد إلى نهايته بأيدي الآخرين، وهذا ما كان يقع لي.

أنا الآن في المصحة النفسية، أستلقي على سرير في غرفة متوسطة الحجم، فيها ثلاثة أسرة، وعلى مقربة من مدخل البَاب مكتب يجلس خلفه رجلٌ مشدود العضلات. يدور في مخيلتي ما سمعته وشاهدته من أخبار وأفلام عمّا يحدث داخل تلك المصحّات للمرضى، فيدبّ الرعب في أطرافي رغم أنه لم يواجهني ما يخيف حتى الآن، فيداي حرَّتان بلا قيود، ولم أتعرّض للضرب مثلًا، ولا حتى للزجر أو الصراخ.

أخذوا مني عيّنة من الدم، ثم وضعوا بجانبي كوبًا بلاستيكيًا شفافًا، وأمروني أن أذهب إلى الحمام لأملأه بالبول. بعد أن انتهيت من ذلك عدت واستلقيت على السرير، وعلقوا فوق رأسي كيسًا مغذيًا متصلًا بأنبوب، حقنوه في الوريد وطلبوا مني أن أرتاح.

كنت في غاية التعب فنمت من غير أن أشعر. المكان هادئ جدًا، فلم أستيقظ إلّا على صوت الممرض وهو ينادي باسمي: «يوسف تعال معي». لا أعرف كم استغرقت في النوم، لكن أشعر أنني نمت بضعة أيام.

سلكنا ممرًا طويلًا، انعطفنا بعده يمينًا حتى وصلنا إلى قسم فيه عدد من المرضى خلف حائطٍ نصفه الأدنى من الألمنيوم، ونصفه الأعلى من الزجاج. بعضهم كانوا ينقرون بأصابعهم على الزجاج من الجهة المقابلة للفت انتباهي إليهم. قدّرت أن عددهم يفوق العشرين مريضًا.

وضعوني في غرفة بداخلها سرير واحد فقط، كأنها معزولة عن الأقسام الأخرى، وطلب مني الممرض أن أنتظر. رحت أقلّب بصري في زوايا الغرفة التي تشقّق طلاؤها بسبب الرطوبة. عدا السرير، كان فيها خزانة حديدية لها درفتين وباب كان من الواضح أنه يفضي إلى حمّام.

عاد الممرض مرة أخرى وفي يده منشفة ولباس لونه أزرق فاتح، مكوَّن من قميص وسروال واسعين. طلب مني أن أستحمّ وأرتدي هذا اللباس الذي شاهدته قبل قليل على كل النزلاء المرضى في هذا المستشفى.

لم أعد أعرف كم مرَّ من الوقت منذ أن دخلت هذه الغرفة. فقد فقدت القدرة على تحديد الأيام، وأصبحت متورطًا في عزلةٍ تامة. لا فرق بين الليل والنهار في عالمي الآن، فقد اختلطت ساعات الزمن وضاعت بين الجدران. كلما دخل الممرض عادل الذي أصبح وجهه مألوفًا لي، ليتفقد حالتي، كنت أقول له مؤكِدًا:

- أنا لست بمجنون!

فيجيبني مبتسمًا:

- ومن قال لك إنك مجنون! أو إنّ هذا مكان للمجانين؟

- إذًا متى سأخرج من هذه الغرفة؟!

- لن تتأخر. فقط ننتظر رأي الطبيب. نحن نضعك وحدك لترتاح.

لم أكن أفعل شيئًا في تلك الغرفة سوى النوم المتواصل، والمشي أحيانًا في أرجائها، أو النظر عبر النافذة الواسعة إلى الفراغ الشاسع حول المستشفى. أشعر بهدوء وسلام منعشَين ولا ألم على الإطلاق. قضيت تلك الأيام في حالة من السكون التام بسبب الخدر في جسدي من تلك الحبوب التي أتناولها.

أحيانًا تحضرني صور درويش، وعبير، وإسماعيل وعمّي سالم، فأحاول أن أتمسّك بأحدهم لكنه يختفي، وأنا أيضًا أختفي في سباتٍ عندما أفيق منه أكون منتعشًا ولا شيء يشغلني.

ذات يوم جاءني عادل وقادني مثل التائه في تلك الممرات المتقاطعة، إلى أن أمرني بالجلوس في صالة انتظار صغيرة، وأخبرني أن الطبيب سيراني. كنت أشعر بوهن شديد وبأنّ عظامي لم تعد تحملني.

بعد برهة قصيرة دلفت إلى مكتب الطبيب، كان في بداية عقده السادس،

يقلب أوراقًا بين يديه، وصلعته تلمع من انعكاس إضاءة مصابيح سقف الغرفة. ابتسم حين رآني ورفع نظارته عن أرنبة أنفه، وسألني بلطف:

- كيف حالك يا يوسف.

- حالي كما ترى، بخير ولله الحمد.

عاد مرة أخرى لينكفئ على ملف صغير يقلّب أوراقه بأصابعه المدبّبة.

سألني عن عمري، وعن حالتي الاجتماعية، والبيئة التي نشأت فيها. أسئلة كثيرة تشبه تلك الأسئلة التي سمعتها من قبل من الممرض عادل، وكنت أحاول جاهدًا أن أعيد نفس إجاباتي بتأفف. قلت وأنا أحدق في عينيه اللتين بدتا لي كبيرتين من وراء زجاج نظارته:

- أنا لست مجنونًا يا دكتور؟ أحلف لك بماذا أنني لست بمجنون!

فقال مبتسمًا:

- ومن قال لك إنك مجنون! إنها مرحلة اكتئاب وستمرّ.

وأردف بوجهٍ باش:

- اعتبر نفسك ضيفًا عندنا لأيام معدودة وبعدين تروّح.

اطمأنَّ قلبي، وسار الحديث معه براحة تامة حتى توقفت فجأة عند سؤال احترت في الإجابة عنه، حين سألني:

- لماذا كنت تعيش في الشارع؟

أطرقت رأسي حائرًا. بماذا أجيبه يا ترى؟ وهل أخبره بحقيقة أسبابي؟ هل أخبره بقصتي مع درويش وعبير؟ وبأنني أردت أن أخرج من هذا المجتمع في صورته التي خبرتها وعرفته بها؟ لكن لا، عندها سيؤكد أنني مجنون.

اختلقتُ قصةٍ سردتها على عجلٍ بصورةٍ سخيفة، وكأنني أهذي بكلام غير واضح. أردت أن أتجاوز هذا السؤال بأيّ طريقة، ولكن الدكتور محمود لم يكن بهذه السذاجة حتى تنطلي عليه هذه الحيلة. لاحظت ذلك في عينيه المحدّقتين بخبث في ملامح وجهي وابتسامته الماكرة، فقال لي بعد أن انتهيت من ثرثرتي:

- يا يوسف أريدك أن تثق بي، وأن تعلم أنني هنا من أجلِ مساعدتك،

ولست خصمك أبدًا، وكل كلمة تنطق بها سأدوّنها في ملفك وهو ملفّ في مأمن عن أعين الناس ولا يمكن الاطلاع عليه من أحد غيري.

واضح أنه لم يصدّق ما قلته، فعاد مرةً أخرى ليسألني:

- حدثني عن طفولتك بكل صراحة.

بدأت أتكلم عمّا تحتفظ به ذاكرتي عن طفولتي المبتورة، وعن المأساة التي عشتها في بيتِ عمي. كنت خائفًا جدًا من أن أورّط عمّي فأبدو كأنني أشي به، ويتعرض للمساءلة أو المحاسبة، فكنت متحفظًا في حديثي.

كان الدكتور محمود بين فينة وأخرى يدوّن في الملف الذي أمامه ملاحظات يكتبها باللغة الإنجليزية، كما بدا لي.

أغلق الملف وعاد بظهره إلى الوراء قليلًا وقال:

- نكتفي بهذا القدر اليوم، ولنا لقاء آخر.

أمضيت قرابة الساعة في مكتبِ الدكتور محمود، وعندما خرجت وقف يودّعني بابتسامة. رافقني عادل وأدخلني إلى قاعة فسيحة، فيها مجموعة من المرضى يرتدون نفس اللباس الذي أرتديه. كانت قاعةً نظيفة فيها طاولات طعام وكافتيريا صغيرة.

جزء من المرضى كانوا يذرعون الغرفة ذهابًا وإيابًا، ومنهم من يقف عند الزجاج المطل على الحديقة الخارجية ينظر بعينين ساهمتين نحو الفراغ الممتد أمامه، والبقية جالسون على الكراسي المبثوثة في تلك القاعة.

جلستُ إلى طاولة في أقصى زاوية القاعة، مبتعدًا قدر الإمكان عن المرضى خشية أن يعترض طريقي أحدهم ويصيبني بأذى. داخلَني بعض الخوف وأنا أرى القاعة خالية من أي ممرض، وكثير من هذه الوجوه الصامتة تحدّق بي. كان بعضهم يقترب مني بحذر شديد ثم يعود مسرعًا، وهناك من ظلّ يغرز بنظراته المريبة في وجهي دون أن ترمش عيناه، حتى اقترب مني رجل دقيق الجسم، أصلع الرأس ينظر نحوي تارة وينظر إلى الوراء تارة أخرى. استقر واقفًا أمامي، قال وكأنه يهمس لي سرًا:

- أتعرف ماذا قال المتنبي؟

وراح يتكلم بالفصحى وبسرعة عجيبة. لم أفهم مما قاله سوى عبارة «أرقٌ على أرقٍ»، ثم عاد مرة أخرى ليدور في القاعة مثل ذئب محبوس. وظلّ يدور بشكلٍ منتظم ويتمتم بكلمات سريعة، ثمّ دنا مني مرة أخرى وقال لي:

- أتعرف ماذا قال المتنبي؟

وراح يتكلم بسرعة. وللمرة الثانية لم أستطع حفظ ما يقول، ولكن بدا لي أنه يقولُ شعرًا للمتنبي بطريقة غريبة.

أرَقٌ على أرَقٍ ومثلي يأرَقُ... وجوىً...

وقد بدا لي أنها طريقته في اكتشاف كيف ستكون ردّة فعلي، لأنه بقي يدور ويعود إليّ وحدي عدة مرات حتى توقف وراح يهذي وحده.

كنت خائفًا منهم. جلستُ أراقب كلّ حركة في القاعة. فقد أردتُ أن أعرف مع مَنْ سأعيش أيامي هنا. رأيت أن جميع هؤلاء المجانين كانوا متشابهين، إلا مريضًا واحدًا شعرت بأنه يختلف عنهم. كان يجلس صامتًا يحدق في الحديقة عبر النافذة الزجاجية الكبيرة غير عابئٍ بما حوله، ونظراته بدت طبيعية. كان أسمر البشرة، ممتلئ الجسم قَليلًا وشعره المجعد مرتَّبٌ بعناية. وقد لفتتني تلك العلامة الكبيرة المنحوتة في رأسه من الخلف. كأنها آثار عملية جراحية، أو أنه تعرض لحادث، أو عراكٍ أحدث في رأسه تلك الفجوة. وما أثار فضولي أنه كان يبتسم بود لهذا الأصلع الشاعر حين يقف على رأسه ويتحدث إليه بلطف.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى اعتدت على الجو وتلاشى الخوف تمامًا، لم أعد أشعَر بأنّ أيًّا من هؤلاء المجانين يشكل خطرًا، والأهم عندي أن أيًا منهم لا ينظر إليَّ نظرةً من تلك النظرات التي كنت أتلقّاها بسبب دمامتي أو قصر قامتي. هنا لا تفريق بين القصير والطويل ولا بين الغنيّ والفقير. أحسست بهدوء عميق في داخلي لم أشعر به من قبل.

2

عند الساعة التاسعة مساء أدخلوني في «عنبر ستة»، وهو غرفة مستطيلة وكبيرة مطلية باللون الأزرق الفاتح، يوجد بداخلها أربعة عشر سريرًا، كل مريض له سرير يبعد عن الآخر مسافة متر تقريبًا.

كان سريري بمحاذاة باب الغرفة، الباب عن يساري ومن جهة اليمين تنطلق الأسرةُ صفًا منتظمًا على طول الغرفة. كان مريحًا لي أنني لم أكن بين مريضين. بمجرّد دخول ممرضَيْن من الجنسية الفلبينية تمدد المرضى فوق أسرَّتهم، إلّا أن السرير الذي عن يميني ظلّ شاغرًا وأنا أترقّب بحذر لمن يا تُرى هذا السرير، وفي داخلي أتمنى أن يكون شاغرًا.

بينما كان الممرضان يمرّان علينا واحدًا تلو الآخر لإعطائنا الدواء جاء ذلك الرجل الهادئ الذي شعرت من أول نظرة له بأنه مختلف عن البقية، فاعتلى سريره بجانبي وهو يرمقني بنظرات حذرة. أتأمل في عينيه الصغيرتين وما تخفيانه من حزن عميق، وابتسامته التي تظهر ثمّ تموت سريعًا فوق شفتيه. ما كان يشدني حقًا هو تلك اللمعة الصافية داخل بياض عينيه والتي توحي بحزنٍ عميق كأنه يبكي دائمًا بلا توقف، وهذا كان يثير فضولي لمعرفة ما حلّ بهذا الرجل وما الذي جاء به إلى هنا!

كنت شارد الذهن سارحًا بخيالي عندما جاءني صوت الممرض فجأة وهو يمد لي كفّه لألتقط حبوب الدواء التي كانت تجعلني أنام لساعات طوال، أشعر خلالها بأنّني انقطعت عن العالم وكأنني في غيبوبة تامة.

هذه الحبوب أعرفها جيدًا، منذ أن تم عزلي في تلك الغرفة الباهتة الموغلة في الوحشة عند وصولي إلى هذا المستشفى. إنها تجعلني أنام وتحوّلني إلى جثة هامدة، وحين أستيقظ أحس بأنّني في عالم آخر!

لا أدري كم مضى عليَّ من الوقت هنا! كل ما أعرفه أنني أَلِفتُ

المكان، واعتدتُ على وجوه المرضى. وكان صاحب العلامة في الرأس يشعرني بأنه مختلف عن البقية من خلال نظراته، كلامه وحتى طريقة مشيه وحركاته الطبيعية. فكنت دائمًا أحاول التقرب منه، فألقي السلام عليه في كل مرة ألتقيه فيردّ عليّ السلام.

أسبوعان مرّا من تبادل نظرات الشك والريبة وأخذ الحيطة والحذر تجاه بعضنا البعض، ومع مرور الأيام نشأ نوع من الثقة والراحة بيننا. إلى أن حملت كرسيًا وذهبت أجلس إلى جانبه بينما كان يحتسي الشاي في مكانه المفضل بالقرب من نافذة مرتفعة تطلّ على الساحة الخارجية للمستشفى، حيث يمكن سماع زقزقة العصافير وشيء من أصوات الحياة خارج سور المستشفى.

بادرت بالقول: - اسمي يوسف.

نظر نحوي، بعد تردّدٍ للحظات قال: - أنا محسن.

سألته عن المدة التي قضاها في هذا المكان، لكنه بقي صامتًا. قدّرت أنه لا يريد هذا التواصل بيننا، وعندما وقفت لأتركه قال: - لا أعرف.

مع أن جوابه لم يكن مشجعًا كثيرًا إلا أنه دلالة على عدم الرفض. فجلست.

استمرّيت بطرح الأسئلة عليه، وكانت أجوبته دائمًا مقتضبة. وعندما سألته عن المريض الذي كان يلقي الشعر والخطابة، والذي كان تكرار اقترابه مني بينما يلقي الشعر يقلقني، صمت لأكثر من دقيقة، ثم قال:

- وحيد، اسمه وحيد. إنه رجلٌ طيّب. لا تقلق منه.

كنت أحتاج لشخصٍ أقدم منّي في هذا المكان يمكنني أن أطرح عليه تساؤلاتي عن المكان وناسه وظروفه. وقد ساعدني محسن كثيرًا في معرفة وضع المرضى ومَنْ منهم قد يشكّل خطورة، ومَن لا يستدعي الحذر منه. عندما كلمته عن نفسي وعن معاناتي وكيف أنني دخلت إلى هذا المستشفى ظلمًا وقهرًا، وأنني لست مجنونًا لأطمئنه، ظلّ صامتًا معظم

وقت حديثي على الرغم من معرفتي بأنه يستمع جيدًا. لذلك امتنعت عن كشف السبب الأكبر لوجودي في هذا المكان. فقد كانت قصتي مع عبير تنخر في ذاكرتي وتغذّي حزني، فهي معي في كل أوقات صحوي. وعلى الرغم من كل محاولاتي البائسة في الهروب منها واجتثاثها من أعماقي، عجزت عن ذلك.

أفتقدها، وأحبها. وكل ما بداخلي يندفع نحوها بشراهة على الرغم من كل ما فعلَته بي. أعلم أنها لا تبحث عني وقد لا تفكر بي أساسًا، وهذا يؤلمني كثيرًا. ما يحدث في علاقتي بها يستحق وصفي بالجنون، فكيف لرجلٍ تعرّض إلى كل ما سبّبته له تلك المرأة، أن يبقى يحبها؟

التّفكير بها، واستمرار الأمل باستعادتها يقودانني إلى سؤال: هل أنا فعلًا مجنون؟!

إذا كان الجنون هو ما أراه هنا! أعتقد أنّ الكثير من هؤلاء المجانين اختاروا الجنون بإرادتهم!

3

شيء غريب كان يحدث بين محسن والممرض عادل. أشعر وكأن بينهما علاقة لا تشبه تلك العلاقة المألوفة بين الممرض والمريض.

بدأت أشك في الأمر حين رأيت عادل ذات يوم يضع يده على كتف محسن ويهمس له بكلمات بالقرب من أذنه. ثم رأيته مرة أخرى يربّت عليه، كل ذلك بدا لي غير مألوف في تعامل ممرّض مع مريض، مع أنّ تعامل عادل معي ومع جميع المرضى كان يتّسم بالصبر والتفهّم. وزادت شكوكي، أو دهشتي، حين اكتشفت أنه الممرض السعودي الوحيد من بين كل الممرّضين الذين يشرفون على المرضى.

لم أجرؤ أن أسأل محسن عن شكوكي، على الرغم من توطد علاقتي به بعد أن صار يتحدث معي ويخبرني عن بعض المرضى وحالاتهم النفسية.

العلاقة الأخرى التي لفتتني هي علاقة محسن بوحيد. فكنت أراهما يتحدثان معًا، وحينها كان وحيد يبدو هادئًا وليس عليه أيّ مظهر جنون كما هو حاله عندما يدور وهو يهذي بالشعر. حاولت أن أقترب منهما ولكن محسن أشار بيده لي أن أبتعد. فعدت لأجلس على كرسيّي في تلك الصالة الكبيرة أتأمل محسن وهو يربّت على كتف وحيد الذي كان يبكي بحرقة.

كان وحيد منهارًا ودموعه تنهمر بغزارة، ولم تكن المرة الأولى التي أراه حزينًا، ولكن لأول مرّة أراه يبكي على هذا النحو.

وحيد حالة غريبة! أحيانًا تجده سعيدًا جدًا، يضحك ويقهقه مرسلًا طاقة من الفرح، وأحيانًا ترى على وجهه غمامة سوداء من الحزن. هذا التناقض الذي يعيشه في شخصيته جعلني في حيرة من أمري، فكلما جرّبت أن أبادر للتكلم معه، أراه يبتعد عني ويعتريه حزن مفاجئ.

محسن كان متأثرًا جدًا بحالة وحيد، وبينهما نوع من الألفة والمودة. بدا ذلك واضحًا من تعاطفه مع هذا المريض، فهو يستمع إليه ويعبّر عن إعجابه بما يلقيه من الشعر، مع أنه لا يفهمه على الأرجح. أحاول فهم دفء تلك العلاقة الغريبة حينما أراهما يتحدثان بهدوء.

بقيت أراقب المشهد من بعيد حتى توقف وحيد عن البكاء، ثم قام مثل طفل يمسح عينيه بكفيه ويعود للمشي كعادته بشرود تام في تلك الصالة وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

بإشارة من يده دعاني محسن لأجلس إلى جانبه، فسألته:

- ممَّ يشكو وحيد؟

صمت بُرهة، وبدا لي وكأنه متردد في الحديث.

أحسستُ بأنه يريد أن يخبرني، لكنّه يتردد، فقلت:

- محسن أنت تعلم أنك الوحيد هنا الذي أستطيع التحدث معه. وقد حكيت لك حكايتي وسبب تحوّلي إلى مجنون، ولم أسألك عن سبب وجودك في هذا المستشفى. مع أنك المجنون الأهم الذي أرغب بأن أسمع حكايته، ورأيه ببقية الزملاء من المجانين، إذ يبدو لي أنك تعرف الكثير عنهم.

ضحك من كلامي وضحكت معه، وقلت:

- لا أحب أن أضغط عليك، يمكنك أن تكون صريحًا معي حين تجدني مزعجًا.

التزم الصمت قليلًا وهو يرمقني بعينين متحفزتين للكلام وقال:

- أنا سعيد بعلاقتنا، ولكنّني أخشى أن يغضب عادل لو أخبرتك بالأمر.

سألته مندهشًا:

- وما علاقة عادل بالموضوع؟!

نظر إلى الخارج عبر الزجاج وقال:

– عادل ليس ممرضًا. هو طبيب توقف عن إكمال دراسته من أجلي. إنه أحد أقربائي، وهو مَنْ جاء بي إلى هنا لأنه رأى أنني أحتاج للابتعاد عن المحيط الذي كنت فيه، ولأنه يثق بقدرة الدكتور محمود على مساعدتي، وكان محقًا!

وبعد أن تنهد قليلًا قال:

– عادل ساعدني على معرفة أسرار المرضى، ومَن الذين يجب توخي الحذر منهم، وأخبرني أنّ وحيد يمكن أن يكون عنيفًا لأنه يمر بحالات غضب شديدة، أو فترات يأس قد تحفّزه لفعل شيء يضرّ به نفسه أو غيره.

سألته مقاطعًا:

– ولماذا لا تبتعد عنه، فهناك ممرضون يقومون بهذا الدور.

– لا أدري يا يوسف! كان عندي شعور أن هذا الرجل اختار الجنون مثلك، وضحك وأضاف: وحين تصرّفت معه بمودّة استجاب لمحاولتي التواصل معوه أخبرني بقصته.

قلت له وأنا أستحثه على البوح:

– وما قصته؟

في تلك اللحظة جاءه صوت عادل مناديًا باسمه، فنهض مسرعًا من دون كلمة وكأنني لست موجودًا. فتسمّرت في مكاني أتأمّل وحيد الذي لا يزال على حاله يدور ويكلّم نفسه أو يكلم أشخاصًا آخرين في رأسه!

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

4

في إحدى الليالي، ومع أنني ابتلعت تلك الأقراص المنوّمة، صحوت على صراخ مخيف قادم من زاوية العنبر. رفعت رأسي بكل صعوبة لكنني لم أرَ شيئًا في البداية سوى الظلام، حاولت جاهدًا أن أدقق النظر ناحية مصدر الصوت، لكن كان من الصعب رؤية ما يكفي لتوضيح الصورة.

كان المريض يشتم ويلعن ويسمّي أسماء أشخاص لا أظنهم كانوا من المرضى أو من الممرضين. رفعت جسمي قليلًا والخوف يغمرني من أن يقترب مني بكل هذا الغضب. لم أستطع رؤية ما يحدث، لأن الغرفة كانت مظلمة، لكن انتابتني الحيرة أمام ما يحصل غير عارفٍ إن كنت أحلم، أو إن كان ما أراه حقيقة.

فوجئت بأنّ السكون ظلّ مسيطرًا على العنبر وجميع المرضى غارقون في سكون تام ويغطون في نوم عميق ولا أحد يعترض أو ينادي الممرّضين! بعد قليل دخل ممرضان بيد أحدهما مصباحًا وقاما بالإمساك بالمريض وحقنه بإبرة جعلت حشرجة صوته تتلاشى تدريجيًا حتى هدأ الوضع.

كل ذلك حدث أمامي وأنا في صمت وذهول، إذ لم يحرّك أحد المرضى ساكنًا كأنّهم اعتادوا الأمر، أو أنّ الأمر لا يعنيهم. تلفتُّ نحو محسن فوجدته يشدّ اللحاف بيده على رأسه. علمت أنه كان صاحيًا يراقب ما يحصل. وعندما رآني ألتفت نحوه استدار بجسده إلى الناحية الأخرى.

كان الصمت قد عاد يخيّم في العنبر، فعدت مرة أخرى أحاول النوم وفي ذهني تدور أسئلة كثيرة عن هذا المريض الذي يقع سريره في آخر صفّ الأسرّة، ولا أعرف عنه سوى أنه يجلس معظم الوقت يرسم رسومًا غريبة.

رغم أنها انتهت على خير، إلاّ أنّ هذه الواقعة الوحيدة أرعبتني وذكرتني بمشاهد وأفلام كنت أراها مع ياسين وفيها تصوير للحياة داخل مستشفيات الأمراض النفسية، وتصوير ما يحدث في داخلها من عنفٍ وصراخ ومعارك قد تنتهي بأذى أو بوخزة إبرة مهدّئة أو بصدمات كهربائيّة يرعبني أن أتعرّض لها يومًا.

في اليوم التالي توجّهت إلى محسن مباشرةً وسألته عمّا جرى فقال:

– هذا ناصر. إنه يعاني من اكتئاب، وينتابه غضبٌ وخوفٌ مما وقع له.

سرَت في جسدي رعشة مما يقول، إذ تذكرت كلمات الدكتور محمود عن كآبتي. فقلت متوترًا:

– وهل المصاب بالاكتئاب يصرخ ويهدّد كما فعل ناصر؟

ابتسم بهدوء وقال:

– لا أدري يا يوسف فأنا لست طبيبًا، ولكن لا أعتقد ذلك، فمعظم المرضى هنا يعانون من الاكتئاب ولم يحدث أن تصرفوا بهذه الطريقة.

– وهل تتكرر هذه الحالة مع ناصر؟

– تحدث أمور كثيرة ليلًا، لكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ناصر يشتم بهذا الشكل الغريب.

قلت:

– لا بدّ أنه ضحية هؤلاء الذين كان يشتمهم؟

قال محاولًا أن يهدئ من روعي:

– معظم المرضى هنا ضحايا، ولو تحدّثت معهم ستكتشف ذلك. لكنهم غير مؤذين!

– وهل أخبرك عادل بوضع ناصر؟

– لا... بل ناصر نفسه أخبرني بذلك.

سألته بتطفل:

– يعجبني كونه يمضي معظم وقته يرسم، فهل كان رسّامًا؟

ناصر كان إنسانًا طبيعيًا، يعمل كإداري في قطاع التعليم، وتزوّج من امرأةٍ أحبها وأنجب منها ابن وبنت. لكن كما يحصل في عائلات كثيرة، حدث خلاف بينه وبين زوجته، فتدخّل إخوتها الذين بدل العمل على حلّ الخلاف أصروا عليه أن يطلّقها. رفض ناصر لأنه يحبّها ويحبّ ولدَيه ويخاف عليهما، لكنّ إخوتها أجبروه على الطلاق. كانت الأمر قاسيًا عليه، فأهمل حياته وهدّه شعور الخسارة فصار كل الوقت يهذي بأسماء إخوة زوجته الذين تسببوا له بهذا الوضع.

اعتدت على كل شيء هنا، اعتدت على الأمور التي أفزعتني في البداية، كالاستحمام وأنت عارٍ مع غيرك من المرضى العراة؛ اعتدت على الاستيقاظ في الليل على صراخ ناصر الذي أخافني في البداية قبل أن أعرف من محسن أنه شخص طيّب، لكنّه منكسر ومتألّم نفسيًا.

اعتدت على وحيد يلقي الشعر معظم الوقت ولا يتكلّم إلّا بالفصحى وبلسان مبين، وعندما ينتهي من دورة إلقاء الشعر يذهب إلى طاولة عليها بعض من الكتب ويجلس ليقرأ. اعتدت على أشكال وأنواع من المرضى من جنسيات وأعراق مختلفة... وعلى تصرّفاتهم. وصلت إلى حالة من السلام مع كل ما حولي هنا، بل وأصبحت أشعر بالقرب من هؤلاء الأشخاص الذين لم يبدُ عليهم أنهم يعيرون اهتمامًا أو يدركون شيئًا عن معادلة درويش «المجعرم» التي ظلت تهيمن على حياتي. وأعتقد أن معظمهم، بدرجة أو بأخرى، يحملون نفس الألم. لكل منهم قصة عاش فيها الخذلان، والكذب، والإيذاء، والخداع والإذلال، وكلهم كانوا ضحايا لأناس لا يرحمون؛ حتى بلغ بهم الأمر حد عدم القدرة على الاحتمال فانفجروا في وجه قانون يسود فيه الأقوى ويلتهم الضعيف، والذكي هو من يستطيع الوصول إلى مبتغاه من دون أن يهتم بكيفية الوصول.

علاقة عادل بمحسن، التي لفتتني سابقًا، صارت مفهومة. في ذلك

اليوم رأيتهما واقفان خارج تلك الصالة الزجاجية الكبيرة، في منطقة لا يدخلها المرضى في الغالب. كان محسن مطرقًا رأسه، صامتًا والحزن يكسو وجهه، وما هي إلا لحظات حتى رأيته وضع يده على عينيه وراح يبكي. قمتُ مذهولًا من مكاني ودنوت من الزجاج وقد توترتُ وأصابني قلق جعل قلبي يرتجف؟ ما الذي أصاب محسن؟ كنت أطرق النافذة بيدي وأشير إلى عادل متسائلًا عمّا يحدث، ولكنه لم يعرني أيّ اهتمام.

ازداد قلقي وأنا أراه يجهش بالبكاء وهو جالسٌ متكئٌ على يدهِ اليسرى، ويضغط على رأسه بيدهِ الأخرى. ضاعفت من قوّة طرقِ النافذة، كنت أريد احتضان محسن، والوقوف بجانبه. لا يهمني معرفة ماذا حدث له، المهم أن أربّت على كتفه، وأهدّئ من روعه. كان منظره محزنًا جدًا، وأنا أقف هنا مرتبكًا وخائفًا خلف هذا الزجاج.

وعندما رأيت عادل قد مدّ يده وساعده على النهوض، ثم ذهبا معًا إلى الخارج، خفت ألّا يعود مرةً أخرى! هذا الشعور جعل الخوف يتفاقم بداخلي ويتصلب كجدار، وأنا عاجزٌ عن فعلِ أي شيء.

لكن محسن عاد. عاد حزينًا يتألم ويبكي كثيرًا، وكلّما حاولت الاقتراب منه رمقني بنظرات تجعلني أبتعد حائرًا. لقد انطوى على نفسه، وصار يمضي معظم وقته في العنبر ممددًا على السرير، ولا يخرج إلا إلى الحمّام أو في أوقات الطعام ولا يكاد يأكل تقريبًا. وفي كل ليلةٍ أسمع نحيبه بجانبي ولا أستطيع أن أفعل شيئًا.

5

بعد كلام محسن عن وحيد صرت أستمع إليه يلقي شعره، وأعبّر عن تعاطفي معه، إلى أن بادرت يومًا واقتربت منه وهو يقرأ. لم يعترض عندما رحت أقلّب كتب تلك المكتبة الصغيرة التي يضعها على طاولة صغيرة أمامه.

سألته:

– من أين تحصل على الكتب؟

رفع عينيه إلى وجهي ولم يرد.

لم يكن في نظرته عدوانية أو رفض، فتشجّعت وسحبتُ كرسيًّا وجلست في مقابله وأمسكتُ كتابًا عنوانه *رحلة في عالم النفس*. فتحته ورحت أقرأ من دون أن أنبس بكلمة. بقينا صامتَيْن قرابة الساعة إلى أععاد هو فتح الحديث، فقال:

– من ابنتي، الكتب تحملها لي ابنتي.

– أنت محظوظ أنّ لك ابنة تزورك وتحمل لك الكتب.

– هل تحب القراءة؟ سألني فيما نظره في كتابه.

– كنت أقرأ وأنا في المدرسة، ثم انقطعت لأتحوّل إلى رجلٍ بائس.

– لكنك تبدو لي شخصًا طيبًا.

كلماته لامست شيئًا في جسدي ونفسي وروحي. فقلت:

– لا تتصوّر كم يسعدني أن أكون ما تصفني به، وفي الوقت نفسه أشعر أن الطيبة في غير مكانها مؤلمة.

بقي صامتًا، فأضفت: – بالمناسبة، اسمي يوسف.

– أنا وحيد.

وبقينا صامتَيْن نقرأ، إلى أن نودينا للغداء.

عدة أيام مرّت على ذلك اللقاء القصير مع وحيد عندما لمحتُه يقفُ ساهمًا ينظر إلى الخارج. كنت بحاجة ماسّة إلى شخصٍ أتحدّث معه، فمنذ أن فقدت محسن الذي مضى أكثر من أسبوع على صمته، لم أتحدث مع أحد.

وقفتُ إلى جانبه وألقيت عليه التحية:

- أهلًا يوسف

ابتسمت على أثر تلك الرعشة المنعشة حين علمت أنه لا يزال يذكر اسمي، وقلت:

- كيف حالك؟

أجابني وهو مركّزٌ نظره كأنه يتأمّل الأفق البعيد:

- لا بأس.

- أراك دائمًا تنظر إلى الخارج، هل تحب أن تخرج من هنا؟

- بل دائمًا أفكّر ما إذا كانت الحياة في الخارج أفضل منها هنا!

جوابه أثار عندي فضولًا كبيرًا. كيف سأجيب لو طرح هو عليَّ هذا السؤال؟

أدركت عندها أنه تألّم كثيرًا في ذلك العالم الذي يقع خارج هذه الأسوار، ففضّلت ألّا نتحدّث عن أسباب وصوله إلى هنا، حتى لا أثير ذكريات أليمة في نفسه. كما خفت أن أخسر هذه الرفقة في غياب محسن. فقلت:

- إنه سؤال جدير بالوقوف عنده، ولا يسهل الجواب عليه.

عاد الصمت بيننا، لكنني كنت سعيدًا جدًا بهذا الحوار على قلّة كلماته.

منذ أن صار محسن يمضي معظم وقته في المهجع متمددًا في سريره، كنت ألاحظ غضب وعصبية ناصر، وكيف ينظر بحزنٍ عميق إلى محسن سواء في قاعة الطعام أو كلما مرّ محسن لأيّ سبب. شعرت أن هذا الحزن يشكل رابطًا بيننا. لذا عندما رأيته جالسًا يرسم اقتربت منه وسألته:

- لماذا أنت غاضبٌ هكذا.

لم يكلف نفسه عناء الردّ بل استمرّ يرسم بعصبية أدت إلى تمزيق الورقة، فقلت:

- أعرف أنك مستاءٌ من محسن، فهو صديقك الذي تفتح له قلبك، وقد ابتعد عنك.

ذِكر محسن جعله يتوقف ويرفع نظره نحوي، ويقول:

- هو ليس صديقي، فالصديق تجده عندما تحتاجه ولا يغادرك من دون توضيح السبب.

- نعم، أفهم ذلك، لكن علينا أن نلتمس له العذر إلى أن يعود إلينا ونفهم سبب ابتعاده.

ظلّ صامتًا، فقلت:

- لقد حدّثني عنك، وقد يكون حدّثك عنّي! لا أعرف، لكن أنا أيضًا أود أن أكون صديقك، فنحن نحتاج إلى بعضنا، ولا نعلم كم سنبقى هنا.

دون أن يلتفت، قال لي:

- أنا أريد الخروج، والعودة إلى عملي قبل أن يتم فصلي، فقد اشتقت لزملاء العمل ولولديَّ. ثم التفت نحوي وسألني: وهل أنت سعيد هنا. ولا تريد الخروج؟

نظرت عبر الزجاج وقلت:

- لا يوجد شيء خارج أسوار هذا المستشفى يدفعني للخروج لا أحد ينتظرني، ولا عمل، بل وليس هناك مكان يأويني.

- لكن أين عائلتك؟ أقصد أين أمك وأبوك، وإخوتك؟ ألا يوجد أحد يهتم لأمرك؟!

- أنا؟ أبدًا ليس لي إلّا عمّي وهو لم يكلف نفسه أن يأتي ليسأل عني.

رفع رأسه وحدقّ في عينيّ، وقال:

- مأساة غيرك أحيانًا تخفّف من مأساتك.

قطع حديثنا نداء الممرّض عادل باسمي، فقد كان وقت موعدي عند الدكتور محمود.

أنا لست مجنونًا، هذا ما أكده لي الدكتور محمود. أخبرني بأنني أمرّ بمرحلة اكتئاب شديدة، وهي مرحلة مؤقتة، وأنني يجب أن أتعاون معه لأخرج من هذه الحالة.

- مشكلتنا معك يا يوسف أنك لا تريد أن تتكلم عمّا أوصلك إلى كل هذا الغضب الذي دفعك للعيش في الشوارع. نحتاج لتعاونك حتى نساعدك في التخلص من غضبك. والشرطة بحثت عن أهلك فلم نجد سوى عمّك سالم الذي لا يعرف عنك شيئًا.

ذِكر عمي سالم أقلقني وآلمني. كيف يعرف أنني هنا ولم يأتِ مرة لزيارتي؟

كدت أرضخ لطلب الدكتور محمود وأخبره بكل تفاصيل حبي الذي أوصلني إلى ما أنا عليه، عسى ذلك يسرّع في مرحلة شفائي، وبالتالي خروجي من هذا المصحّ. لكن دفء هذا المكان والشعور بالراحة والطمأنينة جعلاني أفضّل البقاء في هذا المأوى الذي عثرت فيه على ملاذٍ أتاح لي الهروب من غربتي التي كنت أعيشها خارج أسوار هذا المستشفى.

يخطر لي سؤال وحيد. أطرحه على نفسي فلا أجد في نفسي حماسةً للخروج.

6

كلما رأيت محسن في قاعة الطعام، أو التقيته صدفة، أنظر في عينيه عساني أجد تشجيعًا منه على الكلام معه. ذلك الشخص الغامض الذي كان أعقل المجانين هنا صار أكثر من يحيّرني، ويقلقني ما أصابه.

كان الوقت قُبيل الغروب عندما رأيته يمشي بهدوء عبر الزجاج الخلفي الكبير للصالة، متجهًا نحو المهجع. بدا لي أنه في وضعٍ أفضل، فقرّرت أن أبذل جهدًا في محاولة التكلم معه.

اقتربت من باب العنبر وأنا في حيرة كيف سأبدأ الحديث معه؟ دلفت بخطوات مرتعشة فوجدته جالسًا على طرفِ السرير مطأطئًا رأسه يحدق في ساقيه المتدليتين. كان المهجع شبه خالٍ والمكان يلفّه الوجوم والسكون، لأن المرضى غالبًا، قبل المغرب، يكونون في الخارج ولا يعودون إلّا بعد تناول وجبة العشاء.

وقفت عند الباب وألقيت السلام عليه بصوتٍ خافت خوفًا من أن أزعجه. رفع رأسه بتثاقل ونظر نحوي وفي عينيه بقايا دموع عالقة، ثم عاد ليطرق برأسه مرة أخرى بعد أن أجابني بصعوبة:

– وعليك السلام.

تقدّمت بخطوات هادئة نحو تلك المساحة الضيقة التي تفصل بين سريرينا وجلست على سريري فصرتُ مقابلًا له. بعد دقائق من الصمت، تجرأت وسألته:

– ماذا حدث لك يا محسن؟ أخبرني يا صديقي، أنا قلقٌ عليك جدًا.

لم ينبس ببنت شفة، وبقي على وضعية جلوسه، فقلت:

– أرجوك قل أيّ شيء؟ لا تتصوّر مدى قلقي عليك. فقط أخبرني أنك بخير. ليتك تحدّثني عمّا بك. فرِّج عن نفسك.

رفع رأسه ببطء شديد وقال:

- أنا نفسي لا أعرف ماذا يحدث لي؟!

كان رده غريبًا جدًا، ولم أفهم ماذا يعني بكلامه؟ فسألته بذهول:

- كيف لا تعرف ماذا يحدث لك؟ رأيتك بعيني وأنت تبكي بجوار عادل، ثم غرقت في هذا الحزن ولا تنقطع دموعك؟

أجابني وهو يُخرج كلماته بصعوبة، وكأنه لا يريد أن يتحدث:

- صدقني يا يوسف أنني لا أعرف ماذا حلَّ بي، منذ أن وقعت لي تلك المصيبة. وكلما تحسّن وضعي قليلًا، أعرف شيئًا مما تركت خلفي، فأغرق في الحزن والألم.

فقلت مندهشًا:

- وكيف لا تعرف ما حلّ بك؟!

فقال محاولًا عدم البكاء:

- لأنّني لا أعرف من أنا!

كانت كلماته مبهمة، فسألته:

- هل يمكن أن تشرح لي ولو قليلًا مما تقول؟

لم يستطع أن يكبح دموعه، وقال:

- ليتني أستطيع ذلك، ليتني أستطيع ذلك. فأنا لا أعرف نفسي. أحاول أن أتذكر ولا أستطيع.

ثم استلقى على السرير وغرق في نوبة بكاء ولم يعد يردّ على أسئلتي. بدا منهَكًا متألمًا فقرّرت التوقف عن الإلحاح خشية أن أكون سببًا في مزيد من الألم.

غمرني شعور بالخوف والقلق وأنا أراه على هذه الحال بينما الأسئلة تدقُّ رأسي بقوة. ماذا يقصد بأنه لا يستطيع أن يتذكر؟ لم أفهم ذلك، وهل هو يعي ما يقول، أم إنّه مجنونٌ بالفعل؟! كيف لا يعرف شيئًا عن نفسه؟

وقفت عاجزًا عن فعل أي شيء، صامتًا، أتأمله بعينين فيهما الذهول والشفقة، ولا أعرف ماذا أقول فلا شكّ أن وراء ما يقوله قصّة معقّدة.

عاد محسن إلى صمته، وكلما دخلت عليه في المهجع وجدته متدثرًا بملاءة مغطيًا جسده بالكامل وكأنه نائم وسط كفن. أجلس إلى جانبه. أطمئن أنه يتنفس، ولا أجرؤ على كسر طريقته في مواجهة حزنه. يخيفني مشهد الحزن! وكأنه شيخ جليل له مهابة عظيمة في نفسي تُعجزني عن مواجهته، أو التحدث معه. فالحزن كالحب، ليس من السهل التغلب عليه!

مرّ أسبوع حتى جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها. إذ ناداني محسن وطلب مني الاقتراب. كان مسندًا ظهره إلى رأس السرير، ممددًا ساقيه، واضعًا يده اليمني فوق اليسرى وكأنه يصلي. اقتربت بهدوء وجلست فوق سريري أحدق في عينيه الغارقتين في ظلمة الحزن، وفي خطوط التعب المرسومة على وجهه الشاحب. قال لي وهو مستلق في تراخ وذبول وإعياء:

- كنت أراك يا يوسف في كل مرة تدخل هنا، أعرف أنك جئت من وقع أقدامك. اهتمامك بي هو ما جعلني أفكر بأن أوضح لك سبب حزني وابتعادي.

على مدار أكثر من ساعتين، سرد لي محسن قصة صادمة ومؤلمة، جعلت قصّتي سخيفة أمامها. قصّة موجعة يصعب الخروج من آثارها، خصوصًا تلك المحاكمة التي جرت في غياب المتهم، وعجزه التام عن الدفاع عن نفسه.

كلما كان محسن يمسح دموعه ويعود لسرد ما حصل معه، كنت أشعر أن ألمي وحزني عليه يفوق بكثير ألمي تجاه نفسي.

«**لقد عُدتَ إلى الحياة بعد أن كنت ميتًا!**». قال، ثم بعد صمتٍ أضاف:

«هكذا أخبرني عادل وهو يسرد لي ما حصل معي بسبب الحادث».

كانت هذه كلماته التي بدأ بها.

«لقد فقدتُ ذاكرَتي، وما زلتُ لا أستطيع أن أتعرف على نفسي، رغم كل التفاصيل التي أخبرني بها عادل عن حياتي الماضية. الآن أنظر إلى حياتي وكأنها رواية سمعتها على لسانِ عادل، وكأنني شخص آخر تمامًا، غريبٌ عن كل ما مضى.

«بالمناسبة، عادل هو قريبي، ومتخصّص في علم النفس، وقد ارتضى أن يعمل هنا كممرّض ليكون إلى جانبي».

هكذا فهمت علاقة محسن الوطيدة بعادل.

«لقد عشتُ وترعرعت في مدينة 'بيشة' في كنفِ والدتي التي أفنت حياتها وشبابها من أجلي. فقد توفي والدي حين كان عمري لا يتجاوز الرابعة وترك لنا مزرعةً كانت تدر علينا المال من بيع المحاصيل السنوية للتمور. كانت أمي امرأة قوية، تنتمي للأرض وتحب تراب المزارع، ورائحة السماد، وغرس البذور. حرصت على متابعة كل صغيرة وكبيرة في حياتي وحياة المزرعة حتى كبرتُ أنا وتخرّجت من الجامعة وتسلّمت المزرعة وتزوجت من ابنة خالتي، ووسّعت العمل إلى زراعة البنّ ثمّ التجارة بالبنّ والزيوت، فكنت أتحرك بين بيشة وجدة إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم.

«كنتُ أقود السيارة، حين وقع الحادث. دخلتُ في غيبوبة استمرت خمسة أشهر، وعندما استعدتُ وعيي، وجدتُ نفسي في مكان لا أعرفه، وذاكرتي صفحة بيضاء، كما لو أنني لم أعش قط.

«استفاقت عيناي على أنابيب موصولة بجسدي، ولا أدري أين أنا أو ما الذي حدث لي. بدأت أصرخ بعنف وأقاوم بكل قوتي، حتى أنني دفعت عني الممرضة الفلبينية التي هرعت إليّ حتى سقطت على الأرض. ورحت أصرخ: نار... نار... لم أهدأ إلا عندما وجدت نفسي هنا. لم يكن في رأسي سوى صورة واحدة، لكتلة نار اندفعت في طريقي واصطدمت بي.

«كل ما عدا هذه الصورة عرفته من عادل، فهو ابن خالتي المساعد الأكبر لي في استعادة حياتي. يعمل بكل جهده، بالتعاون مع الدكتور محمود، على مساعدتي لاسترجاع ذاكرتي.

«أخبرني الكثير عن حياتي الماضية، وكان لبعض تلك الأمور وقع ثقيل على قلبي، خاصة عندما اكتشفت أنني اعتُبرتُ المسؤول عن الحادث إذ كانت سيارة الشابين أمامي حين وقع الحادث. ورغم أنني فقدت ذاكرتي ولم أستطع الدفاع عن نفسي، لم يُراعَ وضعي وصدر الحكم ببيع كل ما أملك لتسديد حقوق أهل القتيلين.

«أما سبب حزني العميق وبكائي المستمر مؤخّرًا، فهو أنّني سألت عادل إن كان لي أسرة، فأخبرني بحقيقة مرّة هي أنّ زوجتي هي أخته، وأنها توفيت في الحادث. وأنّ أمي لحقت بها متأثرة بحزنها على ما أصابني، فلم تحتمل وماتت هي الأخرى. وقد طلبت من عادل ومن الدكتور محمود عدم زيادة جرعة المخدّر لأنني أريد عبور هذا المطهر من الألم والحزن الفظيعَين عسى ذلك يساعدني».

حينما توقف محسن عن سرد ما عرفه من عادل عن الأحداث التي مرّ بها، راح ذهني يسافر في عوالم من التخيّل، متسائلًا كيف كانت ستتغير تلك القصة لو أنّ محسن عايش تفاصيلها بوعي. كيف كان سيحتمل لحظة فقدانه لزوجته، ثم أمه، ويواجه حكم القضاء الذي يُلزمه بدفع دية القتيلين، ويشاهد بعينيه سلبه كل ما جمعه من مال، ويرى جهده يُباع ويذهب أدراج الرياح، تاركًا إياه محطمًا في وجه واقع لا يرحم.

لم أستطع كبح دموعي، لكنني تيقنت بعد كل ما سمعته أنّ وجوده هنا، وتلك الحبوب التي تهدّئه، راحة له. شعرت بقوّة تلك الحكمة التي تقول: «عندما ترى مصاب غيرك، يهون مصابك عليك».

7

تآلفت أرواحنا نحن الأربعة، أنا، ومحسن، ووحيد، وناصر، حكينا حكاياتنا التي جعلتنا نجتمع في هذا المكان.

كان لأحاديثنا الصريحة تأثيرٌ عميق على شفائنا، كأنّها المفتاح الذي أطلق سراح أرواحنا المقيّدة. كشفنا معاناتنا، وأصبح الحديث عن آلامنا وسيلة لإدخال الضوء إلى عتمة قلوبنا، تخفّف عنّا الكبت والقهر الذي دفعنا إلى هنا.

محسن، كان أكثرنا فرحًا، لأنه بدأ يشعر بنبض الذاكرة يعود إليه، ولو تدريجيًا. لم يتذكر كل شيء، لكنّ بعض الصور واللحظات بدأت تظهر كأطياف في ذهنه، وكأنها نوافذ تفتح على ماضٍ محجوب. كان عادل قد لاحظ التحسّن في مزاج محسن، فأخبرنا بما لا يعرفه محسن عن ماضيه بعد. صرنا جميعًا نمد له يد العون، نحاول أن نرسم له خريطةً لما تبقى من ماضيه، متغافلين عن بعض الحوادث المؤلمة كي لا تُسهم في تعميق جراحه. كنّا جميعًا نحاول تخفيف عبء الذكريات.

بكينا كثيرًا من دون خجل، وضحكنا كثيرًا، وتعاطفنا بمحبّة مع بعضنا البعض، وصار كل واحد فينا يهتم بالآخر ويسأل عنه إذا غاب. وقد لعب الدكتور محمود دورًا مهمًا في مساعدتنا على تخطّي الكثير من آلامنا، وباتت لقاءاته معنا أشبه بلقاءات بين أصدقاء، حتى إنني طلبت منه تخفيف كمية الأدوية المنوّمة، وفعل. الأمر نفسه حصل مع البقية إلى هذا الحد أو ذاك. كما لعب الممرّض عادل دورًا مهمًا مع محسن، ووسّع اهتمامه إلى ناصر الذي صار صدى صراخه في الليالي يتراجع حتى توقّف تقريبًا.

دام هذا الوضع لما يقرب الشهرين، حتى جاء اليوم الذي قرّر فيه

ناصر الرحيل، فقد تحسنت حالته النفسية وتوقف منذ مدة عن رسم تلك الرسومات المشوَّهة والمخيفة، وصارت رسوماته أكثر إشراقًا يعبّر فيها عن شوقه لولدَيه ولزملاء العمل.

بعد خروج ناصر، شعرنا جميعًا بأن جزءًا من أنفسنا قد غادرنا، كأن مغادرته أخذت معها بعضًا من راحتنا وحيويتنا. تركت مغادرته فينا شعورًا بالخوف، وتساءلنا عن حالنا إذا عدنا إلى تلك الحياة التي كانت السبب في معاناتنا. هذا الخوف المشترك جعلنا نقترب من بعضنا البعض أكثر، كأننا نبحث عن شعاع أمل في عتمة الشكوك. بعد حوالى شهر من خروج ناصر أتى عادل إليّ ليخبرني بأننا يجب أن نحاول إقناع محسن بالتفكير في الخروج، علّ ذلك يساعده في استعادة جزء من حياته. كان رأي الدكتور محمود أن العودة إلى الحياة في المزرعة، حيث لم تستولِ المحكمة على الأرض لأنها مسجّلة باسم والده، قد تكون بمثابة خطوة نحو بناء حياة جديدة. ولكن محسن بعنادٍ شديد رفض الخروج وتمسّك بالبقاء، كأنه يخشى إن فتح أبواب ماضيه سيواجه شيئًا قد يدمّر ما تبقّى له.

وحيد أيضًا فكر بالخروج من المستشفى أكثر من مرةٍ، بسبب ابنته أريج التي تلحّ عليه أن يعود ليعيش معها، وفي كل مرةٍ يحاول فيها أن يجمع شتات نفسه، ورباطة جأشه ويتخذ ذلك القرار، يبكي وينهار مثل طفل صغير ويغيّر رأيه...

8

في آخر مرة ذهبت إلى الدكتور محمود، وبعد أن تجاذبنا الحديث طويلًا حول كل ما يتعلق بصحتي النفسية والعقلية، لمَّح لي أنه بإمكاني الخروج إن رغبت بذلك، وأنني لا أحتاج إلى إذن عمي سالم. فقد قال لي: «لقد انقطع أثر عمك سالم ولم يعد يتصل بنا ليسأل عنك، وحسب ما أراه أمامي في تقريرك الطبي، أنت تمرّ بحالة صحية ونفسية جيدة بحيث يمكنك أن تعود إلى حياتك السابقة في الخارج... إن رغبت بذلك طبعًا».

عبارة «إن رغبت بذلك» جعلتني أشعر أنه يخيّرني بين البقاء هنا، أو الخروج لأواجه الحياة من جديد. أحسست بالتوتر والقلق، مع أن الخبر الذي ساقه لي الطبيب يُفترض أن يبعث على الفرح، وأنه بشرى ينتظرها الكثير من المرضى الذين تورطوا في هذا المكان ولم يعد بإمكانهم الخروج.

الطبيب محمود كان مبتسمًا وهو يخبرني بذلك وكأنه يزف لي خبرًا سعيدًا. لكن الوجوم والقلق اللذَين ظهرا على وجهي، جعلاه يعيد ترتيب كلامه، فأضاف يقول: «أنت المسؤول عن حياتك يا يوسف، وبإمكانك أن تفكر في كلامي على مهل. فأنا كطبيب أرى أنك لم تعد بحاجة للبقاء في المستشفى. هذا رأيي ولن أُجبرك على شيء».

خرجت من عنده والأفكار تتجاذبني والأسئلة تطنّ في رأسي!

أخرج؟ إلى أين أخرج؟ ماذا يمكن أن أجد هناك غير ما عشته وخبرته من قبل؟ ما الذي يمكن أن يقدمه لي العالم الخارجي غير الظروفه التي عرفتها، والأماكن التي لا تترك في نفسي ما يجعلني أشتاق إليها؟ من أنا لأستطيع تغيير القوانين التي تحكم هذا الوجود، بحيث تتغير معادلة درويش؟ هل يمكنني أن أكون الطرف الأقوى في لعبة لم أحصل فيها سوى على الخسارة؟ قررت أن أبقى، فهنا فقط لا وجود لتلك المعادلة.

هنا حيث الزمان والمكان لا يستطيعان أن يرسما مشهدًا يفرض فيه أحدٌ إرادته على الآخر.

كيف لإنسان بسيط جدًا مثلي، ليس بإمكانه الدفاع عن نفسه أمام شعيب، ولا أمام عبدالله، ولا أمام درويش طبعًا، ولا حتى أمام حمزة، أن يواجه تعقيدات الحياة في الخارج. كل هذا جعلني أختار البقاء في المستشفى، فلا شيء ينتظرني في الخارج... لا شيء أبدًا!

بعد أن اتخذتُ هذا القرار، شعرتُ بسلام داخلي، وكأنّني وجدتُ ملاذًا في زوايا نفسي المبعثرة. بدأتُ أمضي سَاعاتٍ طويلة في المكتبة، ألتهم الكتب بعينٍ متلهّفة، وأغرق في عوالمها التي لا نهاية لها. كما صار انتباهي منصبًا علَى سلوك أولئك الذين نطلق عليهم لقب «المجانين»، الذين بدوا لي أكثر حرية منّا نحن العاقلين الذين نتخبّط في خيوط الحياة المعقدة. في بعض الأحيان بدأتُ أتبنى تصرفاتهم، بل إنني شعرتُ بشيء من الغبطة في العيش معهم. حياتهم بكل فوضاها وضبابها كانت تبدو أكثر نقاءً من تلك الهاوية التي ننحدر إليها نحن المثقلين بالكآبة والظنون.

كان هذا هو الوضع حتى جاء ذلك اليوم الذي قرّر فيه وحيد الخروج من المستشفى، كدت لا أعرفه وهو يقف خارج الغرفة الزجاجية الكبيرة في ممر صغير يفضي إلى صالة الاستقبال المفضية إلى بوابة الخروج ومعه محسن، فيما عادل يقف على مسافة قريبة. كان وحيد يلبس ثوبًا أبيض، معتمرًا شماغه الأحمر الذي زيّنه سواد عقاله. لأول مرة أراه في هذه الصورة، وحين لمحني محسن أشار لي بيده فاتجهت إليهما.

كان وجه وحيد محايدًا، كأنه غير متأكد من صحة قراره، لكنه رضخ أخيرًا لضغط ابنته المحبّ. شعرت أنه يضحك على كل كلمة يقولها محسن، ليبدو سعيدًا فقط. التفتَ نحوي بابتسامة وصافحني بحرارة وعانقني بشدّة، لكنه حين احتضن محسن انفجر بالبكاء وهو يقول:

«سامحني، ما كنت أريد أن أتركك. سامحني، لم أستطع مقاومة سؤال أريج حين قالت: **يا أبي هل تريد أن تموت هنا وحيدًا؟**».

سؤال أريج أربكني أنا أيضًا. صحيح أن كل إنسان سيموت ولكن كيف؟ وأين؟ وحين أموت هل سأكون وحيدًا؟ هل سيعرف أحد بموتي؟ أم إنّ نهايتي قد تكون مثل نهاية صديقي إسماعيل الذي مات من دون أن يعرف بموتهِ أحد؟

خروج وحيد بعد ناصر، أعادني للتفكير في قرار الخروج. لكن إلى أين؟ عمي سالم انقطع أثره نهائيًا، وإن كان حيًا، فهل سيستقبلني إذا عدت إليه؟ بقي هذا السؤال معلّقًا، لكن سؤال أريج كان أكثر إلحاحًا، «هل تريد أن تموت هنا وحيدًا؟».

بدأت أفكر بالخروج من المستشفى، لا أريد أن أموت وحيدًا.

9

قررت أخيرًا أن أخرج من المصحّ، وأبلغت الدكتور محمود بالأمر ففرح لقراري الذي جاء متأخرًا برأيه، وقال لي:

- أرجو أن تكون هذه المرحلة قد أعانتك على مواجهة الآلام، وعلى أن تدرك أن الحياة فيها من الأحزان أكثر مما فيها من الأفراح، وأنها مسؤولية وعلينا تدبّرها بما يجعلنا نرضى عن أنفسنا فنكون أقوياء.

ثم ضحك وأضاف:

- لا تنسَ أنّ معادلة «المجعرم» التي حدثتني عنها أوصلته إلى السجن! وأنّ سوء تقديرك لمن يستحق هذا الشعور العظيم، الذي اسمه الحب، أوصلك إلى هنا.

أكثر ما كان يقلقني هو أنني سأترك محسن وحيدًا. أبلغت عادل بقراري وبأنني لن أُخبر محسن فقد كنت أخاف أن أغيّر رأيي عند مواجهته. هكذا طلبت من عادل أن يجد طريقة ليخبره بعد خروجي.

رسمت في مخيلتي العديد من السيناريوات لخارطة حياتي الجديدة وتشبثت بقشة الأمل الأخيرة، فربما تكون هناك حياة أخرى تنتظرني.

كانت تلك أكثر فترة التفتّ فيها إلى نفسي وحدثتها وسألتها عمّا تريد، وماذا تتمنى؟

أدركتُ في ذلك الحوار أن الاعتراف بضعف النفس هو أول خطوة نحو استسلامها، وأن الخوف يتغذّى على قناعتنا بأننا لا نستحق إلاّ القاع. فالأماكن لا تُحدَّد قيمتها إلا بما نشعر به فيها. إذا كنت راضيًا ومطمئنًا، يصبح المكان أيًا يكن، ليس إلا امتدادًا لسلام داخلي، أما إذا كنت مستسلمًا وجزءًا من لعبة القهر، فإن أي مكانٍ قد يصبح سجنًا.

كان الحوار طويلًا. تردّدت كثيرًا. لكن أخيرًا قررت الخروج.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصرًا حين وقفت في بوابة المستشفى. أرتدي قميصًا وسروالًا مهلهلَيْن على جسمي القصير والنحيف أهداهما لي الممرض عادل. وعند البوابة ناولني ظرفًا أبيض وجدت بداخلهِ 500 ريال، وحين رفضت أخذ المبلغ اقترب مني وهمَس في أذني:

– هذا الظرف من الدكتور محمود، طلب مني تسليمه لك، فلا ترفضه.

سيارة أجرة كانت تنتظر في الخارج، تقدّمت منها وفتحت الباب بجانب السائق، لكنه طلب مني بلطف الركوب في الخلف. يبدو أنه كان خائفًا مني؛ فأنا بالنسبة له مجنون خرج للتوّ من مصحّة الأمراض النفسية.

رحت أقلب بصري في الشوارع والأشجار والسيارات بشيء من الخوف والارتباك. لم أكن أريد الدخول إلى حي غُليل بالتاكسي، لذلك حين اقتربت من الملعب طلبت من سائق الأجرة أن يتوقف.

توجّهتُ إلى الملعب. وقفت أنظر في وجوه اللاعبين لعلّي أعرف أحدًا منهم... لا أحد! انتقلت إلى وجوه المتفرّجين، كانت بينهم وجوه بالكاد أتذكر ملامحها، فبقيت محتفظًا بمسافة لا تُمكّن أحدًا من رؤيتي، أتابع المباراة وأصوات التشجيع والقهقات التي تتناهى إلى سمعي من كل جانب. لأول مرة أشعر بغربة في الملعب، فخرجت متوجّهًا إلى الحارة.

اقتربت من فوهة شارع الحي الرئيس. تفاجأت بأن «المركاز» الذي كان في زاوية الشارع لم يعد موجودًا. أطرقت رأسي ومشيت أتسلل بين السيارات المتوقفة حتى وصلت إلى الزقاق الذي يؤدي إلى بيت عمي سالم، فأسرعت الخطى متجهًا إلى بيته. على الرغم مما فعله بي، إلّا أنني اشتقت إليه وإلى هيئته الهزيلة وصوته الثقيل. أردت أن أحتضنه وتمنّيت أن يحتضنني، فهو الوحيد الذي تبقى لي. كنت أعرف أنّ من المستحيل أن يستقبلني في بيته، لكنني آمل أن يجد لي مكانًا أبيت فيه ولو لوقت قصير حتى أجد عملًا، فقد كنت مستعدًا لتقبّل أيّ عمل لأبدأ حياة جديدة.

حين توقفت أمام الباب تعجبت مما رأيت، فقد ازداد الصدأ الذي

يحيط بأطرافه، وازدادت الثقوب فيه، وحتى لونه أصبح باهتًا أكثر مما كان. طرقت الباب أكثر من مرة حتى سمعت صوت امرأة. فرحت وانتابني شعور غريب وجميل لأن الصوت الذي سمعته هو صوت عائشه زوجة عمي، وهي تقول من خلف الباب:

- مين إنت؟

- أنا يوسف.

- يوسف مين؟

- أنا يوسف ما غيره وجئت لأسلّم على عمّي سالم.

لا جواب. عمَّ صمتٌ شعرتُ به ينعكس انكماشًا في نفسي.

فقلت مرة أخرى:

- خالة عيشه أنا يوسف هل عرفتني؟

قالت بصوت خافت:

- نعم عرفتك.

انتظرت أن تفتح لي الباب لكنها لم تفعل، وبقيت واقفًا، إلى أن قلت:

- خالة عيشه هل عمّي موجود؟

عاد الصمت للحظات ثمّ نطقَت أخيرًا بكلمتين فقط، كلمتان جعلتاني أشعر بألمٍ في صدري:

- عمك مات.

شعرت بأنّ قدميَّ لم تعودا قادرتين على حملي. تجمدت في مكاني محدقًا في الباب الذي أُملتُ أن يُفتح لي وأجد عمي يرحّب بعودتي ويساعدني على بداية جديدة لحياتي.

كان وقع الصدمة كبيرًا. لقد مات عمي سالم، وها أنا مرة أخرى، وفي نفس المكان، مع اختلاف الزمان، أسيرُ إلى الضياع، إلى المجهول، إلى اللامكان. كنت أريد أحدًا يحتضنني في تلك اللحظات. أحدًا ينادي باسمي، يربّت على كتفي، ويخبرني بأنني لستُ وحيدًا. مشيتُ وأنا أكفكف دموعي. لا أدري إن كنتُ أبكي على عمي أم على نفسي.

من دون أن أتقصَّد وجدت نفسي أمام «عزبة» ياسين. ياسين الذي امتلك شجاعة الرحيل وبدء حياة جديدة... هل لي فرصة لذلك لو حاولت؟

أشعر باختناق. كيف بإمكاني التنفس إن كان الدّاء موجودًا في رئتي وليس في الهواء المحيط بي؟ في هذه الدقائق البطيئة والخاوية يصعد من الروح إلى الذهن حزن الكينونة كلها.

لا بدّ لي من مواجهة مصيري. هكذا توجّهت إلى سوق الخيمة. كان السوق على حاله. من العربة نفسها اشتريت البطاطس وكيس شراب الليمون. في المكان نفسه انزويت أبتلع طعامي. ها أنا أتأمل وجوه العابرين بعينين فارغتين. معظمهم لا يلتفت إليّ. بعضهم يرمقني باحتقار ثم يحوّل نظره عني. بعضهم يرمي أمامي هللة أو ريالًا.

أراقب وجوه العابرين وكأنني أبحث فيها عن نافذة أمل. أريد أن أصرخ: «أعطوني فرصة، أيّ فرصة! أريد حياة جديدة أُعيد فيها بناء نفسي... أريد أن أعود إليكم... لقد تعلمت من كل ما مضى...». لكن صرختي تموت قبل أن تولد؛ فالعابرون يعبرونني كما لو أنني غير مرئي، وإن انتبهوا فإنّ في عيونهم نظرةً لا تراني سوى جسد يستدعي الشفقة، أو يرمونني بنظرةَ قرفٍ واحتقار.

أخيرًا، نمت في المكان نفسه، لكن بقيت على أحلامي. قرّرت ألّا أنهزم. في الصباح رحت أجوب سوق الخيمة، دخلت إلى كل المحلات أسأل عن عمل... أيّ عمل! لكنني دائمًا واجهت الرفض بطرقٍ متعدّدة. على مدى أسبوعين استمرّيت مصرًّا على محاولاتي. وسّعت دائرة البحث فلم أترك سوقًا في المدينة... ولا فرصة.

كنت قد صرفت آخر ريال في جيبي واستمررت أبحث. وكثيرًا ما نمت جائعًا واستمررت أبحث...

كان قد مرّ عليّ ثلاثة أيام وأنا أعيش على حسنات العم جلال، صاحب

«كافتيريا جلال». كنتُ مفلسًا، متعَبًا، جائعًا، عندما جاءني البنغالي القائم على شؤون المسجد وطردني من أعلى السلم حيث كنت أنام.

أطلقت العنان لصوتي المكبوت وانفجرت متعمّدًا في وجهه. كنت بركانًا يثور بلا توقف، أصرخ كمن يريد أن يُسكت كل الأصوات الأخرى. تعمّدت أن أثير الخوف في قلوبهم، أن أُحيل السوق إلى فوضى مرعبة. رحتُ أقوم بحركات جنونية تزرع الخوف في النفوس، إلى أن جاءت الشرطة وأعادتني إلى المصحّ.

10

كنت مرهَقًا جدًا. بفرح أخذت تلك الحبوب التي أعرفها. وها أنا أعود إلى تلك الغرفة. أستلقي على سرير أعرفه. أسلّم نفسي لإجراء التحاليل: سحب عيّنة من الدم، كوب بلاستيكي شفاف أحمله وأذهب إلى الحمام لأملأه بالبول، أنبوب متصل بالوريد... الممرّض الفلبيني يطلب مني أن أرتاح.

كنت في غاية التعب، فنمت من غير أن أشعر.

أفقت على الممرّض عادل يتبسّم وهو يقول لي: «هيّا بنا، ناصر عاد أيضًا، ومحسن ينتظرك بشوق».

عندما سألني الدكتور محمود في لقائي المتجدد معه:

– هل من جديد في الحكاية؟

قلت:

– أبدًا... قررت أن أبقى مجنونًا... كم هم رائعون هؤلاء المجانين.

telegram @yasmeenbook